تفسير من هدى القرآن

المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

الجزء الحادي عشر

سورة فاطر

فضل السورة

جاء في الحديث عن الامام الصادق)ع) قال:

"الحمدين - حمد سبأ و حمد فاطر - من قرأهما في ليلة لم يزل في ليلته في حفظ الله و كلائته فمن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه ، و أعطي من خير الدنيا و خير الآخرة ما لم يخطر على قلبه و لم يبلغ مناه "(نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٤٥(

الاطار العام

اسم السورة:

اتخذ اسمها من فاتحتها التي شرعت بحمد الله على ما فطر السموات و الارض.

تذكرنا سورة فاطر بمحامد ربنا الكريم الذي فطر السموات و الأرض ، و جعل الملائكة رسلا ، و أتقن الصنع ، و أحسن التدبير ، و هو العزيز الحكيم.

ولان معرفة الرب ينبوع كل خير ، وأصل كل فضيلة و خلق كريم ، فإن القرآن يشفي صدور المؤمنين من أوساخ الغفلة ، ببيان أسماء الله و كريم فعاله و واسع رحمته.

فله الملك و التدبير فما فتحه من رحمة لا ممسك لها ، و ما أمسكها فلا مرسل لها.

وضلالة البشر عن هذه الحقيقة تدعوه الى الشرك بالله العظيم ، و يذكر القرآن الناس جميعا بأن فاطر السموات و الأرض و مبتدعهما بدء هو الذي يرزق الانسانمنهما ، فهو الحقيق بالعبادة و حده لا اله الا هو فانى يؤفكون!

ولكي يعرف البشر ربه يحتاج الى إزالة حواجز مثل : حب الدنيا و الغرور بها ، و اتباع المضلين المغرورين بها ، و اتباع الشيطان أو عدم الحذر الكافي منه ، و يذكرنا القرآن بأن و عد الله (بالجزاء) حق ، فعلينا إذا تجاوز هذه الحواجز ، و يبين جزاء الكفار و حسن جزاء الصالحين.

و بعد أن يبصرنا السياق بحاجز تزيين الآعمال (و لعله العادة السيئة) يعود ليذكرنا بربنا العزيز تمهيدا لبيان محور هام (و لعله الأساسي) في هذه السورة . ما هو ذلك المحور ؟

يتطلع الإنسان نحو العزة و الغنى ، و لكنه يضل -عادة - الطريق و بدل أن يحصل عليهما بالإيمان بالله و العمل الصالح ، تراه يؤمن بالشركاء المزعومين ، و يمكر السيئات ، و يذكرنا القرآن بأن الأنداد لا يملكون قطميرا ، و أن المكر السيء لا يحيق الا بأهله ، وأن السبيل القويم لبلوغ الطموح المشروع في العزة و الغنى هو سبيل الله ، و معرفة أنه الفاطر الرازق العزيز الغني ، وأنه المالك الحق ، و أنه الحكيم الذي يجازي كلا بعمله ، و أنه يحب الصالحين .. و خلاصة المحور : تبصير البشر بالسبيل القويم لبلوغ تطلعاته المشروعة.

هكذا يذكر السياق بأن الله أرسل الرياح لتثير السحاب ، و ينزل الغيث حيث يشاء فيحيي به الأرض بإذنه ، فهو الرزاق أو ليس الزرع و الضرع من الغيث ؟

و هكذا ينتشر الناس في يوم البعث للحساب.

و من أراد العزة فلله العزة جميعا (هكذا ينبغي الحصول على العزة ، و هي أعظم طموح عند البشر ، لأنها تعني الأمن و السلامة و الذكر الحسن عند الرب لا عند الطغاة و الأنداد. (

و لكن كيف ؟ و من هو الذي يعزه الله ؟

الجواب : صاحب الكلم الطيب و العمل الصالح ، أما المكر السيء فيمحقه ولا يجنى منه إلا البوار!

منذ ان كنا نطفة أو جنينا ، الى الولادة ، وحتى زيادة العمر و نقصانه ، كل ذلك بيد الله ، و هو مسجل في كتاب ، و هو عند الله يسير (فلماذا نطلب الغنى من غيره ؟ أوليس خلقنا و أجلنا بيده ، فلو قصر أعمارنا ماذا تنفعنا العزة أو الغنى ؟. (!

و بيده الملك . انظر الى هذين البحرين ، أحدهما ملح أجاج ، و الثاني عذب فرات . إنهما لا يستويان (فلا يستوي الصالح ولا المسيء) و لكن مع ذلك يرزقنا الله منهما لحما طريا ، و حلية نلبسها ، و ذلل ظهرهما للسفن الماخرة ، لتنقل البضائع ، و لتهدينا الى نعمهفنشكره بها .

و هو الذي يولج الليل في النهار ، و يولج النهار في الليل ، و سخر الشمس و القمر ، و حدد مسيرتهما ، فهو المالك حقا ، بينما لا يملك الشركاء المزعومون من قطمير (فلابد أن نبحث عن الغنى عند ربنا المالك ، و ليس عند الطغاة و المترفين. (

و هم لا يكشفون الكرب عند الشدائد ، فلا يسمعون الدعاء ، و لا يستجيبون لو سمعوا ، و لا ينفعون يوم القيامة ، ولا أحد أفضل من الخبير ينقل النبأ.

و يؤكد السياق على فقر البشر - كل البشر - الى ربه ، و أن الله هو الغني (فلا يجوز الخضوع لهذا و ذاك طلبا لغناه. (

و هل هنالك فقر أعظم من أن الله إن يشأ يذهبهم جميعا و يأت بآخرين بيسر ؟

)و يبدو أن المحور الثاني الذي يتحدث عنه القرآن هنا بتفصيل ، و هو محور المسؤولية ، يتصل بالمحور الاول ، اذ أن معرفة الانسان بأنه مجازى بعمله يجعله بعيدا عن المكر السيء ، مندفعا نحو العمل الصالح ، يبلغ أهدافه بالسعي و الاجتهاد عبر المناهج السليمة. (

لا أحد يحمل عن أحد ثقل أعماله و وزرها حتى ولو كان ذا قربى (و لا يفهم هذه الحقيقة و يخشى ذنبه الا من يخشى ربه بالغيب و يقيم الصلاة و يتزكى) وانما ينذر الرسول من يخشى الله و يقيم الصلاة و يتزكى ، و انما يتزكى لنفسه.

)و يجب ان يكون مفهوما و بوضوح هذا الامر : إنه لا يستوي الكافر و المؤمن الصالح ، اذ هذه المعرفة تساهم كثيرا في اختيار المنهج السليم لبلوغ الاهداف. (

لا يستوي الاعمى و البصير (فلا يستوي الكافر والمؤمن (ولا الظلمات ولا النور (فأين الضلالة و أين الهدى) ولا الظل ولا الحرور (السلام و الأمن و العافية خير من الحرب و الخوف و المرض) وما يستوي الاحياء (الذين يستمعون كلام الله و يحيون به) ولا الاموات.

و ان الله بعث الرسول منذرا بعذاب نكير يصيب المكذبين كما أرسل في كل أمة نذيرا و مبشرا الصالحين بأن لهم أجرا حسنا .

)و المحور الثالث في السورة فيما يبدو هو الاشارة الى اختلاف ألوان الجبال ، و ألوان البشر و الدواب و الانعام ، و وعي العلماء لإشارات هذا الاختلاف ، و أنهم المصطفون الذين أورثهم الله الكتاب على اختلاف مستوياتهم ، و جزاءهم الحسن عند ربهم ، و لعله يتصلبالمحور الأول في بيان نموذج حي عمن اتبع رضوان ربه فهداه الله الى السبيل القويم للعزة و الغنى و الجزاء الحسن. (

ألا ترى إلى الغيث حين ينزل من السماء يخرج الله به ثمرات مختلفا ألوانها (إن في ذلك لآية على التدبير و حسن التقدير و دقة النظم ، و أن الله مهيمن على الخليقة. (

و اذا نظرت الى الجبال رأيت فيها جددا بيضا و حمرا و غرابيب سود (و هي تشهد بطبقات الصخور في الارض ذات الطبيعة المختلفة ، و تشهد أيضا على السيطرة التامة. (

و هكذا الناس و الدواب و الانعام كل منها مختلف ألوانه (و أختلاف اللون مع و حدة الخصائص يشهد على حسن التدبير ، كما يشهد على أن الخليقة تختلف ، و هكذا الناس ليسوا سواء في درجاتهم ، فليس سواء عالم و جهول) إنما يخشى الله من عباده العلماء ، و إن الذين يتاجرون مع الله بتلاوة الكتاب ، و إقامة الصلاة ، و الإنفاق في سبيله سرا و علانية فان تجارتهم لن تبور ، و إن الله يزيدهم من فضله ، و هو غفور و شكور.

و الكتاب الذي أنزل على الرسول حق و يصدق الذي بين يديه ، و قد أورثه الله الذين اصطفاهم من عباده (وهم ورثة الأنبياء من علماء أهل بيت الرسول (ص)) فمنهم ظالم لنفسه (اذ لم يتحمل علم الكتاب كما ينبغي ، بل خلط عملا صالحا وآخر سيئا (و منهم مقتصد (قدحمل الكتاب بقدر مناسب و هو العالم الرباني الذي يصوم نهاره و يقوم ليله) و منهم سابق بالخيرات (و هو الإمام الذي بلغ حق اليقين. (

و جزاؤهم جميعا جنات عدن يدخلونها يحلون فيها أساور من ذهب و لؤلؤا ، و هم يحمدون الله على ما أذهب عنهم الحزن ، بينما الكفار يخلدون في العذاب الشديد ، و لا ينفعهم الصراخ ، و يقال لهم : ألم نعمركم ما يكفيكم للتذكرة ، و أرسلناإليكم النذير ؟

)و يعود السياق لبيان أسماء الله الحسنى ، مما يوجب علينا تقواه و الحذر من عقابه. (

فالله يعلم غيب السموات و الارض ، و يعلم ما في الصدور (فعلى الانسان مراقبته علانية و سرا) و هو الذي يستبدل قوما بآخرين ، و ان عاقبة الكفر مقت و خسارة ، وأما الشركاء المزعومون (لا يقدرون على نجاتهم من عذاب الله ، لأنهم لا يملكون شيئا) فهم لم يخلقوا شيئا من الارض ، و ليسوا مؤثرين في تدبير السموات ، ولم يحصلوا على تخويل من الله بإدارة شؤون الخلق ، و إنما يعدون أنفسهم غرورا ، و الله يمسك السموات و الارض و يمنعهما من الزوال) فما الذي يصنعه الطغاة و المترفون ؟. (

)و لعل الآيات الأخيرة من السورة إعادة تأكيد على محاورها) ببيان أنهم أقسموا بالله انهم يبادرون الى قبول النذير و أكثر من غيرهم ، و لكنهم ازدادوا نفورا بعد أن جاءهم النذير (و السبب أنهم كانوا يريدون العزة بالكفر و الاستكبار ، و يريدون المال بالمكر، أما الكفر فقد أورثهم المقت و الصغار ، و اما المكر فقد أورثهم الفقر و عاد عليهم بالخسران) ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

)و ينذرهم السياق بأنهم يتعرضون لعاقبة الكفار من قبلهم) فهل ينتظرون ذلك المصير الذي جرت عليه سنن الله التي لا تبديل فيها ولا تحويل ؟! دعهم يسيرون في الأرض لينظروا عاقبة الظالمين من قبلهم.

)و تختم السورة التي تركزت في بيان تدبير الله للخلق ببيان أن الله لو أخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، و لكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذاجاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا (بعض يعذبهم و بعض يغفر لهم. (

و خلاصة القول في إطار هذه السورة : انها تدور حول فكرة أساسية و مؤثرة في تربية الانسان و تزكيته ، و هي إن الله هو المهيمن عليه ، و هو الذي يدبر أموره و شؤون الكون ، ذلك أن الانسان الذي يشهد بذلك ليس فقط يطمئن إلى رحاب ربه ، و إنما أيضا يدفعه هذا الشعور الى أن يحدد تصرفاته و سلوكه وفق مناهج الله سبحانه و تعالى.

و هناك ايحاء آخر لهذه الفكرة ، و هو ان لا يطمئن البشر إلى رخاء ، ولا ييأس عند ضراء.

الملائكة رسل الله

هدى من الآيات

عندما نتذكر أن ربنا حميد - بكل المحامد الكريمة - أو ليس قد فطر السموات و الأرض ، و أستوى على عرش القدرة حيث جعل الملائكة رسلا (لتدبير الامور (عندئذ يهدينا الرب الى أن مقاليد الأمور بيده ، فإذا فتح للناس رحمة فلا أحد يمسكها ، و إذا أمسكها فلا أحديرسلها ، فهو العزيز الحكيم ، و هو الذي يرزق الناس من السموات و الأرض ، و من نعمه الظاهرة رسالاته التي يكذب بها الناس عادة ، و لكن الأمور ترجع إلى الله سبحانه فلا يجوز أن نغتر بزينة الدنيا أو بتضليل الغرور ، و يحذرنا الرب من الشيطان ، و يدعونا إلى عداوته ، لأنه يدعو حزبه إلى عذاب السعير.

هكذا نتلوا في الدرس الأول من سورة فاطر التذكرة بالأصول الثلاثة : التوحيد ، و الرسالة ، و اليوم الآخر .

بينات من الآيات

]بسم الله الرحمن الرحيم[

نزلت البسملة مع جبرئيل كلما نزلت سورة ، و كان الأصحاب يعلمون نهاية السورة اذا نزلت البسملة.

و قد أكدنا : ان اسم الله يعني الصفات الجلالية و الجمالية التي يذكر بها ، كصفة العزة ، و القدرة ، و العظمة من الصفات الجلالية ، و صفة الرحمة ، و الغفران ، و الخلق ، و الرزق من الصفات الجمالية ، و لقد خلق ربنا بهذه و تلك الخليقة ، فلولا رحمة الله ، وقدرته ، و علمه ما وجدت.

فلو كان ربنا مقتدرا ، و لم يكن رحيما ، لم يكن ليخلق الخلق ، و لماذا يخلقه ؟ بلى . لقد خلقنا برحمته فقال تعالى : " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * الا من رحم ربك ولذلك خلقهم " (١)وفي الحديث عن ابي بصير عن ابي عبد الله (ع) قال : سألته عن الآية فقال:

"خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمة الله فيرحمهم " (٢)و هكذا على البشر التوسل الى الله باسمائه الحسنى ، و البسملة أعظمها ، فبرحمته التي وسعت كل شيء) الرحمن) و برحمته الدائمة التي لا تزول (الرحيم) نستعين في أعمالنا.

] [1]الحمد لله[

(1)هود / ١١٨ - ١١٩.

(2)نور الثقلين / ج ٢ / ص ٤٠٤.

لا حمد لاحد ، إلا مجازا ، اما الحمد حقا فهو لله ، الخالق الرازق.

و قد يفتتن الانسان بحمد ما سواه ، لأنه تسبب في وصول نعمة إليه ، و يغفل عن حمد ربــه الذي وهب له الكينونة الأولى ، و لا تزال نعمه تترى عليه بما لا يحصيها العادون.

أما الذاكرون ربهم فيقولون : الحمد لله بجميع محامده كلها على جميع نعمه كلها ، و الحمد لله كما هو أهله ، و يستحقه حمدا كثيرا كما يحب ربنا و يرضى.

و أول ما نحمد ربنا عليه أنه خلقنا ، و خلق السموات و الأرض.

]فاطر السموات و الأرض[

الفطر في اللغة هو الانشقاق ، و قد قال ربنا في سورة (الملك) : " الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. "

و فطر الله السموات و الارض من العدم ، و أنشأهما من غير مثال يحتذي به ، أو خلق يخلق على شاكلته . لقد انشق جدار الظلام الأبدي بإذن الله عن هذه الخلائق التي لا تحصى ولا تحد . و لعل الكلمة توحي بمعنى الإبداع ، و الإنشاء ، و التكون من دون أصل سابق ، أومادة قديمة ، حسبما ذكر بعض المفسرين.

و قد جاء في هذا المعنى عن أمير المؤمنين (ع) انه قال:

"أنشأ الخلق إنشاء ، و ابتدأه ابتداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، و لا حركة أحدثها ، و لا همامة نفس اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها ، و لأم بين مختلفاتها ، و غرز غرائزها ، و ألزمها اشِباحها ، عالما بها قبل ابتدائها ، محيطا

بحدودها و انتهائها ، عارفا بقرائنها و أحنائها ، ثم انشأ - سبحانه - فتق الأجواء ، و شق الأرجاء ، و سكائك الهواء " (١)و ربما توحي الكلمة ايضا : بان الله فتق السموات بعد أن كانت رتقا ، اي كانت كتلة متراصة ، فحدث فيها انفجار عظيم من هيبة الله ، يعبر عنه - سبحانه - بقوله : " ثم استوى الى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين " (٢) فكانت السموات و الأرض ، و لعل الآية التالية تشير الى ذلك : " أو لم ير الذين كفروا أن السموات و الارض كانتا رتقا ففتقناهما " . (٣)و تقول بعض النظريات العلمية الحديثة :إن الكون كان سديما (٤) ، فتكونت منه الشموس بما لا يعلمون.

]جاعل الملائكة رسلا[

الملائكة :هي القوى العالمة ، الشاعرة ، المطيعة لله ، و بعضهم موكلون بالخليقة ، فللسماء ملك ، و للشمس ملك ، و للبحر ملك ، و للريح ملك ، و للمطر ملك ، وللانسان ملائكة حفظة و كتبة.

و بما أن هذه السورة تذكرنا بتدبير الله - سبحانه و تعالى - للسموات و الأرض كان مناسبا الإشارة الى الملائكة الموكلين به ، لكي لا يزعم البعض أن الملائكة قوى مستقلة فيعبدوهم من دون الله ، كما عبد بعضهم الشمس ، و بعض القمر ، و بعض النجوم ، و .. و..

(1)نهج البلاغة / خ ١ / ص ٤٠.

(2)فصلت / ١١.

(3)الانبياء / ٣٠.

(4)السديم : هو الغبار الكثيف.

هكذا نستوحي من كلمة " رسلا "انهم مجرد حملة الأوامر الى حيث يجري تنفيذها بإذن الله وبحوله و قوته.

وكلمة "رسلا " لا تعني الاختصاص بالرسالة التشريعية ، التي منها (التوراة والانجيل و الزبور و صحف ابراهيم و قرآن محمد) و لكن الملائكة تتنزل بإذن ربها من كل أمر ، في سائر شؤون الخليقة.

]أولي أجنحة مثنى و ثلاث و رباع[

جاء في الأثر عن طلحة باسناده ، يرفعه إلى النبي - صلى الله عليه وآله - قال:

"الملائكة على ثلاثة أجزاء ، فجزء لهم جناحان ، و جزء لهم ثلاثة أجنحة ، و جزء لهم أربعة أجنحة " (١)و لبعض الملائكة أكثر من ذلك بكثير ، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في صفة الملائكة:

"ان لله تبارك و تعالى ملائكة لو أن ملكا منهم هبط الى الارض ما وسعته ، لعظم خلقته ، و كثرة أجنحته ، و منهم من لو كلفت الجن و الانس أن يصفوه ما وصفوه ، لبعد ما بين مفاصله ، و حسن تركيب صورته ، و كيف يوصف من ملائكته من سبعمائة عام ما بين منكبه وشحمة أذنيه ، و منهم من حد الأفق بجناح من أجنحته دون عظم بدنه " (٢)[يزيد في الخلق ما يشاء[

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٤٦.

(2)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٤٦.

و قد أكدنا القول في سورة سابقة : ان الكون في حالة توسع دائم و مستمر ، و هذه الآية توحي بأن يد الله مطلقة ، و أن بيده البداء.

]إن الله على كل شيء قدير[

[2]و ما نراه من صنوف الخلائق ، و عجيب صنعها ، و عظيم تقديرها ، و تدبير شؤونها ، يهدينا الى أن خالقها مقتدر لا يعجزه شيء ، مما يزيدنا ثقة به و اطمئنانا لتدبيره ، و سكينة في القلب تساعدنا على تقلبات الحياة ، فلا نقنط بالبلاء ، ولا نستريح عند الرخاء، و لانطمئن الى الدنيا و أسبابها التي لا تثبت على حال.

]ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها[

فإن رحمة الله لا أحد يستطيع أن يمنعها عنك اذا قدرت لك.

]وما يمسك فلا مرسل له من بعده و هو العزيز الحكيم]عزيز لانه قادر ، و حكيم يرسل لمن يشاء و يمسك عمن يشاء ، كيفما يشاء بحكمة و ليس عبثا.

] [3]يا أيها الناس اذكروانعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء و الأرض]فهو الذي خلقنا ، و هو الذي يرزقنا ، و في آيات قرآنية قال الله سبحانه و تعالى : إنه خلق الكون في يومين ، و قدر الاقوات في أربعة أيام ، مما يهدينا إلى أن الذي خلقنا في يومين أعطى ضعف الوقت للرزق ، فلم الخوف إذا من توقف رزقه ؟

فهل من خالق غير الله يرزقنا ، من الذي وزع الثروات في الأرض ، و من الذيوهب لمنطقة أرضا زراعية ، و لأخرى معادن أودعها ضمير الارض منذ ملايين السنين ليستفيد منها الإنسان الآن وغدا.

و ثقة البشر برزق ربه كفيلة بسد أبواب الشيطان التي يلج منها لتضليله اذ يصور له أن الاخرين يرزقونه.

و لعل هذه الثقة تدفعه الى البحث عن الرزق في حقول الطبيعة ، و يسعى في مناكب الارض يحرثها ، و يثير دفائنها ، و يسخر طاقاتها لمصلحته ، و لا يجلس في انتظار الآخرين أن يرزقوه أو يطعموه.

وهكذا تكون الفكرة المستوحاة من الآية أولا تساهم في تزكية النفس ، بينما تساهم الفكرة الثانية في بناء الحضارة بالإعتماد على رزق الله ، و تفجير الطاقات المهيأة للإنسان.

]لا إله الا هو فانى تؤفكون[

أين تذهبون ؟! وإلى أي إفك و كذبة يدفعكم شياطين الجن و الانس الذين يوحون إليكم بأنهم رازقوكم.

] [4]و إن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك[

في الآيات القرآنية تاكيدات كثيرة على هذه الفكرة : و نستوحي من ذلك : أن آراء الناس ليست مقياسا سليما لمعرفة الحق ، ذلك أن الانسان يجعل - عادة - آراء الآخرين مقياسا ، فيقول : ما دام الناس يقولون : هذا كذب فهو كذلك ، و من هنا يؤكد ربنا : " وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين " وان اكثر الناس قاوموا رسالات الله فأظهرها الله بالرغم من ذلك.

]و إلى الله ترجع الأمور[

و هكذا أكد السياق أن الرازق هو الله ، و أن آراء الناس ليست مقياسا ، و أن الأمور لا تعود الى هذا أو ذاك ، ممن يتخذهم الناس أندادا من دون الله ، بل الى الله ترجع الامور ، و هناك يكون الحساب عادلا حيث يجازى المحسن جزاء الضعف ، و لا يعاقب المسيء الا بمثل عمله.

[5]ثم يؤكد الله هذه الحقيقة فيقول:

]يا ايها الناس إن وعد الله حق[

إنما يكذب الناس برسالة الله لآنهم عبدوا الدنيا و ما فيها من مباهج وزينة ، فبعض غرتهم الدنيا مباشرة كالطغاة و السلاطين و كثير من الناس ، و بعض غرهم المغرورون بالدنيا من هؤلاء ، و إنما أهلك هؤلاء السذج اتباعهم لاولئك من دون لذة أو شهوة.

فترى أدعياء الدين و العلم يستخدمهم السلاطين للتغرير بالبسطاء من الناس فيسلبون منهم دينهم و دنياهم ، و إنما يرفل بالنعم الطغاة و أعوانهم ، و لا يبقى للضعفاء سوى الضلالة و الغرور.

]فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور]و قيل ان الغرور : هو الشيطان.

[6]للإنسان عدوان : عدو داخلي و هو النفس ، و عدو خارجي وهو الشيطان ، و على الانسان أن يتخذ موقفا واضحا من الشيطان لكي يتميز نداءه التضليلي عن داعي الله ، ذلك أن الانسان يملك في نفسه قوتين متضادتين هما : العقل والهوى ،و يؤيد العقل الملائكة بينما الهوى يدعمه الشيطان ، و في الحديث : ان كل شخص موكل به ثلاث و ثلاثون ملكا ، و مثلهم من الشياطين.

و من مكر الشيطان بالانسان خلط الاوراق عليه ، حتى لا يميز هذا عن ذلك ، فتراه يلبس الباطل بالحق ، و يوسوس في الصدور حتى يتشابه الحق بالباطل ، و لكن اذا عرف الانسان أن في قلبه شيطانا يسعى لاغوائه ، و اتخذه عدوا تميز العقل عن الهوى في نفسه ، و أمكنه معرفة طبيعة دواعيه النفسية هل هي من عقله أو من هواه.

و في الروايات : " انظر أيهما أقرب الى نفسك فخالفه " لأن الأقرب الى النفس أقرب الى الشيطان.

]إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا [

علما انه ياتي بعض الاحيان في صورة الناصح ، انه عدو مبين ، يأتي لك من تسع و تسعين بابا من الخير كي يوقعك في المائة . انه عدو و قد آلى على نفسه ان يضل بني آدم ، و يدخلهم معه النار.

هكذا تناصح الصالحون بألا يغفل ابن آدم عن عدوه الخطر و هو الشيطان ، فهذا الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حين يأتي اليه رجل و يقول له : بأبي أنت و أمي عظني موعظة يقول له:

"ان كان الشيطان عدوا فالغفلة لماذا ؟؟! " (١)و جاء في حديث ان الله اوحى إلى كليمه موسى بن عمران عليه السلام ، و كان من بين وصاياه:

(1)المصدر / ص ٣٥١.

"مادمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكره " (١)و خطورة هذا العدو اللدود انه لا يرضيه شيء إلا إذا أوقع فريسته في نار السعير مباشرة.

]إنما يدعوا حزبه[

ممن يطيعونه..

]ليكونوا من أصحاب السعير[

[7]الذين كفروا لهم عذاب شديد[

و عذاب الدنيا مهما كان لا يبلغ شدة عذاب الآخرة ، فعلى العاقل أن يتحمل صعوبات الدنيا لكي يتجنب عذاب الآخرة ، كمن يهرب من النار عبر طريق شائك يدمي رجله ، بلى . أن ينجو من النار على حساب رجله أفضل من أن يلتهمه سعيرها.

]و الذين ءامنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة و أجر كبير]لماذا يؤكد القرآن على المغفرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟

ربما لأن المغفرة للمذنب ، و أبناء آدم - عادة - يذنبون فإذا عرفوا غفران الله عظم الأمل في قلوبهم حيث يقول لهم الرب : ما دمتم تعملون الصالحات فسوف يغفر لكم ذنوبكم.

(1)المصدر.

[8]ثم يؤكد القرآن على أن الشيطان يزين الاعمال السيئة للانسان حتى يراها صالحة.

]أفمن زين له سوء عمله فرءاه حسنا [

يزينه له الشيطان ، فيراه حسنا ، ذلك أن الإنسان يحب نفسه و لا يحب أن يقال عن عمله أنه سيء ، و هكذا تتكرس الخطايا عنده ، اذ تنقلب مقاييسه و قيمه فبعد ان كان يتحاشاها أضحى اليوم يراها حسنة .

و بالنسبة الى هذا الرجل يعصب عليه الاقلاع من الذنوب فيضله الله.

يقول الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

"بينما موسى جالسا ، اذ أقبل ابليس و عليه برنس ذو ألوان ، فلما دنى من موسى خلع البرنس ، و قام الى موسى فسلم عليه ، فقال له موسى : من أنت ؟ قال : أنا ابليس ، قال : انت فلا قرب الله دارك ، قال : اني انما جئت لأسلم لمكانك من الله ، فقال له موسى:
فما هذا البرنس ؟ قال : به اختطف قلوب بني آدم ، فقال له موسى فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه أبن آدم أستحوذت عليه ؟ قال : إذا أعجبته نفسه ، و استكثر عمله ، و صغر في عينه ذنبه " (١)[فإن الله يضل من يشاء و يهدي من يشاء[

فالله يضل هذا الانسان الذي يبرر أعماله الفاسدة ، فيسلب عقله ، و يتركه في ظلمات لا يبصر ، و يهدي الله الذي آمنوا و عملوا الصالحات بما صبروا و أطاعوا.

]فلا تذهب نفسك عليهم حسرات[

(1)المصدر / ص ٣٥٢.

حين لا يؤمنون بك.

]إن الله عليم بما يصنعون[

لله العزة جميعا

هدى من الآيات

في إطار تبيان تدبير الله لأمور السموات و الارض ، و تكريس حالة السكينة في نفوس المؤمنين به ، يربط السياق هنا بين سنن الله في الخليقة و بين سننه في حياة البشر.

و يدعونا الى إلقاء نظرة فاحصة الى السحاب الذي تحمله الرياح ، و تبعثه الى البلاد الميتة فيحييها ، ثم نظرة الى حياة الانسان وما يختلج في قلبه من نزعات و تطلعات ، فكل شخص يريد أن يصبح عزيزا ، منيع الجانب ، و لكن البعض قد يخطىء الطريق ، فلا يعرف أن العزة الحقيقية إنما هي عند الله عز وجل ، و أن المعراج إليه هو الإيمان و العمل الصالح ، و يدفعه هذا الخطأ الى اصطناع المكائد و المكر ، و لا يحيق المكر السيء إلا باهله فلا يحصل على عزة و لا غنى.

إن ربنا سبحانه يذكرنا بأيام ضعفنا :من الذي قوانا ؟ أولم نك نطفة من منييمنى ؟ من الذي سوانا فعدلنا ؟

إن الرب الذي جعل من النطفة المهينة إنسانا سويا ، هو الذي يعز من يشاء ، و يذل من يريد ، و يتصل الحديث عن العزة بالحديث عن البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه ، و هذا ملح أجاج ، و مع أنهما لا يستويان ، إلا أن الله يرزق العباد منهما جميعا بحيث يستخرجون لحما طريقا كما يستخدمونهما لمصلحة النقل فيهما عبر السفن.

و كل ذلك الحديث يربطه سبحانه بالليل و النهار : فمن يولج النهار في الليل ، و يولج الليل في النهار ؟! أو ليس الله ، فلماذا نطلب العزة عند غيره ؟!

بينات من الآيات

[9]إن المؤمن يجعل الحياة مدرسة ، و يجول ببصره في أرجائها ليزداد وعيا و هدى ، و من أكثر تجليات الحياة روعة ساعة انبثاقها عندما يأمر الله الرياح لتحمل السحب الثقيلة بالبركات الى موات الارض حيث يحيط السكون بكل شيء فيحييها الرب بها.

]و الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا[

الرياح تثير السحاب ، كما يثير الزارع الارض للزرع ، فترسله كيفما يشاء الله.

]فسقناه إلى بلد ميت[

و كلمة " فسقناه " تدل على أن ربنا هو الذي يدبر الغيث فيرسله الى بلد ميت فيحييه ، و سقاية الغيث ليست فوضى انما هي خاضعة لعمل بني آدم ، فليس مطر سنة أقل من مطر سنة أخرى في بلد ، و لكن عمل البشر هو الذي يزيده أو ينقصهتماما ، و ما الرياح الا وسيلة لان الله أجرى الأمور بأسبابها.

]فأحيينا به الأرض بعد موتها[

تعال إلى أرض موات لتجد البشر صرعى الجوع ، و الاحياء في ضمور ، وأديم الارض يشكو العطش ، فإذا أنزل عليها الرب الماء اهتزت ، و دبت الحيوية في الانسان ، و انتعش الأحياء . إن هذا مظهر من مظاهر انبثاق الحياة.

]كذلك النشور[

[10]و كما الارض يحييها الرب بالغيث ، و كما الأموات ينشرهم كيف يشاء يوم القيامة ، كذلك المجتمع المتخلف الذي يحيط به سكون المقابر يحييه ربنا بعزته ، فإذا أراد المجتمع الإستقلال و التقدم و العزة و بالتالي الحياة فعليه أن يعرج الى الله بالعمل الصالحو الكلم الطيب.

هذه قدرة الله أن جعل - هذا البلد الذي مات فيه كل شيء - ينبض بالحياة ، فكيف يكفرون بالبعث و النشور ، أفلا يؤمنون بأن ربنا قادر على أن ينزل مثل هذا المطر على أجداثهم ، فتنمو فيها الحياة ، مثلما ينموا الزرع ، و يخرج الناس من قبورهم كما تخرج النباتات ؟
!و قد دلت بعض الروايات على هذه الفكرة ان الله يمطر السماء أربعين صباحا ، فتنبت الاجسام فتكون الارض كما رحم الام.

]من كان يريد العزة فلله العزة جميعا[

لا عند الشركاء أوليس (من اعتز بغير الله ذل) ؟!

]إليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه[

الكلم الطيب هو العقيدة الصالحة ، لأن الكلمة في القرآن لا تدل على اللفظ ، بل على ما ورائها من معنى ، كما قال ربنا سبحانه : " و مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء " و قد فسرت هذه الآية بالقيادة الرسالية ، ولا ريب ا ن سنامالعقيدة الصالحة و مظهر صدق الانسان في إيمانه هو التسليم للقيادة الإلهية (الولاية) و الكلم الطيب يصعد الى الرب و يصعد معه صاحبه معنويا . أو ليس الإيمان هو أثقل ما في ميزان العبد ، و ما عبدالله بمثل التوحيد ؟

ولا ريب ان الكلم الطيب - كما الشجرة الطيبة - تنتشر فروعها في كل أفق ، فمن العقيدة الصحيحة يشع التسامح و الحب و نبذ العصبيات و الافكار اليائسة والسلبية ، و كل أولئك يقرب العبد الى ربه زلفى .

كما أن العمل الصالح يرتفع الى الله و يرتفع صاحبه به فيتقرب اليه ، و بالكلم الطيب و العمل الصالح يصل المجتمع الى العزة الالهية.

و قد ذكر للعمل الصالح تفسيران:

التفسير الأول : إن العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب (١) فالعقيدة الطيبة ترفع العمل الصالح ، لأن عامل

الحسنة بلا إيمان لا يقبل منه " انما يتقبل الله من المتقين. "

التفسير الثاني : إن العقيدة الصادقة و الكلم الطيب يرفعه العمل الصالح ، فالعمل الصالح بمثابة الأجنحة للطير.

و تتجلى هذه الحقيقة في الحياة الإجتماعية بأن الكلمة الطيبة و العمل الصالح(١) التفسير الكبير : الامام الفخر الرازي / ج ٢٦ / ص ٨.

يرفعان المجتمع الى الأعلى دائما حيث العزة الإلهية . كيف يتم ذلك ؟

كما القارب يسير مع التيار كذلك الحياة تسير مع السنن الحاكمة عليها ، فمن مشى مع تلك السنن حملته الحياة إلى الأعلى ، و من عارضها خاب سعيه و بارت خطته .

فالحقد و البغضاء و التهمة والعداوة تفصم عرى المجتمع ، و قد بنى الله الحياة على أساس الوحدة لا التفرقة ، فتيار الحياة يجري باتجاه التجمع ، و هل يصعد ذلك التيار إليه سبحانه ؟! كلا .. إنما الصاعد إليه الحب و التعاون و الإيثار.

إن الكون قائم على أساس البناء لا الهدم ، و ان الذي يبني يتقدم على الذي يهدم لأن سنن الله تؤيد الذين يبنون ، و يخطىء أولئك الذين يمكرون السيئات ، و يعتقدون أن باستطاعتهم أن يتقدموا بها ، فليس هؤلاء فقط لا يصعدون الى الله ، ولا ينالون من عزة الله شيئا ، بل لهم عذاب شديد.

]و الذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد[

المكر هو الحيلة ، و من يعيش عليها لا يفلح.

]و مكر أولئك هو يبور[

عملك الصالح يرفعه الرب ، و مكر أولئك ينزله ، و يبور أي يفسد ، و كثير من الناس الذين يبتزون الناس ، كالمهربين و المحتالين ، نجدهم ربما يربحون مرة ربحا خياليا ، و لكنهم بالتالي يخسرون.

و العزة يعني أن تبحث عن الطريق القويم ، فتمشي فيه ، وآنئذ سوف تجد أن سنن الحياة كلها تخدمك .

[11]ويؤكد السياق شمول تدبير الله لشؤون الإنسان ، و يبين كيف تجري تقلبات حياة البشر على كف تقدير الله سبحانه ، فلقد خلقنا من تراب أولا ثم من نطفة ثم خلق لنا أزواجا ، و رزقنا ذرية ، لا نعرف جنس الحمل ولا تقديراته.

]و الله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا]حتى تستأنسوا الى بعضكم.

]و ما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه[

لأنك في لحظات الجنس قد لا تفكر في شيء ، و لكن الله يعلم ما تحمل كل أنثى . أهو ذكر أم أنثى ، كما يعلم ماذا يؤول اليه مصيره.

]و ما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب]كم يكون عمر هذا المولود ؟ و هل سيعمر طويلا ؟ أو يباغته الأجل في عز طفولته أو ريعان شبابه ؟ كل هذه التساؤلات في كتاب عند الله ، لا يضل ربي ولا ينسى.

]إن ذلك على الله يسير[

هذه الأمور ليست عسيرة عند الله كما هي عسيرة عندك.

] [12]وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه و هذا ملح أجاج]الفرات والأجاج تأكيد لشدة العذوبة به و لشدة الملوحة.

]و من كل تأكلون لحما طريا و تستخرجون حلية تلبسونها]من الماء العذب و المالح تأكلون لحما و تستخرجون حلية ، و قد وقف المفسرون طويلا حائرين ، كيف يمكن استخراج الحلية من الماء العذب الفرات ، فجاء العلم و أثبت أمكانية تربية اللؤلؤ في الانهار.

]و ترى الفلك فيه مواخر[

في عموم الماء ، عذبه و مالحه ، من اجل أمرين:

الأول:

]لتبتغوا من فضله[

لأن السفينة لم تزل أفضل وسيلة لنقل البضائع بين الشعوب.

الثاني:

]و لعلكم تشكرون[

حيث ان النعم وسيلة للكمال المعنوي المتمثل في شكر الله.

أنتم الفقراء الى الله
هدى من الآيات
يتشبث الإنسان ببعض الخيوط الواهية (العنكبوتية) ، و يترك ذلك الحبل المتين الذي لابد أن يعتصم به ، و تذكرنا آيات القرآن بأن مدبر السموات و الأرض هو الله ، فهو الذي يولج الليل في النهار ، و يولج النهار في الليل ، و سخر الشمس و القمر ، و أن له الملك، فلماذا لا ندعوه ، بينما الذين يدعونهم من الشركاء لا يملكون حتى بمقدار قطمير.

و بالذات عند الضراء ، حيث يتحسس البشر بضعفه الحقيقي ، لا يعقل هؤلاء الأنداد شيئا اذ لا يسمعون النداء ، و لو سمعوا لم يستجيبوا.

أما يوم القيامة فهؤلاء لا يشفعون لأحد اذ يكفرون بالمشركين.

ثم يؤكد ربنا هذه الحقيقة قائلا " : يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله و الله هوالغني الحميد " لماذا ؟

لانه يستطيع بأقل من لحظة واحدة أن يفنيكم عن أخركم ، و ينشىء مكانكم مجموعة بشرية جديدة ، و هل هناك فقر أكبر من هذا الفقر ؟ فالإنسان في وجوده و في استمرار بقائه يحتاج الى ربه ، و هل هناك غنى أكبر من غنى الرب ، الذي لو شاء اذهبكم ، و اتى بخلق جديد ؟ وهذا هين عليه و يسير.

ثم يحدثنا السياق عن مسؤولية الإنسان أمام ربه عن جميع أعماله ، و انه لا يستوي عند الله الصالح و الكافر ، كما لا يستوي الأعمى و البصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل و لا الحرور ، و لا الاحياء و الاموات.

فلا يجوز الإعتماد على الأنداد للهروب من المسؤولية كما لا يمكن القاؤها على الآخرين.

و إنما جاء الرسول نذيرا)بأن السيئات تستتبع عقابا) و هو بالتالي لا يحمل من تبعات أمته شيئا.

بينات من الآيات:

[13]]يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل]الليل و النهار يلج أحدهما في صاحبه بصورة مستمرة ، بسبب حركة الأرض حول الشمس.

قال بعض المفسرين : إن كلمة " يولج " تدل على الإستمرار ، لأنه في كل لحظة يتم إيلاج ، ففي هذه الساعة حكم الليل في أحد البلدان ، و بعد دقيقتين سيحل الليل على بلد آخر ، و في المقابل يحل النهار على بلد في نفس الوقت ، و الظهرفي بلد ثالث.

و هناك تفسير آخر يحتمله الكلام هو إن الليل و النهار يأخذ أحدهما من الآخر في فصول السنة فمرة يكون الليل أطول و مرة النهار.

]و سخر الشمس و القمر كل يجري لأجل مسمى[

الشمس و القمر يجريان ، و لكن ليس إلى مالا نهاية ، و كذب من قال : إن الشمس و القمر أبديان ، كلا .. فشمسنا هذه مثلا في حالة الكهولة ، و كل مافي الكون يؤكد على النهاية ، فهذه الإنفجارات الهائلة في الشمس شاهد على تناقصها بشكل دائم ، و الإنفجارات التي نسمعها بين الفينة والأخرى لبعض الشموس تؤكد لنا أنه لابد من نهاية لشمسنا أيضا.

]ذلك الله ربكم له الملك[

من الذي أولج الليل في النهار ، و أولج النهار في الليل ، و من الذي سخر الشمس و القمر ، كل يجري لاجل مسمى ؟ إنه الله ربكم ، وهو المالك حقا.

]والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير[

القطمير هو قشر النواة الرقيق ، و ما يملك الذين تدعون من دونه مثلها.

[14]]إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم]فكيف يسمعون نجواكم أو سركم ، أو حين تدعونهم في الظلمات ؟ ولو افترضنا أنهم سمعوا دعاءكم لم يستجيبوا لكم ، لانهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، فكيف بجلب الخير لكم ؟!

]و يوم القيامة يكفرون بشرككم[

الملائكة والانبياء كعيسى و الاولياء الصالحون سيكفرون بشرككم ، و سيتبرأون منكم ومن عبادتكم لهم ، كما يكفر الأنداد بكم و بشرككم.

]ولا ينبئك مثل خبير[

الخبير هو الذي خبر الشيء ، و عرف أبعاده ، و من أخبر من الرب وهو الخالق المحيط بكل شيء علما ؟

[15]]إن الإحساس بالغنى الذي يسميه القرآن بالاستغناء ، و الذي يدعو صاحبه إلى البطر و الطغيان ، إنه مرض خطير ، إذ يجعل الإنسان يعيش الوهم ، ولا يعايش الحقائق ، لذلك يذكرنا ربنا بواقع العجز المحيط بنا.

]يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله[

و من أشد فقرا منا ، و قد أركزنا الرب في العجز و الضعف و المسكنة ، لأن كل شيء عندنا منه سبحانه . يقول الإمام الحسين (عليه السلام) في تضرعه المخصوص بيوم عرفة:

"الهي ! أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرا في فقري "[و الله هو الغني الحميد[

الغنى عادة ما يكون مع اللؤم ، و لكن الله غني حميد ، فهو غني و يعطي من غناه للآخرين ، و هو غني لا يبخل على الآخرين ، بل " لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق " (١) و هو حميد يحمد على غناه.

(1)الإسراء / ١٠٠.

[16]و من آيات فقرنا نحن البشر قدرة الله المحيطة بنا حيث يهلكنا إذا شاء و يستبدل بنا غيرنا.

]إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد[

[17]يستطيع ان يذهبكم جميعا ، و يستبدلكم بغيركم ، يخلقهم بيسر ، لأنه لا يمارس في خلقه علاجا ولا يمسه لغوب ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

وفي الحديث عن الامام الصادق - عليه السلام - قال:

"خلق الله المشيئة قبل الأشياء ، ثم خلق الاشياء بالمشيئة " (١)فعندما يشاء شيئا فقد حدث الشيء ، و في الأثر : " أمره بين الكاف و النون. "

]و ما ذلك على الله بعزيز[

لنفترض أن الله سبحانه و تعالى شاءت مشيئته المطلقة - التي لا يحدها شيء - أن ينهي وجود الكون كله . هل يسأله أحد عن ذلك ؟ كلا..

فالله يفيض نور الوجود من ينبوع رحمته الواسعة لحظة بلحظة ، و لو توقف هذا الفيض لحظة واحدة لتوقف كل شيء ، فهل نحن أغنياء أم ربنا الحميد ؟!

ماذا نستلهم من هذه الحقائق ، و كيف ينبغي أن تنعكس على أنفسنا وسلوكنا ؟

(1)التوحيد للصدوق / ص ٣٣٩.

الجواب:

/ 1لأن الله غني حميد فهو يفيض سيبه على الخليقة ، الا اذا عصوه و غيروا ما بأنفسهم بغيا و ظلما ، و هنالك يجازي الظالمين جزاءا وافيا ، ولا يتحمل أحد ثقل الجريمة عن أحد ، فلا ينفع إلقاء المسؤولية على الآخرين في محكمة العدل.

/ 2إن من يعمل الصالحات يجازيه الله فهو إذا يعمل لنفسه.

] [18]ولا تزر وازرة وزر أخرى[

الوزر : الحمل الثقيل ، و الوازرة :النفس البشرية التي حملت ثقلا.

و معنى هذه الآية : إنه لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى . لماذا ؟

لأن تلك النفس لها ثقلها و حملها ، فلا تستطيع أن تتحمل حمل نفس.

]و إن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى]و قد قال الله عن لسان الكافرين : " وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هو بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون " . (١)إنك إن تدع إنسانا ما أن يحمل عنك مسؤوليتك ، فلن يحمل منها شيئا ، لأن كل إنسان يأتي و هو يحمل ما يكفيه من المسؤولية ، و يجب ان يتحدى الضغوط و الاهواء.

(1)العنكبوت / ١٢.

إنك مسؤول عن عمرك و شبابك ، و يقظتك و نومك ، و سعيك و خمولك ، و إيمانك و كفرك ، فعلينا أن نعقد العزم على حمل مسؤولياتنا بقوة حتى يأتينا اليقين.

و لكن كيف نفهم هذه الحقيقة الكبرى .

بما يلي:

نخشى ربنا بالغيب.

]إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب[

لاننا ما دمنا لا نؤمن بالغيب فلن نفهم الحقائق.

- 2نقيم الصلاة.

]و أقاموا الصلاة[

- 3نزكي أنفسنا.

]و من تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير[

فاذا آمنت بالغيب ، و أقمت الصلاة ، و ربيت نفسك ، فأنت وحدك المستفيد.

[22 - 19]في الدنيا نرى الناس بعين واحدة ، من يتزكى ومن لا يتزكى ، و من قام الليل و من نام ، إنك تراهم سواء ، و لكنهم يختلفون عند ربهم.

و القرآن يؤكد لنا هذه الحقيقة في آيات كثيرة من القرآن ، فالذي زوده الله بالبصيرة ، و أصبح يرى الحقائق بهدى الرب ، يختلف عمن هو أعمى ، قد ترك بصيرته لهواه ، و هدى الله لضلالة إبليس.

]وما يستوي الأعمى و البصير[

فالذي انتفع بنور عقله يعيش في ضياء الوحي ، أوليس شرط الرؤية وجود بصر عند الإنسان و وجود نور على الطبيعة ؟ كذلك المؤمن مزود بنور العقل ، و يعيش في عالم النور نور الرسالة الالهية ، بينما الآخر

تلفه ظلمات الجاهلية.

]و لا الظلمات ولا النور[

و الذي يعيش في النور بصيرا تطمئن نفسه ، و يقيه الله من الكوارث و المصائب فهو في ظل الله ينعم بالسلامة ، بينما الآخر يلفحه الحرور و هو الحر الشديد.

]ولا الظل و لا الحرور[

و المؤمن حي لأنه يستفيد من الإنذار فيجتنب المخاطر ، بينما الكافر ميت لا يتفاعل مع محيطه.

]و ما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء]القلب الحي يسمع كلام الله.

]و ما أنت بمسمع من في القبور[

أما القلب الميت الذي تراكمت عليه الآثام ، و اختفى في قبر الذنوب ، فانك لا تستطيع ان تسمعه.

] [23]إن أنت إلا نذير[

لأن هدف الرسالة ليس أكثر من الإنذار ، أما أن تسمع لهذا الإنذار أو لا تسمعفتلك مسؤوليتك.

لا تنتظر أن يجبرك أحد على الإيمان ، بل أنت الذي يجب أن تسعى نحو الهدى.

إنما يخشى الله من عباده العلماء

هدى من الآيات

إرسال الرسل ، و تكذيب الكفار بهم ، و نزول العذاب عليهم بسبب التكذيب ، هي من سنن الله في الخليقة ، فبالرغم من أن هذه السنن قد لا تبدو واضحة وضوح سائر السنن و الأنظمة إلا أنها لا تشذ عن سائر السنن في تكرارها على ذات النسق ، فمن السنن ما تقع يوميا ، ومنها ما تقع كل قرن مرة مثلا ، و منها ما تقع عند حوادث معينة.

فالرســالة من تلك السنن ، إذ يرسل الله رسولا بين فترة و اخرى حسب حاجة البشر.

و مع هذه السنة تتكرر حقيقة تاريخية حتى تكاد تكون سنة وهي : إن الرسالة الجديدة تصطدم بعقبات نفسية واجتماعية من القوم الذين أرسل الرسول اليهم ، فتراهم يرفضونها سريعا.

أما السنة الأخرى فهي أن ينتقم الله لرسالته من أولئك الذين خالفوها ، فيبعث عليهم عذابا يبيدهم عن بكرة أبيهم.

هذه فكرة تدور حولها آيات هذا الدرس ، و أما الفكرة الثانية فهي : أن العلم الحق يدعو الى الإيمان الحق .

بينات من الآيات

[24]ليس غريبا أن يبعث الرسول بالحق ، لأن الله إنما خلق أساس الكون بالحق ، فالسنن والأنظمة الطبيعية حق ، و الحالات المتغيرة التي تخضع لهذه الآنظمة حق أيضا، و شهوات الانسان وعقله حق ، و أرسل الرب رسوله بالحق ليكشف الحق و يهدي إليه ، فهي رسالة تتكيفمع الإنسان والطبيعة ، و تجري على ذات النهج.

]إنا أرسلناك بالحق بشيرا و نذيرا و إن من أمة إلا خلا فيها نذير]هذه سنة ، لأن الله لم يجعل أمة إلا ولها نذير ، يبعثه في أمها.

[25]ومن الحقائق التي تكاد تكون سنة ، تكذيب الأمم لرسلهم.

]وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات]و هي الشواهد والحجج التي لا ريب فيها لشدة وضوحها.

]و بالزبر[

وهي الكتب المنزلة على الرسل المحتوية على مجموعة المعارف الالهية ، الهدى و البينات و المفصلات .

]و بالكتاب المنير[

أي البصائر . و لعل فرقه مع الزبر أنه خصوص البينات المحكمات من الكتب ، بينما الزبر هي المتشابهات والمجملات.

و مع أن الرسل أرسلوا بهذه الرسالات الثلاث ، مع ذلك كذبتهم الأمم.

فإذن يا من تبلغون رسالات الله ! لا تستوحشوا من تكذيب الناس ، إن يكذبهم عادة جرت قبل أن تحملوا رسالتكم ، فلابد أن تعرفوا أن ما سيجري عليكم هو ان يكيذبكم قومكم كما كذب الأولون ، و لكن الله سيظهرها عليهم ، طوعا أو كرها .

] [26]ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير[

و هذه سنة أيضا.

و نكير الله لهم : أي عذاب شديد يستأصلهم به . أفلا يعتبرون بتاريخهم ، و يعرفون شدة إنكار الله لمنهجهم في التكذيب ؟!

[27]من أبرز ما يثير عقل الإنسان و يجعله يغوص في أعماق الحقائق ، الاختلافات التي تبرز في الطبيعة مما يزيدنا وعيا بتدبير الله ، و استوائه على عرش القدرة ، لأن إدارة الأمور المختلفة التي يقوم كل واحد منها بأداء وظيفة معينة ، و التنسيق بينها وبين غيرها من الآمور أكبر شهادة على الخبرة و القدرة.

و يبدو أن السياق هنا يذكرنا بهذا الاختلاف ثم يبين بأن الذين يخشون ربهم هم العلماء.

]ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء[

ماء المطر واحد إلا أن الله ينبت به ثمرات مختلفا ألوانها.

]فإخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها [

اللون هو الجانب الظاهر من الاختلاف ، و لكنه يعكس جوانبا أخرى هي:

الاختلاف في الطعم ، و اللون ، و الفائدة ، و رغبات الناس اليها.

و نترك الحقول و السهول فنصل إلى الجبال ، فيقول الله فيها:

]و من الجبال جدد بيض[

الجدد من الجادة ، و هي الخطة أو الطريقة.

]و حمر مختلف ألوانها و غرابيب سود[

بين الأسود و الأبيض ألوان تتفاوت من جبل إلى آخر ، بل حتى في الجبل الواحد تختلف الألوان أعلاه عن أسفله عن جوانبه .

و هذه الآية ربما تدل على طبقات الأرض التي تتجلى في الجبال.

و غربيب : الشديد السواد ، و منه سمي الغراب لسواده .

] [28]و من الناس و الدواب و الأنعام مختلف ألوانه]كما الجبال و اختلاف ألوانها كذلك بالنسبة إلى الإنسان و الحيوان ، فالإنسان تتفاوت ألوانه بشكل واضح وجلي ، و كذا الحيوان فالماعز مثلا تتفاوت ألوانه من الأسود إلى الأبيض.

]كذلك[

هذا الإختلاف يدل على الدقة و الحكمة ، فربك الذي يخلق الحيوان بشكل مختلف جعل فيه أجهزة تتكيف و اختلافها ، فإنك إذ ترى الهرة ترى كل شيء ينسجم مع تركيبها ، فيخلق في عين الهرة جهازا يكبر و يصغر حسب النور و الظلام ، فترى بؤبؤة عينها تصبح مستديرة صباحا ،الى أن تتحول شيئا فشيئا الى شكل هلال الى شكل خيط يشع نورا في الظلام ، حتى أنك تستطيع أن تعرف الوقت من عين الهرة.

إن الذي خلق بؤبوة الهرة خلق جهازا في رأس النعامة لينظم ضغط الدم فيه ، إذ أنها لو عدمت هذا الجهاز لانفجر دماغها حالما تنكسه الى أسفل إذ يصل الضغط في دماغها آنئذ إلى ثلاثمائة درجة ، و لكن وجود هذا الجهاز يكيف الضغط فيه ، فكلما نكست رأسها كلما خف الضغط بسبب هذا الجهاز الدقيق حتى يبقى الضغط على دماغها بدرجة واحدة سواء كان رأسها أعلى عن الأرض بستة أمتار أو كان فوق التراب مباشرة.

و هكذا فإننا لو تعمقنا في الخليقة لعرفنا وحدة التدبير في اختلاف الصنع ، و لكن من الذي يفهم هذه الحقيقة حتى يعرف ربه فيخشاه ، إنهم العلماء.

]إنما يخشى الله من عباده العلماء [

و الخشية هي ميراث العلم ، جاء في الحديث:

عن أبي عبد الله - عليه السلام: -

"إن من العبادة شدة الخوف من الله - عز وجل - يقول الله - عز وجل : " انما يخشى الله من عباده العلماء " (١)(١) تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٥٩.

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين (ع (قال:

... "و حسبك من العلم أن تخشى الله " (١)[إن الله عزيز غفور[

عزيز بقدرته ، غفور للجاهلين.

[29]و استطرادا للحديث عن العلماء يتحدث الله عمن هو العالم ؟

العالم له صفات أربع هي:

] - 1إن الذين يتلون كتاب الله[

أي يستوحون علمهم من كتاب الله ، أو يمنهجونه حسب كتاب الله.

] - 2و اقاموا الصلاة[

أي يقيمون الصلاة بحدودها و مواقيتها ، بحيث تنهى عن الفحشاء و المنكر.

] - 3و أنفقوا مما رزقناهم سرا و علانية[

سرا لأنه بعيد عن الرياء و الجبت ، و علانية لأنه تحد للطاغوت ، فهم يتحدون بالإنفاق جبت أنفسهم و طاغوت زمانهم.

و لكل شيء إنفاق و زكاة ، فزكاة العلم نشره ، و زكاة الجاه بذله ، و زكاة المال العطاء.

(1)بحار الانوار / ج ٢ / ص ٤٨

] - 4يرجون تجارة لن تبور[

يرجون من الله فكاك رقابهم من النار ، و هل تبور تجارة أحد مع الله العزيز الغفور.

و نستوحي من مجمل الآيات في هذا السياق خصوصا من هذه الآية و التي سبقت في بيان عاقبة المكر وانه يؤول الى البوار " و مكر أولئك هو يبور " نستوحي : أن على الإنسان أن يختار الطريق السليم في بلوغ أهدافه المشروعة حتى ينجح)لأن إلى الله يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه) أما الذين يختارون الطرق الملتوية ، و يريدون بلوغ أهدافهم بالمكر و الحيلة فإن سعيهم يضيع ، و عاقبتهم البوار.

و لعل السياق يعالج وسواسا شيطانيا حيث يدعو البشر أبدا الى اختيار الطريق الأسهل و الأقرب الى الكسب حتى ولو كان على حساب القيم أو حقوق الآخرين ، و يوحي الى الانسان أن العمل الصالح لا ينفع أو أن نفعه قليل ، بينما يؤكد القرآن على أن الله يبارك في العملالصالح و النية الصادقة.

] [30]ليوفيهم أجورهم[

كاملة ، بل:

]و يزيدهم من فضله إنه غفور شكور [

غفور يغفر زلاتهم ، و شكور لما قدموه من عمل يرجون به وجه الله ، عارفين أنه يعوضهم خيرا مما أنفقوا حيث يدخلهم الجنة دار ضيافته.

[31]من صفات المؤمنين التصديق بكل الكتب.

]و الذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه]من الكتب الاخرى.

]إن الله بعباده لخبير بصير[

[32]و لكن هناك أجيال من العلماء يسمون بعلماء الوراثة و ليس علماء التجربة و المعاناة.

]ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا[

من هم هؤلاء الذين اصطفاهم الرب لحمل كتابه ؟ يبدو من السياق أنهم العلماء ، و لذلك جاء في الحديث الشريف:

"العلماء ورثة الانبياء"

فإذا :المصطفون طبقة العلماء من أمة محمد - صلى الله عليه وآله - و الاصطفاء هنا ليس شخصيا حتى يشبه اجتباء الانبياء و الائمة عليهم السلام ، بل بتحميل الرسالة لأمة من الناس لمجمل الخصال التي فيهم و لمكان وجود السابقين بالخيرات بينهم ، و هم أئمة الهدىعليهم السلام.

جاء في الاثر عن الإمام الصادق - عليه السلام: -

"الظالم لنفسه منا من لا يعرف حق الإمام ، و المقتصد منا من يعرف حق الامام ، و السابق بالخيرات هو الإمام ، و هؤلاء كلهم مغفور لهم " (١)(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٦٥

و نعرف من ذلك أن الظالم هنا مغفور له لأن ظلم نفسه لا يبلغ درجة دعوة الناس الى الضلال ، بل فيه ما في الناس من زلات يطهرها بحسناته ، و هو ظالم لنفسه إذا قيس بالمقتصد ، و السابق بالخيرات هو من عرف واجبه باعتباره وارث علم الكتاب ، و قد روي عن الامام الباقر عليه السلام أنه قال - بعد أن سئل عن الآية و عن معنى الظالم لنفسه فيها: -

من استوت حسناته و سيئاته منا - أهل البيت - فهو الظالم لنفسه ، فقلت : المقتصد منكم ؟ قال : العابد لله في الحالين حتى يأتيه اليقين فقلت : فمن السابق منكم بالخيرات ؟ قال : من دعا - و الله - الى سبيل ربه ، و أمر بالمعروف ، و نهى عن المنكر ، و لم يكن للمضلين عضدا ، و لا للخائنين خصيما ، و لم يرض بحكم الفاسقين ، الا من خاف على نفسه ودينه و لم يجد أعوانا " (١)و نستوحي من هذا النص : أن لذرية رسول الله (ص (المصطفين للقيادة مسؤوليات أكبر ، فالظالم نفسه منهم هو الذي تستوي حسناته وسيئاته ، و لا يدعو الى ضلال كما جاء في حديث آخر:

"الظالم لنفسه الذي لا يدعو الناس الى ضلال ولا هدى "و لعل في كلمة " لنفسه " شهادة على ظلم لا يتجاوز نفسه الى الآخرين.

أما الشاهد على أن الآية تعني مثل هؤلاء فهو الآية التالية التي تدل على أن جميع هؤلاء في الجنة .. هكذا استدل الإمام الرضا - عليه السلام - للمأمون العباسي حينما سأله عن الآية . لنستمع الى تحاورهما:

حضر الرضا (ع) مجلس المأمون بمرو - و قد اجتمع في مجلسه جماعة من علماء أهل(١) المصدر / ص ٣٩٤.

العراق و خراسان - فقال المامون : اخبروني عن معنى هذه الآية : " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا " فقالت العلماء : أراد الله بذلك الأمة كلها ، فقال المأمون : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال الرضا (ع (:

"لا أقول كما قالوا ، ولكني أقول : أراد الله عز وجل بذلك العترة الطاهرة ، فقال المأمون : و كيف عنى العترة من دون الأمة ؟ فقال الرضا (ع) : إنه لو أراد الأمة لكانت بأجمعها في الجنة ، لقول الله عز وجل : " فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهمسابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير " ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال : " جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب " الآية ، فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم " (١)[فمنهم ظالم لنفسه[

تساوت حسناته و سيئاته ، و في حديث مأثور عن أبي الدرداء عن رسول الله - صلى الله عليه و آله - في هذه الآية في مصير الظالم لنفسه قال:

"أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب ، و أما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، و أما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ثم يدخل الجنة ، فهم الذين " قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن " (٢)[و منهم مقتصد[

و هو الذي يصوم نهاره ، و يقوم ليله - كما جاء في الحديث السابق. -

]و منهم سابق بالخيرات بإذن الله [

(1)المصدر / ص ٣٦٥.

(2)المصدر / ص ٣٦٥.

وهو الإمام.

]ذلك هو الفضل الكبير[

السبق بالخيرات.

و هذا التفسير للآية يتناسب و السياق ، و تؤيده أحاديث كثيرة عن النبي و أصحابه ، حتى قال الشوكاني بعد ذكرها : و هذه الأحاديث يقوي بعضها بعضا ، و يجب المصير إليها ، و يدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر ، و يؤيدها ما أخرجه الطبراني وابن مردويهو البيهقي في البعث عن إسامة بن زيد "فمنهم ظالم لنفسه ... الآية " قال : قال رسول الله - صلى الله عليه و آله و سلم: -

"كلهم في هذه الأمة ، و كلهم في الجنة " (١)و هناك تفسيران آخران:

أولهما : أن المراد بالظالم هو الكافر.

الثاني : أن المراد مجموع الآمة.

و هذا مخالف لاجتماعهم في الجنة مع أن بعضهم من أهل الكبائر و من وعد الله لهم بالنار.

(1)تفسير فتح القدر المجلد / ج ٤ / ص . 352

فريق في الجنة و فريق في السعير

هدى من الآيات

بين البشر و بين التحسس بالآخرة حجاب الغرور ، إذ يمنع هذا الحجاب من أن يضحى الإيمان بالآخرة جزءا من معادلة البشر النفسية.

و الانسان يشعر في قرارة نفسه بضرورة التخلص من العذاب ، و إيجاد حالة من الأمن و السلام المستقبلي لنفسه.

و لكن قد يرفع هذا الخطر بالعمل و السعي الجاد ، و قد يرفع هذا الخطر بالتمني و الاحلام فيصنع لنفسه تعويضا نفسيا عن الواقع ، و لكن يزيل القرآن هذه التمنيات ، و يعطينا صورة حقيقية عن ذلك اليوم الرهيب حين نقف أمام ربنا الجبار ، ويصور مشاهد الآخرة حتى لكأننا نراها ، ثم يضع الانسان أمام وجدانه.

و في هذه الآيات تذكرة لعمر الانسان في الحياة بأنه كان كافيا لامتحانه.

بينات من الآيات

[33]ما هو جزاء المصطفين من عباد الله الذين أورثوا الكتاب ؟

]جـنات عـدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير]يحلون : اي يتحلون بها ، فلقد حرم الله عليهم الذهب و الحرير في الدنيا ، و عوضهم في الآخرة.

و قد جاء في الحديث عن الامام الباقر (ع) عن رسول الله (ص. (

إذا دخل المؤمن في منازله في الجنة ، و ضع على رأسه تاج الملك و الكرامة ، و ألبس حلل الذهب و الفضة ، و الياقوت والدر منظوما في الإكليل تحت التاج ، و ألبس سبعين حلة حرير بألوان مختلفة منسوجة بالذهب و الفضة و اللؤلؤ و الياقوت الأحمر ، و ذلك قوله : " يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير " (١)[٣٤] و بالاضافة الى هذه النعم المادية هناك نعم معنوية اخرى هي نعمة الأحساس بالرضى الذي يعبرون عنه بالحمد لله.

]و قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن[

ما هو الحزن ؟

الحزن يتعدد بتعدد الظروف ، فمن الحزن القلق والهم ، كقوله تعالى لام(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٦٦.

موسى)ع) : " ولا تخافي ولا تحزني " ، و من الحزن الخوف من الفزع الاكبر ، كقوله تعالى : " لا يحزنهم الفزع الاكبر " ، و من الحزن القلق من الهزيمة ، كقوله تعالى : " ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون " .. والله يذهب كل ذلك عنهم ، لأنهم قد حزنوا على ذنوبهم في الدنيا ، و قد ورد في الحديـث " : إن المـؤمن في الدنيا حزين " أي قلق من ذنبه.

]إن ربنا لغفور شكور[

فالغفران يكون عند الذنب ، و الشكر يكون للنعمة ، فربنا سبحانه يغفر لهم ما أذنبوا ، و يشكر لهم ما عملوا.

] [35]الذي أحلنا دار المقامة من فضله[

أي الدار التي يستقر فيها الانسان ، و ربما تفيد هذه الآية معنى الخلود ، لأن الدنيا ليست دار مقامة بل هي دار انتقال.

]لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب[

جاء في تفسير علي بن إبراهيم : إن النصب هو العناء ، و اللغوب هو الكسل والضجر.

وفي نهج البلاغة:

... "و أكرم أسماعهم من أن تسمع حسيس نار ابدا ، و صان أجسادهم أن تلقى لغوبا ونصبا " (١)(١) نهج / ط ١٨٣ / ص ٢٦٨.

وقد شوقتنا النصوص الى دار ضيافة ربنا ببيان جانب من نعمها، فقد جاء في حديث مفصل عن رسول الله (ص: (

"فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمتها تمشي مقبلة و حولها و صفاؤها يحجبنها ، عليها سبعون حلة منسوجة بالياقوت و اللؤلؤ و الزبرجد صبغن بمسك و عنبر ، و على رأسها تاج الكرامة ، و في رجلها نعلان من ذهب مكللان بالياقوت و اللؤلؤ شراكهما ياقوت احمر ، فإذا دنت من ولي الله ، و هم (ان) يقوم لها شوقا تقول له : يا ولي الله ليس هذا يوم تعب و لا نصب ولا تقم ، انا لك وانت لي " (١)هكذا يسقط التعب و النصب من الانسان المؤمن حتى بمقدار القيام لاستقبال زوجته من الحور العين.

[36]هذا عن الذين آمنوا فما هو جزاء الذين كفروا ؟

]و الذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا]جاء في النصوص انه في يوم القيامة يذبح الموت بين الجنة و النار في صورة شاة ، فلا أهل الجنة يموتون ، ولا اهل النار ، بل كلهم مخلدون ، و أعظم بعقاب يبقى ابدا . إن قليله كثير ، و ضعيفه شديد ، فكيف بعذاب النار المتناهي شدة وسعيرا ؟!

و قد جرت سنة الله في عالمنا اليوم أن الجسم يتكيف مع الصعوبات ، و أن لكل شيء أجل وحد ، وكلما اقترب من نهايته خف ، بيد أن عذاب الله لا أجل له ، فلا يخفف ابدا ، ولا يتكيف الجسم معه ، بل يبقى يتألم معه ابدا (نعوذ بالله العظيم منه. (

(1)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٦٧.

]ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور[

و هنا يذكر السياق صفتين لجهنم ، و يقابلهما بمثلهما للجنة:

الاولى : الخلود " لا يقضى عليهم فيموتوا " والثانية : الشدة " لا يخفف عنهم "و قد ذكر صفتان مقابلتان للجنة : الراحة و الخلود.

[37]ولأن العذاب شديد و مستمر فإنهم لا ينفكون يحاولون التخلص منه للنجاة ، فتراهم يرفعون اصواتهم يطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحا.

]و هم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل]كل إنسان في الدنيا يدعي انه يعمل صالحا ، و لكن حينما يواجه العذاب الشديد هناك يعرف بل و يعترف بأن أعماله كانت غير صالحة.

إن هؤلاء يصطرخون ، و الاصطراخ أعظم الصراخ : أن اخرجنا ربنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، فيجيبهم الله:

]أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر[

أي عمرناكم في الدنيا بقدر يكفي للتذكر ، فلم تتذكروا ، و جاءكم النذير فلم تتذكروا.

قد اختلفت أقوال المفسرين في النذير : هل هو الرسول و القرآن أم هو الشيب و موت الأقارب و تقادم

السن أم هو كمال العقل و البلوغ.

و يبدو ان الكلمة مطلقة ، و توحي بان الانسان ينذر بالتالي بطريقة أو باخرى ،وان الله لا يتوفاه حتى يكتمل امتحانه.

]فذوقوا فما للظالمين من نصير[

لماذا الإختلاف في الاجال ؟ فبعض يعيش عشرين عاما ، و بعضهم اربعين ، و بعضهم ستين ..؟

الشاعر إقبال اللاهوري أجاب على ذلك و قال : إن اختلاف آجال الناس مرتبط بحكمة و جودهم في الدنيا ، و هو تهيئة الإنسان للجنة ، و كأن الدنيا مدرسة ، يدخلها الناس تمهيدا لدخول الجنة.

فبعض الناس ينجحون من أول امتحان ، و بعضهم لا ينجحون في الإمتحان الأول فيدخلون الامتحان الثاني ، و هكذا فان اختلاف الناس في آجالهم هو بسبب مدى استعدادهم ، و تقبلهم ونجاحهم وهذه النظرية جميلة الا انها لا توافق القرآن الكريم ، لان الدنيا كما هي مدرسةتهيؤ المؤمنين لدخول الجنة ، فهي في نفس الوقت مهوى يسقط الكفار منه الى النار.

و في بصائر القرآن الدنيا دار ابتلاء فهي فقط قاعدة امتحان و ليست مدرسة.

و لعل الآية هذه تشير الى أن اختلاف الآجال يرتبط بهذه الكلمة (الابتلاء (فالدنيا فرصة للتذكرة ، و كل شخص يعمر بقدر التذكر (حسب ظروفه ، و بنية شخصيته) فإذا انتهت الفرصة فإن الحكمة الرئيسية من بقائه تنتهي ، بلى . هناك حكم اخرى : كاستدراج الكفار ليزدادوا كفرا ، و إطالة عمر المؤمنين ليزدادوا ثوابا ، و كأن يكون وجود شخص مفيدا لابتلاء الآخرين ، و الله العالم.

واختلفت الروايات في تحديد العمر في قوله : " أولم نعمركم "فقالت بعضالروايات : إنها لذوي الثمانية عشر سنة ، و في رواية اخرى : إنها لذوي الاربعين سنة ، وفي رواية ثالثة : انها لذوي الستين.

و لعل ما قلناه آنفا في اختلاف الناس في التذكر يجمع بين النصوص.

] [38]إن الله عالم غيب السموات و الارض إنه عليم بذات الصدور]إن الله عالم غيبك ، و يعلم سرك و ما يكن صدرك ، كما هو عالم بغيب السموات و الأرض ، فهو ليس بحاجة الى امتحانك ، و لكن إنما هي فرصة يعطيها الله لكي تجرب نفسك ، و تمتحن إرادتك.

] [39]هو الذي جعلكم خلائف في الأرض[

أي جعل بعضكم يخلف بعضا ، و لعل هذه الآية تدل على ان الأمم تنتهي ، و أن لها آجالا كما للناس آجال محددة.

و أما مقياس آجال الأمم و المجتمعات فهو كما قال ربنا سبحانه:

]فمن كفر فعليه كفره[

نتيجة الكفر على صاحبها.

]ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا[

يبغضهم الله و يمقتهم.

]ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا[

خسارة في الدنيا و الآخرة.

[40]يظل الشرك بالله الحجاب الكبير الذي يفصلنا عن ربنا ، و يمنع عنا خيرات عبادة الله وحده ، و يذكر السياق بأن الشركاء لا يملكون حق العبادة لأنهم لم يخلقوا شيئا من الأرض ، ولا ساهموا في تدبير السموات ، ولا اذن لهم رب الأرض و السماء بقيادة الناس..
فبأي حق يتسلطون على رقاب الناس ، و لماذا يخضع لهم الناس ؟!

]قل أرءيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض]حتى يتسلطوا باسمه على الناس.

]أم لهم شرك في السموات[

لانجد قدرتهم تتجلى في السماء ، كأن يديروا الشمس و القمر.

]أم ءاتيناهم كتابا فهم على بينت منه[

أمرناكم بأن تتبعوهم بأن انزلنا عليكم كتابا يامركم بأن تتبعوهم.

]بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا[

فإن مشكلة الإنسان التي تمنعه من الوصول الى الحقيقة هي حجاب الغرور و التمنيات ، و على الإنسان أن يخرقه حتى يتقرب الى ربه.

وربما توحي خاتمة الآية بأن الظالمين - الشركاء و التابعين - كل واحد منهم يضل الآخر ، فالمضل يعد متبعيه بأنه سوف يحمل خطاياهم ، و ما هو بحامل من خطاياهم من شيء ، و المضللون يعدون مضليهم بالولاء و الانتصار لهم ، فكل واحدمنهم يمني الآخر ، و ما هذه الأمنيات سوى الغرور بذاته ، لأنه لا أحد ينفع أحدا يوم القيامة ، و يتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا.

[41]يحيط بأولئك الشركاء و المشركون بهم الغرور ، إذ لم يخلقوا شيئا من الأرض ، و لم يكن لهم شرك في تدبير السموات ، بينما الله الواحد استوى على عرش العلم و الملك ، و هو يمسك السموات و الارض لكي لا تزولا ، ولا شيء قادر على المحافظة عليها لو تركها الرب.

]ان الله يمسك السموات و الارض ان تزولا[

و السؤال : ما هو معنى الزوال ؟

- 1لا ريب أن النظام الذي يحافظ على الوجود بحاجة الى منظم ، و التدبير بحاجة الى مدبر ، و الله هو المدبر الذي لو تركها فسد النظام ، و زالت السموات و الأرض بفساده.

- 2وإذا تعمقنا قليلا و عرفنا شيئا من الفيزياء الحديثة ، و كيف أن نظام دوران الإلكترون حول محور البروتون - في مملكة الذرة العظيمة و المتناهية في صغر الحجم - قائم على الحركة ، حتى قالوا : إن الحركة لو توقفت لتلاشى الوجود ، عرفنا أن (قيام) كل شيء إنما هو بالله عبر أنوار قدسه التي يفيض بها كل خير على الخلائق.

]و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده[

و لكن لماذا لا يسمح الله للسموات و الأرض بالزوال مع كثرة المعاصي التي يرتكبها العباد ؟

]إنه كان حليما[

لا يبادر بإنزال العقوبة على العصاة ، بل يؤخرهم لأجل مسمى ، و في آخر آية من هذه السورة تبيان لذلك.

]غفورا[

يعفو عن كثير من السيئات فلا يعاقب عليها ابدا.

ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله

هدى من الآيات

بالرغم من أن كفار قريش و مثلهم سائر الكفار كانوا بفطرتهم يعرفون مدى حاجتهم الى الوحي ، و يمنون أنفسهم بأن يكونوا أهدى من إحدى الأمم لو بعث فيهم نبي مرسل ، إلا أنهم حين من الله عليهم بنعمة الرسول كفروا به . لماذا ؟

لأنهم استكبروا في الأرض ، و مكروا مكرا سيئا.

و بعد أن ينذرهم الرب بأن المكر السيء لا يحيط بالتالي إلا بصاحبه ، يذكرهم بمصير الغابرين الذين جرت سنة الله فيهم بالدمار ، و لا تبديل في سنن الله ولا تحويل ، و يدعوهم للسير في الارض لينظروا كيف فعل الله بالظالمين ، و أين انتهى بهم استكبارهم و مكرهمالسيء مع انهم كانوا اشد منهم قوة ، و ينبههم القرآن بأنهم لا يستطيعون الفرار من حكومة الله ، و أنه لا يعجزه شيء بل هو العليم القدير.

و يختم سورة فاطر بأن الله يمهل الظالمين الى أجل مسمى ثم يأخذهم ، ولولا ذلك لما ترك على ظهر الارض من دابة بما فعل الظالمون!

بينات من الآيات

[42]ضمير البشر أكبر شاهد على الحق و صدق رسالات الله التي نزلت بالحق ، و كل إنسان يتمنى أن يكون صالحا لولا أن دواعي الفساد تضله.

]و أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم]لعل تأكيد القسم بـ " جهد أيمانهم " كان تعبيرا عن مدى رسوخ فطرة الإيمان في النفوس ، أو أنه يعبر عن مدى النفاق الذي كانوا يعيشونه ، و إنما أقسموا لتغطية ما أضمروه من المكر و الاستكبار ، كما قال ربنا سبحانه عن المنافقين : " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون " (١)و هذه السنة جارية عند الناس اليوم أيضا ، فتراهم يقولون : إننا لا نمتلك قيادة و إمام حق نتبعه ، و عندما يرسل الله اليهم الإمام الحق إذا هم يتملصون من المسؤولية ، و لا يتبعونه ، كما الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ، إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكانقاتل في سبيل الله فلما بعث الله اليهم طالوت ملكا ، قالوا :أنى يكون له الملك علينا و نحن أحق بالملك منه ، و لم يؤت سعة من المال.

و التعبير القرآني : " أهدى من إحدى الأمم " ربما يعني : سنكون أهدى من تلك الأمة التي تعتبر أهدى أمة ، و لم يقولوا : سنكون أهدى من سائر الامم ، مبالغة(١) النور / ٥٣.

في تزكية أنفسهم.

و ربما يكون قولهم هذا ردا على اليهود الذين كانوا يعيرون المشركين ، و يهددونهم بنبي لهم يكسر أصنامهم ، فعرضوا بهم و قالوا : لو جاءنا رسول سنكون أهدى منكم.

]فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا[

أي كانوا نافرين من قبل ، فازدادوا نفورا على نفورهم . لماذا ؟ لأن الانسان قبل أن تأتيه الحجة يكون عنده عذر لكفره ، لأن الله قال : " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " (١) و عندما تأتيه الحجة تراه يكفر بالحجة.

[43]و مشكلة هؤلاء أنهم استكبروا ، تكريسا لانانياتهم ، و قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟! ماله يأكل الطعام ، و يمشي في الأسواق ؟! إنه ليس رجلا من القريتين عظيما في ماله ، و إنه لو نؤمن به نتخطف من أرضنا ، فاستكبروا في الأرض ، بحثا عن سلطة طاغية ، وثروة عريضة ، و شهرة واسعة.

ولقد قلنا مرارا : ان التكبر و مظهره الإستكبار أخطر حاجب بين البشر و بين الإيمان بالحقائق.

]استكبارا في الأرض و مكر السيء[

قال الرازي عن المكر السيء : إنه إضافة الجنس الى نوعه ، كما يقال علم الفقه و حرفة الحدادة ، و تحقيقه أن يقال : معناه و مكروا مكرا سيئا ثم عرف لظهور مكرهم ثم ترك التعريف باللام و أضيف الى السيء لكون السوء فيه أبين الامور (1)(2) .الاسراء / ١٥.

020التفسير الكبير عند تفسير الآية.

]ولا يحيق المكر السيء الا بأهله [

الخطط الفاسدة سوف تكون لها انعكاسات على الواقع الإجتماعي ، بيد أن أثرها الأبلغ سيكون على صانعها.

و الكلمة هذه ذروة ما نفهمه من البلاغة ، إذ ذكرنا الرب بأن المكر السيء " يحيط " بصاحبه من جميع جوانبه ، و هذا أبلغ من القول أنه يلحق به أو يصيبه ، لأن صاحب المكر يزعم أنه قادر على الفرار من عاقبة عمله ، و لكنه يحيق به فلا يقدر هروبا ، ثم أن القرآن عبر " بأهله " و لعل السبب يكمن في أن كل العاملين مكرا ليسوا بأهله ، بل بعضهم ممن تعمده و اتخذه سبيلا ، ثم إن الحصر يفيد أن الذي يمكر بهم ينجون عادة من المكر على حساب أهله ، و قد قالوا : " من حفر بئرا لأخيه و قع فيه. "

و كيف يمكن أن نكتشف هذه الحقيقة ؟

يقول ربنا : انظروا إلى التأريخ ، فالتأريخ يحكي سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول ، و يتساءل : هل هم ينتظرون عاقبة مثل عاقبتهم ؟!

]فهل ينظرون إلا سنت الأولين[

كيف انهم اهلكوا بما كسبوا ، و كيف حاق مكرهم بهم.

]فلن تجد لسنت الله تبديلا[

على مر العصور ، السنة هي السنة في الغابر و الحاضر ، لن تتبدل ، و لن تتحول ، بأن يستطيع احد أن يدفعها عن نفسه إلى غيره.

]و لن تجد لسنت الله تحويلا[

[44]و الدليل على عدم تبديل سنة الله أو تحويلها تجارب التأريخ.

]أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوة]كقوم عاد الذين قال الله في حقهم : " و لقد مكناهم فيما أن مكناكم فيه " (١)[و ما كان الله ليعجزه من شـــيء في السموات و لا في الأرض إنه كان عليما قديرا]لا يحد قدرته المطلقة شيء ، إنه كان عليما بمن يعصي ، قادرا على أخذه أخذ عزيز مقتدر.

و لكن لماذا لا يؤاخذ الله أهل الأرض بألوان العذاب و هم يعصونه ليل نهار ؟

الجواب:

اولا : لأن الله عفو غفور ، فيعفو عن كثير من الذنوب.

ثانيا : لأنه حليم يعطيهم فرصة بعد فرصة حتى إذا انقضى أجلهم أخذهم بظلمهم.

] [45]و لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى]يؤخر انتقامه إلى أجل مكتوب ، لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

]فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا[

بصير بما يناسبهم من الجزاء : كيف وكم و متى.

سورة يس

فضل السورة

- 1في كتاب ثواب الاعمال باسناده الى ابي عبد الله (ع) قال:

"إن لكل شيء قلبا ، و إن قلب القرآن يس ، و من قرأها قبل أن ينام أو في نهاره قبل أن يمسي كان في نهاره من المحفوظين و المرزوقين حتى يمسي ، و من قرأها في ليله قبل أن ينام و كل الله به ألف ملك يحفظونه من شر كل شيطان رجيم و من كل آفة ، و إن مات فييومه أدخله الله الجنة ، و حضر غسله ثلاثون ألف ملك كلهم يستغفرون له و يشيعونه إلى قبره بالإستغفار ، فإذا دخل في لحده كانوا في جوف قبره يعبدون الله و ثواب عبادتهم له ، و فسح له في قبره مد بصره ، و أومن من ضغطة القبر ، و لم يزل في قبره نور ساطع الى عنانالسماء إلى أن يخرجه الله من قبره ، فإذا أخرجه لم يزل ملائكة الله يشيعونه و يحدثونه و يضحكون في وجههو يبشرونه بكل خير حتى يجوزونه على الصراط و الميزان و يوقفونه من الله موقفا لا يكون عند الله خلق أقرب منه إلا ملائكة الله المقربون و أنبياؤه المرسلون ، و هو مع النبيين واقف بين يدي الله ، لا يحزن مع من يحزن ولا يهتم مع من يهتم ولا يجزع مع من يجزع ، ثميقول له الرب تبارك و تعالى : إشفع عبدي أشفعك في جميع ما تشفع ، و سلني أعطك عبدي جميع ما تسأل ، فيسئل فيعطى ، و يشفع فيشفع ولا يحاسب ولا يوقف مع من يوقف ، ولا يزل مع من يزل ، ولا يكتب بخطيئة ولا بشيء من سوء عمله ، و يعطى كتابه منشورا حتى يهبط من عند الله ، فيقول الناس بأجمعهم : سبحان الله ما كان لهذا العبد من خطيئة واحدة ! ويكون من رفقاء محمد (ص) " (١)عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص: (

"من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ ، و كان له بعدد من فيها حسنات " (٢)(١) تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٧٧.

(2)المصدر.

الإطار العام

الإسم:

اتخذ إسم السورة من الكلمة الأولى فيها التي قالوا إنها إسم لنبينا الأكرم محمد (ص) ، و لعلها ترمز اليه كما ترمز اليه كلمة (طه) و الله العالم.

الإطار العام

بعد القسم بالشأن العظيم الذي هو للقرآن الحكيم ، يخاطب ربنا سيد الخلائق (يس (محمد (ص) بأنه من المرسلين ، و أنه على صراط مستقيم ، و أن الكتاب تنزيل من رب غفور رحيم ، و يهدف إنذار قوم جاهلين بما أنذر آباؤهم من قبل ، ثم اضحت قلوب أكثرهم كالصخر لا تقبل الإيمان . أرأيت الذي وضعت على عنقه الأغلال ، حتى أصبح مقمحا ، مرفوع الرأس الى الأعلى حتى لا يرى شيئا ؟ هل يقدر على النظر ؟! أم الذي وضع سد منيع أمامه و خلفه ، و حجبت بصره غشاوة فهل يبصر ؟! كلا .. كذلك لا ينتفع هؤلاء بالإنذار ، فسواء أنذرتهم أم لمتنذرهم لا

يؤمنون.

فلمن القرآن إذا ؟

إنما هو ينذر من يتبع الذكر ، و يهتدي و يطيع آيات القرآن ، و يخشى الرحمن بالغيب ، و هذا يتجنب المهالك التي تنذر بها ، و يبشره الله بمغفرة لذنوبه السابقة و هفواته ، و بأجر فيه الرزق و الكرامة ، و ياتي كمال الجزاء في الآخرة ، حيث يحي الله الموتى ، و قد كتب من قبل ما قدموه لحياتهم هناك و ما خلفوه وراءهم من آثار ، و كل شيء قد أحصي في إمام مبين.

)و هذه الرسالة جاءت على سنة رسالات الله السابقة) و يضرب القرآن مثلا من أصحاب القرية حين جاءها المرسلون ، ثم يمضي في بيان شبهاتهم الواهية ، و يردها أولا : على لسان الأنبياء ، و ثانيا : على لسان واحد ممن هداهم الله للإيمان ، وأدخله جنته فقال : ياليت قومي يعلمون ، و أهلك الله قومه من بعده بصيحة ، و تحسر على العباد الذين لا يبعث إليهم رسول إلا كانوا به يستهزؤون ، دون أن يعتبروا بمصير السابقين الذين سوف يحضرهم الله وإياهم لديه.

و يذكرنا القرآن بآيات الله لعلنا نهتدي إليه و نتبع رسله : فمن الأرض الميتة التي يحيها (بالغيث) و يخرج منها حبا فمنه يأكلون ، إلى الجنات ذات الثمرات المختلفة ، الى الليل و النهار و الشمس التي تجري لمستقر لها ، الى القمر الذي يجري في منازله حتى يعود كالعرجون القديم ، الى التدبير اللطيف للشمس و القمر ، الى وسائل النقل من سفن و أنعام البر.

و يذكرنا بأنه يحفظهم من غضب الأمواج برحمته و حتى يقضوا آجالهم ، و ترى أن الرب الرحيم يريد لهم الخيرات أيضا حين يأمرهم بالتقوى (ليحفظهم من عواقبالذنب) و لكنهم يعرضون بالرغم من تواتر الآيات ، و تراهم يبررون بخلهم بأنه كيف ننفق على من لو شاء الله أطعمه (مما عكس فكرهم و قيمهم المادية) و يتساءلون بأستهزاء : متى هذا الوعد بالجزاء (لماذا يتأخر (ان كنتم صادقين ؟! (بلى . إنه آت و ماذا ينتظرون وماذا يستعجلون (ماينتظرون إلا صيحة واحدة تاخذهم و هم سادرون في بحر الجدل العقيم ، و هنالك لا يسمح لهم الوقت بالتوصية ، ولا هم يعودون الى اهلهم مرة ثانية) و يبقون في عالم البرزخ حتى يوم النشور) فإذا نفخ في الصور فإذا هم يخرجون من القبور ، و يتوجهونالى ربهم (و بدل التساؤل المشوب بالسخرية تراهم) يقولون : يا ويلتنا من بعثنا من مرقدنا ؟ (إنه الله المقتدر فيعترفون و يقولون :) هذا ما وعد الرحمن (من النشور) و صدق المرسلون) حين أنذروا بذلك اليوم الرهيب) و هنالك الحكم العدل الذي يشمل كل الحاضرين (و يصور السياق بعض مشاهد الجزاء) فأصحاب الجنة في شغل فاكهون ، بينما يمتاز المجرمون الى النار ، و يحاكم الرب عبيده قائلا : ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ؟! هو عدوكم ، و صراطه منحرف عن الصراط الإلهي المستقيم ، و إنه قد أضل كثيرا منهموأوردهم النار ، أفلا اعتبرتم بمصيرهم ؟! و اليوم أدخلوا جهنم تلك التي وعدتم إياها ، (و بعد أن يصور لنا جانبا من عذاب جهنم يقول :) ولو كنا نريد لجزيناهم في الدنيا ، فطمسنا على أعينهم و مسخناهم (و فعلا يفعل الله ببعضهم فلا يقدرون منعه (فمن يطول عمرهينكسه في الخلق . أفلا تعقلون (إنه قادر على أن يصيبهم بمثل ذلك. (

و يعطف القرآن الحديث عن الآخرة - بعد أن خشعت النفوس الطيبة بتصوير مشاهد منها - يعطفه الى رد

شبهاتهم حول الرسول فيقول : وما علمناه الشعر (ولا يتناسب حديثه و الشعر ابدا) إن هو إلا ذكر و قرآن مبين ، و يهدف إنذار من يملك قلبا حيا ، أما بالنسبة إلى غيرهم فلكي يتم الحجة عليهم (و يذكرنا السياق بالتوحيدالذي هو أساس كل عقيدة صالحة ، فمن آمن بالله حقا لم يطع الشركاء الموهومين ، بل أطاع الرسول الذي أمر الله بطاعته فقط) أو لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما (ثم خولناهم التصرف فيها ، و جعلناها ذلولا يسخرونها) فهم لها مالكون ؟! (و بعد ذكرنعم الله يوجههم إلى الشكر الذي من أبرز معانيه الإيمان بالله و طاعة رسوله و لكنهم اشركوا) و اتخذوا من دون الله آلهة (و هم يريدون جبر نقصهم بها) لعلهم ينصرون (والواقع أن العكس هو الصحيح) والآلهة لا يستطيعون نصرهم بل إن المشركين لهم جند محضرون.

)و يخاطب السياق الرسول ليثبت فؤاده و لينذر الكفار) و يقول : لا يحزنك ما يقولون لك . إن الله يعلم سرهم و علنهم.

)و يعود السياق الى الإيمان بالآخرة ، و كيف يكفر بها هذا الإنسان الذي أسبغ الرب عليه النعم ، و يخاصم فيها بكل صلافة) أفلا يرى الإنسان أنه مخلوق من نطفة (مهينة) فإذا به يصبح خصيما لله ؟! (يتقلب في نعم الله ويجادل في آياته !) و يضرب مثلا (فيأخذعظما يفتته و يقول :) من يحيي العظام و هي رميم ؟! قل : يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم) فيعلم أين ذهبت ذرات جسد هذا الشخص أو ذاك) و هو الذي جعل من الشجر الاخضر نارا لكم توقدون عليها (مع أن النار باطنة فيها) و هو الذي خلق السموات و الأرض فهل يعجزه إرجاع البشر ؟! كلا ..) و إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء (و تعالى عما يصفه الجاهلون بالنقص و العجز ، كلا .. هو العلي المقتدر على بعث الإنسان (و إليه ترجعون.

و كلمة أخيرة:

لقد ذكرت النصوص : أن) يس) قلب القرآن ، وهي - بحق - غرة السورالمكية التي جاءت فيها حقائق الرسالة بصورة مركزة ، مما يجعلها ركيزة الحياة للإنسان المسلم ، لأنها حوت خلاصة دروس الحياة ، و حكمة المرسلين ، و متطلبات الحضارة.

إنك لمن المرسلين

هدى من الآيات

يقسم السياق - في البدء - بما يستدل به على صدق رسالة النبي (ص) وأنه من لدن رب عزيز رحيم ، يقسم بالقرآن الحكيم الذي هو الدليل الأظهر على رسالات الله ، ثم بعدئذ يبين ملامح المجتمع الجاهلي الذي جاء الكتاب لإصلاحه . إنه الاعرق في الكفر حيث أن أكثرهم محكوما عليهم بعدم الإيمان (لعنادهم) و قد جعلت الأغلال في أعناقهم فهي الى الأذقان ، و جعلوا بين السدين من أمامهم و من خلفهم ، و حجبت أعينهم بالغشاوة ، فهم لا يؤمنون بك سواءا أنذرتهم أم لم تنذرهم . أوليس شرط الإستجابة حالة الخشوع في القلب ؟ و لكن دعهم فسوف يحيي الله الموتى ، و قد سجلت عليهم أعمالهم ، و كل شيء أحصاه ربنا في إمام مبين.

)و لعل ذكر هذه الحقيقة يهدف بيان دور البشر في الهداية ، و انها ليست كرها عليه ، بل الله يضل أقواما عاندوا وجحدوا أو غفلوا عن الذكر. (

بينات من الآيات

باسم الله ، بذلك النور القدسي ، الذي خلقه الله خلقا ، ثم خلق الأشياء به ، برحمته التي وسعت كل شيء ، و برحمته التي لم تزل ولا تزال نزدلف الى سورة يس المباركة.

[1]إن القرآن معجزة البلاغة ، فهذا الكتاب الحكيم تركيب من هذه الأحرف التي لعلها تشير اليه ، و هي في ذات الوقت رموز بين الله وأوليائه المقربين.

]يس[

و قد ذكرت النصوص أنها إسم من أسماء النبي (ص) فقد روي عن الإمام أبو الحسن الرضا (ع) في حوار بينه و بين الخليفة العباسي المأمون انه قال:

"أخبروني عن قول الله تعالى : " يس و القرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم " فمن عـنى بقوله (يس) ؟ قالت العلماء : يس محمد (ص) لم يشك فيه أحد.

قال أبو الحسن : فإن الله تعالى أعطى محمدا وآل محمد من ذلك فضلا لا يبلغ احد كنه و صفه إلا من عقله ، و ذلك أن الله عز وجل لم يسلم على أحد إلا على الأنبياء (صلوات الله عليهم) فقال تبارك و تعالى : سلام على نوح في العالمين " و قال : " سلام على إبراهيم " وقال : " سلام على موسى وهارون " و لم يقل : سلام على آل نوح ، و لم يقل سلام على آل ابراهيم ، ولم يقل سلام على آل موسى و هارون ، وقال : سلام على آل يس يعني آل محمد (ص. (

فقال المأمون : " قد علمت أن في معدن النبوة شرح هذا و بيانه " (١)(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٧٥.

و لعل معرفة الاحرف المتقطعة في فواتح السور تعتبر مفاتيح لفهم أسرار كتاب الله.

[2]القسم يربط - إعتباريا - بين حقيقة يرد التأكيد عليها ، و حقيقة مؤكدة فعلا ، فإذا حلفت بالله سبحانه على أنك تفي بوعدك ، فقد ربطت بين إيمانك بالله كحقيقة ثابتة ، و بين الوفاء بالوعد تريد التأكيد عليه.

وإذا كانت هنالك صلة حقيقية بين أمرين ، و كان أحدهما شاهد صدق على الثاني ، فإن القسم يكون أبلغ واكد ، و لعل كل ما في القرآن من حلف هو من هذا النوع .أليس القرآن كتاب حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ و هكذا ينبغي البحث دائما عما يوصل بينطرفي القسم ، و هو في الأكثر صلة الحجة و الشهادة.

و هنا يحلف الذكر بالقرآن الحكيم على رسالة النبي . أوليس القرآن أكبر شاهد على رسالته ؟ أوليس المعجزة التي لا تفنى ولا تنتهي غرائبه ، الجديد أبدا الذي يسبق الحياة دائما.

]و القرءان الحكيم[

ترى أي صفة في القرآن تجعله أكبر شاهد على الرسالة ؟ هل هي بلاغته التي أخرست العرب الذين زهوا ببلاغتهم و سموا أنفسهم عربا لأنهم أعربوا عما يختلج في ضمائرهم ؟

أم لأنه جاء على يد نبي أمي ما عهد القراءة و الكتابة ؟

أم لأنه تنبأ بالمستقبل فلما تحققت أنباؤه عرف الناس صدقه ؟

أم لأنه أنبت حضارة ربانية في أرض الجاهلية العريقة ؟

كل تلك الصفات شواهد صدق الرسالة إلا أن الصفة الأسمى للقرآن حكمته . ما هي هذه الحكمة التي يحلف بها الرب هنا ليستدل على أن محمدا (ص) من المرسلين ؟

لا يزال " العلم " الشاهد العظيم عند كل الناس على صدق او كذب أصحاب الدعوات الجديدة ، و القرآن فتح أمام البشرية ولا يزال آفاق المعرفة:

عرفهم بربهم حتى وجده العارفون ، و جالسه الذاكرون ، و استأنس به المريدون.

عرفهم بأنفسهم حتى بصروا عيوبها ، و ميزوا بين فجورها و تقواها ، و اجتهدوا في تزكيتها و تنمية

المواهب فيها.

عرفهم بالسنن الإلهية في الأمم الغابرة حتى أخذوا بأسباب التقدم ، و تمسكوا بأهداب التكامل و الفلاح .

عرفهم بمناهج المعرفة ، و سبل السلام ، و مفاتيح النجاح ، و وسائل القرب الى الله.

فإي شهادة أكبر على صدق الرسالة من ذات الرسالات ، وعلى صدق الرسول من أنه يحملها و يطبقها ؟

والقرآن ليس فقط كتاب علم بل هو أيضا كتاب حكمة ، و الحكمة - كما يبدو لي - العلم النافع الذي بلغ في تكامله و نضجه مبلغا يجعله مؤثرا في سلوك البشر ، و مغيرا الحياة ، و صانعا للحضارة.

دعنا نضرب مثلا : علم قيادة السيارة قد يكون نظريا ، فهو مجرد علم ، و قد يتحول الى مهارة عملية . ألا يختلفان ؟ (١) ولكن أين الاختلاف ؟ إنما في أن دراسة قيادة السيارة في معهد مرحلة أولية في علم القيادة ، أما إذا تدرب الإنسان عليها بلغ العلم مرحلته النهائية ، و القرآن ذلك الكتاب الحكيم الذي يشفي الصدور ، و يبعث الهمم ، و يعطي البصائر ، و يكمل العقل ، و يضع الشرائع السليمة ، ... فهو ليس علم الحياة بل هو الحياة.

[3]الرسالة حقيقة لا ينكرها إلا المعاندون ، و قد أرسل الله انبياءه - عليهم السلام - حتى لم يكن إنكار الرسالة أصلا يجدي أحدا نفعا ، و لعل التعبير القرآني هنا يوحي بهذه الحقيقة إذ قال:

]إنك لمن المرسلين[

فلست بدعا من الرسل ، و إنما أنت واحد من أولئك الكرام الذين بلغوا عن الله ، و أنت تصدقهم ، و هم بشروا بك .. و هذا بدوره شهادة على صدق الرسول.

[4]و شهادة اخرى على ذلك أن الرسول على الصراط المستقيم ، إستقامة النفس بالعقل ، و استــقامة السلوك بالشرع ، و استقامة القول بالصدق ، و استقامة العمل بالصلاح.

فإذا ضلت المذاهب في ربهم فإن الرسول يهدي الإنسان إلى الله بما يتفق مع الفطرة والعقل ، و حين يبلغ العبد معرفة الرب لا يبقى لديه ريب في صدق الرسالة.

و إذا تطرفت المذاهب فإهمل بعضها العقل و أهمل البعض البدن ، فإن الرسول(١) اننا نستخدم كلمة العلم عادة في الجانب النظري بينما نستخدم للجانب العملي كلمات مثل الفن و المهارة و التدريب و التقنية.

على طريق مستقيم وسط ، لم يهمل جانبا على حساب جانب.

وإذا كانت الأهواء تسير الناس ذات اليمين و ذات الشمال فإن ضغوط المجتمع والإقتصاد و السياسة تتكسر على صمود الرسول ثم تتلاشى أمام استقامته التي تحدت إغراء الشمس و القمر.

إن استقامة رسالة النبي و سلوكه تشهد على أنه ينطق عن الوحي ، و أنه مؤيد بالغيب.

]على صراط مستقيم[

[5]بماذا أنزل الله الرسالة ؟ و أي اسم يعكسه كتابه ؟ أوليس الكتاب دليل صاحبه ؟

القرآن تجل لاسم العزة التي تعني فيما تعني المقدرة و الهيمنة ، كما لاسم الرحمة ، لأن رحمة ربنا اقتضت إنقاذ البشر من براثن الضلالة و الشرك.

]تنزيل العزيز الرحيم[

و نستوحي من الآية أن القرآن سيهزم المبادىء الباطلة عاجلا أم آجلا ، لأنه تنزيل العزيز الذي يؤيد بعزته رسالاته ، و يعكس هذا استمرار انتشار نور الإسلام في الأرض بالرغم من كل العقبات التي يجعلها أمامه الطغاة.

[6]أما هدف الرسالة فهو إنذار قوم غافلين ، ما أتاهم من قبل الرسول من نذير.

]لتنذر قوما ما أنذر اباؤهم فهم غافلون[

و قد فسر أغلب المفسرين هذه الآية بأن أولئك القوم لم ينذر آباؤهم من قبل، مما يخالف قوله سبحانه : " و إن من أمة إلا خلا فيها نذير " (١) و هناك تفسير آخر يجعل حرف (ما) موصولة فيكون معناه تقريبا : " لتنذر قوما بما أنذر آباؤهم من العذاب. "

و سواءا أخذنا بهذا التفسير أو ذاك فان من المعلوم أن قوم الرسول لم ينذروا منذ فترة طويلة ، فهم لم ينذروا من قبله ، و نجد هذا المعنى في آية أخرى : " وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير (2) " و لكن هل يعني ذلك انهم لم ينذروا أبدا ؟ كلا..

[7]و يذكر السياق بالتحديات التي يواجهها النبي - كسائر الرسل - في طريق الدعوة ، فسوف لا يؤمن هؤلاء الناس ، و سوف يقوم صراع مرير بينه و بينهم ، و يستمر الصراع حتى يبتلى المؤمنون و حتى يأذن الله بالنصر المبين!

]لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون[

و هكذا لا ينبغي الخضوع للتيار الإجتماعي إذ عدم إيمان الأكثرية ليس دليلا على نقص في حجج الرسالة بل في وعيهم.

و تعطينا الآية دفعة معنوية لنمضي قدما في حمل الدعوة دون أن نهن أمام رفض الأكثرية أو كفرهم بها.

[8]و لكن لماذا لا يؤمن بها أكثرهم ؟

لأن تراكم المعاصي على قلوبهم ، و علاقاتهم الاجتماعية القائمة على الظلم و الاستعباد ، و تخلفهم و انشدادهم الى عادات مجتمعهم و تقاليد آبائهم الضالين ، كلأولئك تشكل أغلالا في أعناقهم.

]إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا[

الشهوات غل ، و عادات المجتمع أغلال ، و التكبر والحسد و العصبيات أغلال.

]فهي إلى الأذقان[

لعل معناه : أن الأغلال عريضة بحيث تأخذ بمجامع أعناقهم و تبلغ الأذقان ، و نستوحي من ذلك أن عبوديتهم شاملة.

]فهم مقمحون[

أرأيت الفرس حينما يسحب لجامه كيف يرفع رأسه ؟ قالوا : إن ذلك هو المقمح ، و هو لا يملك قدرة

الرؤية ، كما لا يستطيع الحركة.

[9]و يمضي السياق في بيان شقاء هؤلاء الغافلين الذين سدت منافذ عقولهم) لعله بسبب الأغلال المكبلين بها) فأمامهم سد و من خلفهم سد ، و عيونهم محجوبة ، فلا ينشطون للتحرك بسبب السدين ، و لا هم يبصرون بأعينهم شيئا.

]و جعلنا من بين أيديهم سدا و من خلفهم سدا[

فلا يقدرون على التقدم ، و لايمكنهم التراجع عن الغي ، و هم قد احيطوا بعقبات تصدهم عن السبيل بما اكتسبوا من آثام.

]فأغشيناهم فهم لا يبصرون[

لقد أحاطت بهم خطيئاتهم و غشيتهم فلا يبصرون أنهم محاطون بالسدود ، ذلكأن الذنوب التي يرتكبها الإنسان تخلف آثارها على الواقع الخارجي ، و تتحول إلى سدود أمام هداية البشر و سعادته . أرأيت الذي انتمى الى حزب كافر ، وعمل من أجل انتشار مبادئه الضالة ، و تربية جيل من الناس عليها . هل يقدر على الخلاص منه ؟! كلا .. بل يضحى مثلهمثل دودة القز التي تصنع الشرنقة ثم تموت فيها ، و هكذا الذي أعان ظالما حتى سيطر على البلاد . إنه يصبح إسير عمله ، و كثيرا ما يسلطه الله عليه ، و يقتل بسيف البغي الذي سله على الناس.

و لعل السدين هنا إشارة الى آثار الجرائم الخارجية ، بينما الأغلال تشير الى الآثار النفسية لها ، حيث يزين الشيطان للنفس أعمالها حتى تغدو ملكات يصعب تجاوزها.

أما الغشاوة فهي الظلمات التي تحيط بالقلب ، فينطفىء فيه الضمير ، و يخبو نور العقل ، و لا يحس البشر أنه واقع في المهلكة ، بل قد يزعم انه على صراط مستقيم.

[10]و عندما تتراكم الأغلال الغليظة حول القلب الغافل ، و تحيط بصاحبه سدود الجريمة ، و تغشاه ظلمات الجهل ، يصل إلى الدرك الأسفل فلا ينتفع بالإنذار و يكون مثل قلبه مثل جسم مريض لا يستجيب للدواء ، فلا يرجى شفاؤه.

]و سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون[

إن هذه العاقبة السوءى تنتظر كل أولئك الذين يغفلون عن ربهم فيختطفهم الشيطان ، و يسترسلون مع الأهواء و الظروف حتى تحيط بهم أغلال العادة العصبية ، و العزة بالإثم ، و سدود النظام الفاسد اقتصاديا و سياسيا و ثقافيا ، و تغشاهم ظلمات الجهالة ، و لا ينفعهمآنئذ الانذار . و على البشر أن يتجنب الخطوة الأولى التي تقوده الى الهاوية ، لأنه كلما هبط أكثر كلما كانت جاذبية الهاويةأقوى.

[11]و السبيل الى النجاة من الحلقات المتداخلة للشقاء يمر عبر محاربة الجبت و جهاد الطاغوت ، و بالتالي اتقاء الاغلال و السدود.

كيف ؟

أولا : باتباع الذكر الذي هو القرآن الكريم ، و ذلك بأن يكون قرار الإنسان مع نفسه إتباع الحق الذي يذكر به الوحي و يعرفه العقل.

]إنما تنذر من اتبع الذكر[

و لعل استخدام لفظة الذكر هنا كان للإشارة الى مصدري المعرفة : الوحي و العقل ، اللذين ينتهيان - بالتالي - الى نور واحد ، فالوحي يثير العقل ، والعقل يصدق الوحي ، و الإنسان يتبع ذلك الذكر ، و أولئك الذين عودوا أنفسهم على اتباع الحق هم الذين ينتفعون بالإنذار ، لأن نظرتهم موضوعية ، و منهجهم

الفكري سليم ، و لا يملكون حجابا يمنعهم عن فهم الحقائق.

ثانيا :بخشية الله و رجاء رحمته ، حتى يحاربوا بذلك جبت أنفسهم ، و يفكوا عن قلوبهم أغلال العصبية و العناد و الكبر و العزة و الأثم.

إن خشية الله تضيء في القلب مصباحا يرى به الحقائق . أو ليست خشية الناس أو خوف الفقر أو الحذر من الطبيعة تنكس القلب ، و تدع رؤيته مقلوبة ؟ كذلك تضحى خشية الله و سيلة الهدى ، لأن من يخشى ربه بالغيب لا يخاف شيئا.

]و خشي الرحمن بالغيب[

لعل ذكر كلمة الرحمن هنا يهدف إيجاد حالة من التوازن بين الخشية والرجاء ، فهو الله أرحم الراحمين و خشيته لا تبلغ درجة القنوط من رحمته ، انى كثرت الخطايا و عظمت الذنوب.

]فبشره بمغفرة و أجر كريم[

إن من أبعاد المغفرة تجاوز آثار الذنوب في الواقع الخارجي أو على النفس . إن السلطات الظالمة ، و النظام الإقتصادي الفاسد ، و الأنظمة الإجتماعية المتخلفة كلها من آثار الذنوب ، و حين نتبع نهج الله ، و نطيع أولياءه ، فإن الله سبحانه ينصرنا على الطغاة و المترفين ، و يسن لنا شرائع سمحاء قائمة على أسس العدل و الإحسان ، كما ينزع من أفئدتنا حب الشهوات ، و يعيننا على العادات السيئة.

إن المغفرة بشرى عظيمة ، فطوبى لمن غفر الله له ذنوبه ، و هي تمهد للأجر الكريم في الدنيا بحياة فاضلة تعمها السعادة و الفلاح ، و برضوان الله و جناته في الآخرة.

[12]إن أعظم إنذار يستجيب له المخبتون ولا ينتفع به الغافلون ، هو النشور حيث يحيي الله بقدرته التي لا تحد الموتى جميعا ، بعد أن سجل عليهم للحساب أعمالهم التي فعلوها في حياتهم و قدموها لتستقبلهم عند الموت ، أو التي خلفوها و راءهم من سنة حسنة أو سنةسيئة.

]إنا نحن نحي الموتي[

إنه وعد صادق.

]و نكتب ما قدموا[

من أعمال صالحة تتجسد ثمة جنات و حور عين ، أو ذنوب تتجسد ثمة نيرانا و حيات.

]و ءاثارهم[

فالصدقات الجارية ، و العلم الذي يهتدي به الناس ، و الأولاد الصالحون ، هي الروافد المستمرة التي تنمي حسنات المؤمن بعد موته ، بينما كتب الضلال ، و سنن الظلم و الانحراف ، و التربية الفاسدة للأبناء ، تلاحق الفاسق حتى بعد وفاته.

هكذا روي عن النبي محمد (ص: (

"من سن سنة حسنة كان له أجرها و أجر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ، و من سن سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها " (١)[و كل شيء أحصيناه في إمام مبين[

ما هو ذاك الإمام الذي أحصى الله كل شيء فيه ؟ هل هو اللوح المحفوظ ؟ أم طائر كل شخص الذي

ألزمه الله في عنقه ، و يلقاه يوم القيامة منشورا ؟ أم هو إمام الحق أو إمام الضلال اللذين يتبعهما الناس ؟

لعل القرآن الحكيم يشير الى كل ذلك و أكثر ، إذ أن كلمات القرآن لا تتحدد في إطار السياق فقط ، بل تتجاوزها لبيان حقائق الخليقة ، بلى . يكون ذكر هذه الحقيقة هنا و تلك هناك بمناسبة موضوعات السياق.

أما الحقيقة التي نستوحيها من الآية فهي : إن لكل شيء إماما تتمثل فيه(١) تفسير الرازي / ج ٢٦ / ص ٤٦.

خصائصه بصورة متكاملة ، فالأنبياء وأوصياؤهم - أئمة الرشاد - تتمثل فيهم كل صفات الخير و الفضيلة ، بينما الفراعنة و الطغاة - أئمة الكفر - تتجسد فيهم كل صفات الرذيلة و الشر.

و من هنا جاء في الحديث المأثور عن أئمة الهدى تفسير هذه الآية الكريمة بالإمام أمير المؤمنين (ع) حيث روي عنه (ع (قوله:

"أنا والله الإمام المبين ، أبين الحق من الباطل ، و رثته من رسول الله " (١)(١) عن نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٧٩.

قالوا : طائركم معكم

هدى من الآيات

حين تتراكم حجب الغفلة على الأفئدة لا ينتفع أصحابها بالنذر ، كذلك قال ربنا آنفا ، وهو الآن يضرب مثلا من أصحاب القرية التي جاءها المرسلون فلم يؤمن أغلبهم ، بل قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، و لم ينفعهم أن الله يشهد على صدق الرسل ، و أنهم مسؤولون عنموقفهم ، و ليس النذر ، و بالغوا في التكذيب ، إذ تطيروا بالرسل ، و تشاءموا من دعوتهم ، و لكن الرسل استقاموا في تحديهم لأولئك الجاهلين ، بالرغم من توعدهم بأنهم سوف يرجمونهم إن لم ينتهوا من دعوتهم ، بأغلظ ما يمكن ، فقال الرسل : إن تشؤمهم إنما هو منأنفسهم ، و تهديدهم بالعذاب لا يلويهم عن تذكيرهم ، و إنه لدليل على توغلهم في الجريمة.

و هناك انتشرت الدعوة فجاء رجل من اقصى المدينة يسعى (لينذر قومه قبل ان يحل بهم العذاب لتكذيبهم الرسل) فنصح قومه إشفاقا عليهم باتباع المرسلين ، الذين تدل على صدقهم حجتان : الأولى :أنهم لا يسألونهم أجرا ، و الثانية : أنهممهتدون ، و ذكرهم بربهم بأبلغ صورة . أوليس هو الذي فطرهم ، فلماذا ينكرونه ؟! أوليس المرجع إليه ، فلم لا يرجونه أو يخافونه ؟! أم يعتمدون على الآلهة التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تمنع عذاب الله عنهم ؟! إنها الضلالة الواضحة (ثم تحداهم بكل عزم و قال :) إني آمنت بربكم فاسمعون (لقد أخذ الرجل و عذب ثم قتل ثم أحرق ، و لكن السياق يتجاوز كل ما حدث الى العاقبة فيقول :) قيل له : إدخل الجنة) و بقي حنين هذا الصديق الى بعد استشهاده ، فتراه يقول و هو يدخل الجنة (: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي و جعلني منالمكرمين.

بينات من الآيات

[13]قصة المرسلين الثلاثة الى قرية (أنطاكية) التي جعلت قلب سورة (يس (التي هي بدورها قلب القرآن تتمثل فيها الحقائق التالية:

أولا : توجز مفصلات الصراع الرسالي مع الجاهلية ، حيث نرى فيها جانبا من حوار الرسل مع الأمم الغاوية ، و حججهم البالغة عليهم ، و شبهات الكفار و ردود المرسلين عليها ، و سائر فصول الصراع المعروفة ، فهي - بالتالي - تجمع جملة الحقائق التي ذكرت بها آيات الكتاب في هذا الحقل.

ثانيا : تمثلت فيها سنة الله في الإنذار ، و عادة الجاهليين في الإنكار ، و اللتين ذكرت بهما آيات الدرس الآنف ، و هكذا تكون القصة حجة على الحقائق التي بينها القرآن في فاتحة السورة.

ثالثا : إن سورة يس تبين واقع الجاهليين العرب و هو قريب جدا من واقع أصحاب القرية (في أنطاكية) ذلك لقرب العهد الزمني ، و تشابه الرسالتين (رسالة الله الى عيسى (ع) و رسالته لمحمد (ص)) و هكذا وجب أن نستخلص منها العبرة ربماأكثر من أي قصة أخرى.

]و اضرب لهم مثلا[

إن هذا المثل ينطبق على مثلهم ، لأنهما من نوع واحد و حزب واحد.

]أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون [

أين كانت هذه القرية ، و من هم المرسلون إليها ؟

قالوا :إنها كانت أنطاكية ثانية حواضر الروم ، و الواقعة اليوم في تركيا على حدود سوريا (١٠٠ كيلو متر الى حلب تقريبا) و قريبة من ميناء الاسكندرية على البحر الابيض (٦٠ كيلو متر تقريبا) و هي لا زالت كبيرة ، إلا إنها في ذلك اليوم كانت أكبر ، و يحترمها المسيحيون لأن بولس و برنابا و آخرين زاروها.

أما قصة الرسالة فلم يختلف المفســرون فيها إلا في بعض التفاصيل ، و هي باختصار:

إن عيسى - عليه السلام - بعث اثنين من الحواريين الى تلك القرية بالرسالة ، فلما بلغاها وجدا في اقصاها حبيب النجار فدعياه الى الرسالة فآمن ، و لما دخلا المدينة دعوا الناس فآمن بعضهم ، و مر بهما الملك ذات يوم فكبرا (و يبدو أنهما لم يجدا طريقا لدعوته غير ذلك) فحبسهما الملك ، و بعث عيسى - عليه السلام - الرسول الثالث لتعزيز موقف الأولين (و لعله كان وصيه شمعون (فتقرب الى الملك حتى استخلصه فحدثه عن شأن الرسولين ، و طلب منه أن يسمع منهما الحجة ، فلما اظهرا حجتهما بإبراء الأكمه و إحياء الموتى (حيث أنابن الملك أو ابن واحد من حاشيته كان قد مات قبل اسبوع فإحياه الله بدعائهما) آمن الملك و بعض قومه ،إلا أن الغلبة كانت للمكذبين الذين اهلكهم الله بصيحة واحدة.

و هكذا يرتفع الإختلاف الظاهر بين روايات التفسير التي تنقل أن الملك آمن ، و بين ظاهر الآية التي تنبأنا بهلاك أولئك القوم ، ذلك أن إيمان الملك - حسب هذه الرواية التي نقلها الفخر الرازي - لم يؤثر في الطبقات المسرفة من قومه ، فإنزل الله عليهم العذاب ،و الله العالم.

[14]و ليس المهم أن نعرف تفاصيل القصص القرآنية ، إنما المهم أن نتدبر في الجوانب التي يخبرنا ربنا عنها ، لأنها هي التي تنفعنا ، و تجري علينا سنن الله فيها كما جرت على الأولين.

و هكذا كذب اولئك الغافلون اثنين من المرسلين فعزز الله دينه بالثالث.

]إذ أرسلنا إليهم اثنين[

هل كانا رسولين من عند الله مباشرة ؟ أم كانا من عند المسيح روح الله - عليه السلام - كما تروي التواريخ ؟ و اذا كيف يقول ربنا سبحانه : " أرسلنا " ؟

ربما كانا نبيين - كما هارون مع موسى ، و يحيى مع عيسى - إلا أن المفروض عليهما كان طاعة عيسى - عليه السلام - باعتباره من أولي العزم.

و لعل رسول عيسى - عليه السلام - يعتبر عند الله رسوله ، لأن عيسى إنما أرسلهما بإذن الله ، أو ربما بأمر مباشر من الله ، فهما بالتالي رسولان من عند الله.

]فكذبوهما[

بالرغم من أن البعض آمن بهما - كالصديق حبيب النجار الذي جاء ينذر قومهمن أقصى المدينة - إلا أن الأغلب كان قد كذب بالرسولين ، لأنهم قد حق القول عليهم.

]فعززنا بثالث[

لقد عزز الله دينه الحق بالرسول الثالث ، الذي قالوا : إنه كان شمعون و صي عيسى.

]فقالوا إنا إليكم مرسلون[

لا يتعرض السياق لبيان الآيات التي تقول الروايات أنها ظهرت على ايديهم ، مثل إبراء الأكمه و إحياء الموتى ، فهل لأنها لم تكن ضرورية ، إذ أنهم عرفوا صدقهم من خلال أقوالهم ، و ما دعوا اليه من حقائق ، و من خلال سلوكهم و استقامتهم ؟ أم لأن ظهور الآيات علىأيدي الرسل كانت سنة لا تحتاج الى مزيد بيان ؟

لعل القوم كانوا مستبصرين فأغواهم الشيطان ، و أن دعوة الرسل جاءت لتذكيرهم بالحقائق التي آمنوا بها من قبل فلم تكن بحاجة الى آيات جديدة ، و الله العالم.

[15]أما شبهة قومهم فكانت تتلخص في أنه كيف يبعث الله بشرا رسولا ، و بالتالي لماذا نطيعكم و أنتم مثلنا ؟

]قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا[

ثم تمادوا في الغي حيث لم ينكروا فقط رسالة هؤلاء بل كفروا بكل رسالة ، و قالوا:

]و ما أنزل الرحمن من شيء[

لا رسالتكم ولا رسالة غيركم . و هكذا ازدادوا كفرا و طغيانا ، و لكن لماذا جيء بأسم الرحمن هنا ؟ هل لأن الرسل ذكروا هذا الاسم و هم يبينون لهم أن ربهم لا يتركهم بلا رسالة ، لأنه واسع الرحمة شديد العطف ، فقال الكفار كلا .. ما أنزل الرحمن ؟ أم لأنهم زعموا أن رحمة الله تأبى إنزال التكاليف الشاقة عليهم بالرسالة ؟ يبدو أن الأول أقرب ، فيكون جوابهم مضمرا في حديث أنفسهم.

]إن أنتم إلا تكذبون[

فلأن أصل الرسالة مرفوض عندهم فإن دعوة الرسل تكون - بزعمهم - مجرد كذب ، و لعل هذه الآية تدل على أن الرسل كانوا ينطقون عن الله مباشرة.

[16]الله تعالى أكبر شاهد على صدق رسله . أو لم يودع في ضمير كل إنسان عقلا يهديه الى الحق ؟ أولا يظهر على أيدي رسله الآيات ؟! أولا ينصرهم ؟ أفلا تدل استقامتهم على صدقهم ، أنهم واثقون تماما من أنهم مرسلون و أنهم لصادقون ؟

]قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون[

و لكن لا يعني تحملهم لمسؤولية الرسالة أنهم مسؤولون عن موقف الناس ، إنما جزاؤهم على ربهم.

] [17]و ما علينا إلا البلاغ المبين[

فإذا أبلغناكم الرسالة بوضوح تام فقد انتهى دورنا و بدأ دوركم.

و نستوحي من الآية : أن البشر مسؤول عن معرفة الهدى ، ولا يحق له أن يبررجرائمه بأنه لم يكن مهتديا للحق ، كلا .. إذا ظهرت دعوة الى الحق فعليك أن تتفكر من دون عصبية أو عزة ، و ترى هل هي صادقة أم لا.

[18]يغفى الجاهليون على حرير التبريرات غارقين في شهواتهم ، فإذا جاءهم نذير و قدم لهم الوعيد بأن عاقبة غفلتهم الدمار ، فإنهم يتشاءمون منه ، و يزعمون أنه يكدر عليهم صفو معيشتهم ، فمثلهم مثل مريض ، تفشى في جسده مرض السرطان ، و هو لا يدري ، فإذا أخبرهالطبيب و حذره من مغبة غفلته ثار عليه ، و قال : إنك منكد ، لماذا انت سلبي ؟

]قالوا إنا تطيرنا بكم[

تشاءموا منهم ، و زعموا أن بيان سلبياتهم ، و الدعوة الى إصلاح الفاسد من حياتهم ، هو سبب الإزعاج عندهم.

و احتمل بعض المفسرين أن يكون قد نزل عليهم البلاء عند بلاغ الرسل ، كما نزلت على فرعون و قومه آيات الدم و السنين و .. و .. و يبدو أننا لسنا بحاجة الى مثل هذا الفرض.

]لئن لم تنتهوا لنرجمنكم[

هكذا بلغ عنادهم أسفل درك له حين هددوا المرسلين بالرجم لو لم يكفوا عن دعوتهم ، و سواءا كان الرجم هو جراحات اللسان التي لا تلتئم ، حيث توعدوهم بتلفيق التهم المختلفة ورجمهم بها ، كعادة الطغاة و المترفين دائما ، أم كان معنى الرجم هو الرضخ بالحجارة حتىالموت ، فإن ذلك دليل على هزيمتهم أمام حجة المرسلين فتوسلوا بإرهابهم.

]و ليمسنكم منا عذاب أليم[

و ماذا فوق الرجم (لو كان معناه الرضخ بالحجارة) من عذاب ذي ألم ؟

لعلهم هددوهم بالقتل بأبشع صورة.

[19]و عكس جواب المرسلين سكينة الحق ، و طمأنينة الثقة بنصر الله ، إذ لم يهنوا ولم يحزنوا بل كشفوا لهم الحقائق دون لبس ومن دون استخدام ألفاظ نابية.

]قالوا طائركم معكم[

كان شؤمهم في أنفسهم السلبية ، في عنادهم ، و تعصبهم لباطلهم ، و في أعمالهم التي جرت الويلات اليهم . أرأيت الفيروس مستقر في جسد المريض أم في كلام الطبيب ؟ أو رأيت الذي ينهى أحدا من الوقوع في بئر محفورة في طريقه ؟ هل الخطر كامن في نهيه أم في غفلة من يمشي ؟

المجتمع الفاسد الذي يمشي على حرف الهاوية ، و يهدده السقوط في أية لحظة ، طائره المشؤوم إنما هو طبقيته ، و ظلم أفراده بعضهم البعض ، و إسرافه ، و ليس في دعوة المنذرين.

]أئن ذكرتم[

فإذا ذكرتم بما يهددكم من أخطار ، فهل هذا يسمى طائركم عندكم ؟!

و قال المفسرون : إن هذه الكلمة بمثابة إجابة عن تهديدهم بالرجم و العذاب ، أي : هل تعذبوننا لأننا ذكرناكم ؟

و يبدو أن محور كلام الكفار هو التطير ، و أن محور كلام الانبياء هو الجوابعن هذا التطير.

]بل أنتم قوم مسرفون[

فإسرافكم هو السبب في الشؤم الذي أصابكم ، و لعل هذه الآية تتشابه و قوله سبحانه " : و اتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه " . (١)و ذهب البعض الى أن الإسراف هنا بمعنى الإسراف في الجريمة و الظلم ، و أنه يتصل بتهديد الرجم.

[20]و هنا تدخل المسرح صورة جديدة ، هي انعكاس الرسالة على قلب واع و نفس زكية ، ذلك الرجل المؤمن الذي وجد قومه أشرفوا على الهلاك بكفرهم ، فسارع اليهم يحذرهم مغبة رفض الرسالة.

]و جاء من اقصا المدينة رجل يسعى [

جاء في الروايات أنه الصديق حبيب النجار ، الذي بلغته الرسالة بالرغم من أنه كان في أقصى المدينة ، و بادر الى النصيحة مع أنه كان - حسب الروايات - راعيا ، و لعل كلمة " أقصى المدينة " تشير الى طبقته الدانية عند أولئك القوم ، كما تشير الى موقعهالجغرافي مما تدل على انتشار الرسالة في صفوف بعض المستضعفين ، الذين بالرغم من انهم كانوا يعيشون في أقاصي المدينة ، و ليس في أعاليها حملوا مشعل الرسالة بكل قوة.

و لعل تنكير كلمة الرجل للدلالة على اكتمال صفات الرجولة فيه من الهمة العالية ، و الحزم الشديد ، و القول الثابت ، كقوله سبحانه : " من المؤمنين رجال(١) هود. 116 /

صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلا. "

و ربما سعى الرجل سعيا لاهتمامه البالغ بالإنذار ، و حرصه الشديد على سلامة قومه ، و هكذا يحرص اصحاب النفوس الطيبة على أمن الناس ، و يتفانون في إبلاغ رسالات الله لإنقاذهم من عذابه المحتوم.

]قال يا قوم اتبعوا المرسلين[

لقد كان الرجل منهم ، و خاطبهم بما يتناسب و مقام النصيحة ، إذ قال : "يا قوم "، و كشف منذ البدء عن إيمانه حين امرهم باتباع المرسلين.

و روي أنه كان واحدا من الصديقين الثلاثة في التأريخ ، فلقد جاء في كتاب " الدر المنثور " : أخرج أبو داود و أبو نعيم و ابن عساكر و الديلمي عن أبي ليلى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله: -

"الصديقون ث٩٠لاثة :حبيب النجار (مؤمن آل ياسين) الذي قال : " يا قوم اتبعوا المرسلين " ، و حزقيل (مؤمن آل فرعون) الذي قال : " أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله " ، و علي بن ابي طالب ، و هو أفضلهم " (١)[٢١] و مضى الصديق حبيب النجار في سرد حجج المرسلين قائلا:

]اتبعوا من لا يسئلكم أجرا[

فلا يمكن أن يتهموا بالكذب ابتغاء الأجر ، فهم ليسوا سحرة و مشعوذين ، ولا طلاب كراسي و سياسيين ، ولا أصحاب ثروة و مترفين ، فلماذا يكذبون ، و إنما يفتري الكذب - خصوصا في مثل هذه الدعاوي العظيمة - من يطلب أجرا من أي(١ (راجع تفسير الميزان / ج ١٧ / ص ٨٣.

نوع كانت ، و سيرة الأنبياء كما نمط دعوتهم يشهد لهم بالنزاهة التامة.

]و هم مهتدون[

بلى .قد يدعي البعض دعاوي كاذبة بجهل أو جنون ، و حاشا رسل الله من ذلك ، إن رصانة دعوتهم ، و كمال عقولهم ، و حسن سلوكهم و سيرتهم ، و وضوح خطهم ، و استقامتهم على الطريق برغم

الصعاب ، كل أولئك شواهد حكمتهم و أنهم مهتدون.

ثم إن مبادرة الرسول - أي رسول - بالعمل بما يدعو الناس اليه من مكارم الأخلاق ، و حسن الفعال تشهد على صدقه.

[22]ثم إن محتوى دعوة المرسلين شاهد صدق لهم ، فهم يدعوننا الى الله الذي أخذ علينا ميثاقا في عالم الذر بالايمان به ، الله الذي أودع قلوب البشر فطرة الإيمان به ، الله الذي تابع نعمه علينا ، و تأمرنا عقولنا بضرورة شكره ؟

إن دعوة الأنبياء ليست الى أنفسهم ولا الى عنصر أو حزب أو طائفة ، إنما هي الى الله الذي لاشك فيه ، و الذي فطر الجميع على سواء.

]ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون[

إذا كانت هذه حقيقة رسالات النبيين فلماذا نكفر بهم ؟! و ماذا يملك من فقد ربه الذي خلقه و اليه المعاد ؟!

و هكذا نجد هذا الصديق العظيم لم يدع فقط الى اتباع المرسلين ، بل شارك في الدعوة الى محتوى رسالاتهم ، و هو التوحيد.

[23]ثم ندد بالشركاء المزعومين ، و بين أن أساس عبادتهم باطل:

]ءأتخذ من دونه ءالهة[

فاذا خضع لسلطة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية من دون الله ، فلكي تعطيه الأمن و السلام ، و لكي توفر له الحماية من ذنوبه أمام غضب الرب ، فهل تفعل الآلهة شيئا من ذلك ؟! كلا..

]إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون]فلا يخفف العذاب عنه بسبب عبادته للآلهة من دونه ، بل ذات العبادة جريمة نكراء يعاقب عليها الله ، و لا تستطيع الآلهة إنقاذ المشرك منه.

[[24]إني إذا لفي ضلال مبين[

لو تركت عبادة الفاطر الذي اليه النشور ، و القاهر على عباده ، الى عبادة الآلهة التي لا تضر ولا تنفع.

و الضلال المبين هو : الضلال الواضح الذي لا ريب في ضلالته.

[25]ثم أعلن للملأ جبهته التي انتمى اليها ، و تحداهم بإعلان براءته منهم ، فقال:

]إني ءامنت بربكم فاسمعون[

و لعله أبلغهم بذلك بعد أن رفض المعاندون قبول نصيحته ، و هددوه بإنزال العقوبة عليه كما هددوا المرسلين من قبل ، و لكنه استقام ، و أمرهم بأن يسمعوا شهادته بوحدانية الرب بلا لبس.

ولا ريب أن من الحجج البليغة على صحة الدعوة ، إيمان صاحبها الذي لا يتزلزل ، و تحديه العالم بها.

[27 - 26]و فعلا نفذوا التهديد الأرعن بحقه ، فوطأوه بأرجلهم حتى مات ، حسب قول ، و حسب قول آخر أنهم رجموه حتى قتلوه.

فأدخله الله الجنة ، و حينما هم بدخولها تمنى لو كان قومه معه:

]قيــل أدخــل الجنــة قال ياليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين]و جاء في الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله) أنه قال عن مؤمن يس:

"إنه نصح لهم في حياته و بعد موته " (١)و هكذا الشهداء يتمنون لو يعادوا الى الدنيا ليخبروا أهلها بما للشهيد من مغفرة و كرامة.

[28]مضى الصديق حبيب النجار شهيدا الى ربه ، و لم يلبث قومه الجبارون من بعده إلا قليلا حتى أهلكهم الله ، و لكن كيف تم هلاكهم ؟

]و ما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء]من الملائكة أو ما أشبه ، و لعل ذكر " السماء " هنا للدلالة على أن الأمر المهم كان ينزل من السماء.

]وما كنا منزلين[

(1)تفسير نمونة / ج ١٢ / ص ٣٥.

فما كان ينبغي لرب العزة أن يبعث جندا لمثل هذا القوم . أليس قد تحقق الهدف من دون ذلك ؟

[29]فبماذا تم هلاكهم ؟ إنما بصيحة واحدة جعلتهم - في لحظة - كالرماد الخامد ، لا حس ولا حركة ولا حرارة.

]إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون[

[30]و يعقب السياق على هذه القصة التي لخصت تجارب الرسالات تقريبا قائلا:

]يا حسرة على العباد[

إنها تستدعي الحسرات ، حتى أن كل شخص يكون في مثل هذا الموقع لابد أن يتحسر ، أن الله خلق عباده ليرحمهم ، و أكرمهم بالإرادة و الحرية ، فاختاروا طريق الهلاك ، فبعث اليهم الرسل لينذرهم من مغبة أعمالهم ، و لكنهم استهزأوا بهم ، و عرضوا أنفسهم للهلاك الذييجر الحسرات . كيف ضيعوا فرصتهم الأخيرة بالإستهزاء ؟! و كيف أصبحوا وقود جهنم ، و كان من المرتقب أن يكونوا ضيوف الرحمن في الجنة ؟!

]ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون[

و لعل الإستهزاء هو أشد ألوان الكفر ، و أبعد سبل الضلالة ، حيث يعيش صاحبه حالة العبثية و اللآهتمام ، و مثله في هذا المقام مثل الطبيب الذي ينصح المريض بالدواء ، و يحذره من الهلاك ، فبدل أن يشكره المريض ، و يبادر الى تنفيذ أوامره تراه يضحك منه . أوليسمثل هذا الرجل يستدعي الإشفاق و الحسرات ؟!

[31]و هم يغفلون عن مصير الغابرين الذين أهلكهم الله بكفرهم و استهزائهم ، و لم يبق منهم سوى العبرة.

]ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون[

و أعظم ما في الغابرين من أسباب الموعظة أنهم قد ضيعوا فرصتهم الوحيدة ، و أنهم لا يرجعون أبدا إلى أهلهم.

]أنهم إليهم لا يرجعون[

ألا نقف على أطلالهم ، و نتساءل : أين الذين عمروها و عاشوا في ظلها ، و هل يعودون يوما ليروا آثار الدمار الذي لحق ببلادهم ، أو ليخبرونا ماذا كان مصيرهم ؟ كلا..

[32]بلى . سوف يجتمع الناس كلهم في يوم الحسرة ليحاسبوا حسابا عسيرا ، ثم ليجازوا جزاءا وافيا .

]و إن كل لما جميع لدينا محضرون[

قالوا :إن حرف " وإن " هنا أصلها إن بالتشديد ، و إن كلمة " لما " جاءت للتأكيد ، و هكذا يكون التأكيد يتبع التأكيد : " إن " للتأكيد ، و " كل " تفيد معنى التأكيد أيضا ، و " لما " و الجميع تأكيد ايضا.

و قال البعض : " إن " نافية و " لما " بمعنى إلا ، كما يقول القائل : نشدتك بالله لما فعلت ، أي إلا فعلت .

و يجوز أن يكون معنى " لما "هو التوقع ، و فيه معنى النفي ايضا ، أي لم يقعحتى الآن و سوف يقع.

و كلمة أخيرة:

تقول آخر الدراسات التي بحثت عوامل نشوء الحرب العالميتين : إن البشرية انساقت اليها انسياقا ، فلا أحد من القادة المتحاربين كان يريدها حربا مدمرة لا تبقي ولا تذر ، ولكنهم كمن ينحشر في الزحام يدفع و يدفع ولا يجد سبيلا للخلاص ، إنحشروا فيها بلا إرادةو وعي.

كذلك حين تتراكم سلبيات الأمم تتفجر في صور شتى ، منها : الحروب التي يجازي الله بها العباد . أولم يقل ربنا سبحانه : " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا و يذيق بعضكم بأس بعض " (١)و هكذا تلاشت قوة هتلر و اليابان ، و تأخرت أوروبا حتى أضحت القوة الثالثة . لماذا ؟

للجرائم التي ارتكبت بشأن الإنسانية و للإنحراف الكبير عن سنن الله التي لا تتغير.

و اليوم كيف يذر الرب العزيز الحكيم هذه الجرائم ترتكب بحق خلقه ؟! هذا الظلم العريض ، و هذا الإستضعاف الشامل ، مئات الملايين من خلق الله يظلمهم حفنة من المستكبرين ، فهل يهمل الله عباده ؟!

كلا .. ولكنه يملي لهم إن كيده متين ، فإن لم يرجعوا عن غيهم ، و يعتبروا(١) الانعام / ٦٥.

بمصير القرون التي كانت من قبلهم - كيف أهلكهم الله فلم يرجع منهم أحد ابدا - فإن ترسانات الأسلحة لابد أن تثور يوما لتصب الحمم على رؤوس صانعيها و الساكتين عنهم من الناس ، أو يخسف الله بهم الأرض ، أو يسقط عليهم من السماء كسفا ، أو ينشر فيهم وباء كوباء الايدز فلا يستطيعون رده.

إذا علينا جميعا أن نعي رسالة ربنا العزيز الرحيم ، و نأخذ إنذاره مأخذ الجد ، و الا فساعة الجزاء رهيبة ، ولا ينفع يومئذ الندم ، كما لا تنفع التوبة شيئا.

ذلك تقدير العزيز العليم

هدى من الآيات

بعد أن تهيأت النفوس الطيبة ، لتلقي آيات الله ، و ذلك بذكر العاقبة السوءى التي تعرض لها أصحاب القلوب المغلقة ، يشرع القرآن بالتذكير بالله عبر آياته ، و أولها آية الحياة التي يبثها الرب في الأرض الميتة (كما يحيي بالرسالة القلوب) و يخرج منها الحب)
الذي يشكل أعظم طعام البشر) كما يجعل فيها جنات ذات أشجار النخيل (المتنوعة الفوائد) و كروم العنب) الذي هو من الثمرات المفيدة كما التمر) و فجر الله الأرض عيونا تجري بالبركات ، و الأهداف الثلاثة منها هي : أن يستفيد منها البشر رزقا ، و ليصنع فيهاما يشاء من حاجاته ، و لكي يشكر ربه.

)و بعد آية الحياة) يذكرنا الرب بآياته - سبحانه - في الخليقة ، و من أروعها آية الزوجية التي تشمل البشر والأحياء و غيرهما (مما تدلنا على أن ربنا منزه عن الحاجة. (

)و من طعام البشر و نظام حياته القائم على أساس التزاوج ، الى بيان آيات ربنا في الآفاق) هذا الليل كيف يسلخ منه النهار)مما يدل على أن أول ما خلقه الله هو النهار ، ثم سلخه فكان الليل) فإذا هم مظلمون.

و الشمس (التي هي محور منظومتنا) تجري بسهولة و يسر)و لكن ضمن خطة مرسومة ، والى نهاية معلومة تستقر عندها) ذلك تقدير العزيز العليم (الذي رسم للشمس مدارها بعلمه ، و سخرها بعزته. (

أما القمر فقد قدره الله أيضا (كما قدر الشمس) ضمن منازل يجري عبرها يوميا حتى عاد في نهاية الشهر كما العرجون القديم ، ذابلا مصفرا.

و كلما تعمقنا في الخليقة ظهرت آثار التقدير و التدبير أكثر فأكثر ، فلا الشمس يجوز لها أن تسارع حتى تكون كالقمر في سرعة حركته (فإن مدار الشمس سنوي و مدار القمر شهري) ولا الليل (الذي يحتوي القمر عادة) يسبق النهار ، و يتجاوز حدوده ، بل كل جرم يسيربسرعة معينة في مداره المرسوم له.

)و هكذا يستطيع البشر أن يطمئن الى النظام المحيط به ، و أن ينظم حياته و فقه بدقة متناهية ، و أن يبني حضارته على هذا الأساس. (

و هناك نعمة أخرى ضرورية لسعادة الانسان و حضارته ، هي نعمة السفن التي هي آية إلهية . إنها لآية تهدينا الى ربنا ، و تعرفنا بعزته و رحمته ، فهي تمخر في البحار ، و تحمل الناس و البضائع الكثيرة ، أما في البر فقد خلق الله لنا الأنعام التي تشبه السفن.

)و ليس تسخير السفن أو الانعام من صنع البشر ، لأنه إذا لم يهيء الله الأمور للإستفادة منها فلن يقدر البشر على ذلك) و دليل ذلك أنه : لو أراد الله إغراقهم

فهل يغيثهم أحد أو يقدر على إنقاذهم ؟ كلا..

بينات من الآيات

هدا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون

هدى من الآيات

بعد أن ذكرتنا الآيات بربنا العزيز الرحيم ، جاءت تفند شبهات الكفار (لنتحصن ضدها) فإذا قيل لهم : إتقوا عذاب الدنيا و عقاب الآخرة ، و جيء اليهم بالآيات أعرضوا ، و إذا قيل لهم : أنفقوا برروا بخلهم بأن الله لو شاء أطعم الفقراء (و إذا خوفوا بالساعة)يقولون : متى هذا الوعد ؟ (و لكي تخشع القلوب ، و تستعد لفهم الحقائق ، و تنقشع عنها سحب الغفلة ، يذكر السياق بالساعة ، و يقول :) ماذا ينتظر هؤلاء (و ماذا يستعجلون ؟) إنها ليست إلا صيحة واحدة تأخذهم و هم في جدالهم الفارغ (حول حقائق الرسالة (فتأتيهم بغتة بحيث لا يستطيعون كتابة توصية ولا إلى أهلهم يرجعون (و بعد أن يمكثوا ما شاء الله في

القبور) ينفخ في الصور فإذا هم يخرجون من أجداثهم ، و بصيحة واحدة تراهم حاضرين أمام ربهم (وهم يزعمون أنهم كانوا نياما) و يتساءلون : من بعثنا من مرقدنا ؟! فيأتيهم الجواب : هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون ، و يكشف السياق عن مشهدين منمشاهد القيامة ، بعد أن يثبت عدالة الجزاء : فهنا ترى أصحاب الجنة في شغل (يتلذذون و هم (فاكهون ، بينما ينفصل المجرمون عنهم.

بينات من الآيات

[45]بصائر القرآن تهدي الى أن حياة البشر هي نتيجة ثقافته و سلوكه ، عقيدته و عمله ، و هكذا تجعل - هذه البصائر - لكل ظاهرة أو حدث سببا متصلا بإرادة البشر و اختياره ، و بعكسها تماما أفكار الجاهلية - قديمها و حديثها - فهي تفشل في ربط حياة البشـــر بسلوكه ، لأنها لا تؤمن بالغيب ، ولا تعترف بإله يقدر و يدبر ، برب يهيمن و يسير ، فلا تقدر على ربط ما يجري على الإنسان بما يفعله ، فإذا أصيب المؤمن بمرض أو فقر أو ذلة ، فتش عن سبب ذلك ، و عادة يجده في ذنب ارتكبه فعاقبه الله بذلك البلاء ليطهره ، بينما يبقىالكافر سادرا في غيه ، إذ لا يعتقد بأن هناك مدبرا لشؤون العباد ، و بالتالـي ينسب كل شيء للصدفة ، أو لأسباب ظاهرة لا تغنيه علما ، و لاتفيده حكمة و رشدا.

و هكذا كانت ثقافة المؤمنين عقلانية ، و ثقافة غيرهم جاهلية ، أنى زعموا العلمية و العقلانية.

و هكذا نرى السياق القرني هنا يذكر بالتقوى بعد سرد آيات الرحمن ، لأن معرفة الرب و سلطانه هي صلة الربط بين عمل البشر و جزائه.

أما الكفار فإنهم يعرضون إذا أمروا بالتقوى ، أنهم لا يؤمنون برب يدبر شؤونهم ، فلا يعلمون أن ما يصيبهم من ضراء و بأساء فإنما بما كسبت أيديهم فكيف يتقونهما ؟

]و إذا قيل لهم اتقوا ما بين ايديكم[

من عذاب الدنيا ، من صيحة واحدة تصيبكم كما أصابت قوم المرسلين في أنطاكية ، من غرق أو حرب أو أي بلاء آخر.

]و ما خلفكم[

من عذاب الآخرة الذي لا يبقي ولا يذر.

وفي الحديث المأثور عن الإمام الصادق - عليه السلام - أنه قال:

"إتقوا ما بين أيديكم من الذنوب ، و ما خلفكم من العقوبة " (١)[لعلكم ترحمون[

فإذا اتقيتم العذاب باجتناب المعاصي فإن ذلك يوفر لكم فرصة رحمة الله.

[46]ولكنهم يعرضون لجهلهم بربهم ، ولا ينتفعون بالآيات التي تترى عليهم ، و كلها تنطق بضرورة التقوى.

]وما تأتيهم من ءاية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين]وهل تنفع الآيات من يعرض عنها ؟

[47]و يضرب السياق الأمثال لإعراضهم عن آيات التقوى ، و المعاذير التي يلقونها أمام من يأمرهم بها ، فحين يؤمرون بالإنفاق على الفقراء ، تراهم يزعمون أن الله - سبحانه و تعالى - قد خلق بعض الناس أغنياء و بعضهم فقراء ، بعضهم(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٨٩.

سادة و البعض عبيدا ، فلا ينبغي السعي لردم الفجوة بين الطبقات ، أو لتحقيق المساواة بين الناس . هكذا يبررون استئثارهم بالخيرات في كل عصر ، فالمستكبرون يزعمون أن تخلف البلاد المستضعفة

شأن مفروض عليهم من الله ، أما تقدمهم الاقتصادي فإنه من أنفــسهم ، و الطبقات المترفة تزعم أن غناهم آت من سعيهم ، أما فقر الآخرين فهو من ربهم.

]وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله[

وسواءا كان القائل هو الله ، أو المؤمنون الناطقون عن ربهم ، فإن إجابتهم واحدة وهي الرفض ، و لكن ألا يعلمون أن ما بأيديهم من الغنى هو - في الواقع - رزق الله ، و لو شاء الله لمنعهم منه ؟ أولا ينظرون الى أن توزيع المعادن على أقطار الأرض تم بامر الله ،وأن خصوبة الأرض كانت بأمر الله ، و حتى توفر المناخ المناسب لنمو الصناعة كان بإذن الله ؟ ولو تدبر كل غني في الأسباب الخفية لنمو ثروته لرأى يد الغيب وراءها ، فأولى بهم الإنفاق مما رزقهم الله ، مادام الله يأمر به ، وهو الذي استخلفهم فيما رزقهم ليبتليهمبه . ألا يرون أن كل شيء في عالم الإنسان يوحي بأنه جاء لهذه الدنيا لكي يمتحن ؟ فقط جعل الله امتحان الفقير بالغني ليرى هل يصبر ، و امتحان الغني بالفقير ليعلم من ينفق ومن يبخل ، و افتتن العالم بالجاهل وأمره بأن يعلمه كما ابتلى الجاهل بالعالم و أمره بانيتعلم منه ، و جعل الحكام فتنة للناس و افتتن الناس بحكامهم وقال عز من قائل : " وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون و كان ربك بصيرا " . (١)ولكن الكفار زعموا أن غناهم و عدم الفقراء أمر حتمي من عند الله.

]قال الذين كفروا للذين ءامنوا[

(1)الفرقان / ٢٠.

و هكذا خاطب الكفار الذين آمنوا لأنهم الذين أمروهم بالإنفاق ، و لأنهم المؤمنون بالله ، فكان الأحرى بهم - حسب زعمهم - أن يؤمنوا بالقدر ، فقالوا:

]أنطعم من لو يشاء الله أطعمه[

ولم يقولوا أننفق ، لأنهم منعوا عن الفقراء حتى الطعام الذي هو حق كل حي ، فكيف بالإنسان الكريم عند ربه.

أنظر الى مدى إمعانهم في البخل ، و الإعراض عن التقوى ؟ بلى . الله يطعم من يشاء من رزقه الواسع ، ولكنه جعل رزق هؤلاء الفقراء على ايديكم ، لينظر كيف تعملون ، وهو القائل - حسب حديث قدسي - :

"المال مالي ، و الفقراء عيالي ، و الأغنياء وكلائي ، وخيرهم خيرهم لعيالي "ثم أن ربنا سبحانه أكرم بني آدم فجعلهم أحرارا في الدنيا ، و وفر في الأرض ما يزيد على رزقهم ، إلا أن كسل البعض عن السعي بأفكار جاهلية ، و استئثار البعض برزق الآخرين تحت مظلة من القوانين الجائرة ، هما السببان الرئيسيان لانتشار الفقر ، ومن أساليب محاربة الفقر نبذ الثقافة الجاهلية ، وإصلاح الأنظمة الجائرة ، والإنفاق واحد من أهم السبل لمحاربة الفقر لأنه علاج فوري ، و وسيلة مستقبلية أيضا لتوزيع الثروة وتدويرها و تحريك الطاقات بها .

ولكن الكفار جمدوا الثروة ، وزعموا أنها حقهم الإلهي بل قالوا لمن أمرهم بالإنفاق:

]إن أنتم إلا في ضلال مبين[

لأنكم تريدون تغيير سنن الله ، و جعل الفقراء أغنياء ، وهم قد خلقوا فقراء.

و ترك السياق لقارىء القرآن الحكيم على هذه العقلية ، ولا ريب أنه يحكم عليها بالضلال المبين ، و لذلك احتار المفسرون في معرفة قائل هذه الكلمة ، فمنهم من قال : إنهم الكفار ، و منهم من قال : بل

هم المؤمنون قالوها للكفار ، و قال بعضهم : بل الله قالها للكفار.

و الظاهر أنها كلمة الكفار للمؤمنين ، و لكنها ترد عليهم بطبعها ، فبمجرد أن يقول المجنون للذي يأمره بالحكمة : إنك مجنون ، نعرف أن المتكلم بنفسه مجنون . أليس كذلك ؟ هكذا نعرف ضلالة الكفار بمجرد أنهم يقولون لمن يأمرهم بالانفاق : إنك في ضلال مبين ، كلا.. إنهم هم في ضلال مبين!

[48 [من التبريرات النفسية التي يتشبث بها الكفار هو استبعاد الجزاء زمانيا ، و نجد في آيات الذكر رد هذه الشبهة بكلمات بليغة نافذة ، فالجزاء ليس لعبا حتى يستخف به ، إنه الساعة التي ثقلت في السموات والأرض ، فماذا ينتظرون ؟ وبم يستهزؤون ؟

]و يقولون متى هذا الوعد [

و بالرغم من أن كلمة " متى "أصلا للإستفهام ، إلا أنها هنا جاءت للاستنكار بدليل قولهم:

]إن كنتم صادقين[

فهم كانوا يتوقعون جزاءا عاجلا بعد أن انذروا بالعذاب ، و أمروا باتقاء ما بين أيديهم من عذاب الدنيا ، و ما خلفهم من عذاب الآخرة.

[49]إن النفس البشرية لا ترى بطبعها إلا ما أمامها من الحقائق المشهودة ،ولا تتأثر بالمستقبل البعيد حتى ولو كان من الحقائق المعلومة يقينا ، و بضغط من الشهوات العاجلة ، و بوساوس إبليس تعرض النفس عن الغيب للشهود ، و عن المستقبل للحاضر ، ولابد من تصوير الغيب ، و إبراز مشاهد من المستقبل حتى تهتم النفس بها ، و لعل منهج القرآن في تصوير مشاهد البعث و الجزاء باستثارة قوة الظن و الخيال يتم لهذه الغاية ، فهو ليس مجرد إسلوب في البيان ، بل هو منهج علمي لإصلاح النفس ، وإيجاد التوازن بين قوة الشهود و حقائق الغيب ، و إنما المؤمنون الذين يستشرفون المستقبل ، و ينظرون الى الغيب بقوة الظن ، و يستثيرون كوامن الخوف و الرجاء بالتذكرة الذاتية.

و السياق هنا يصور جانبا من مشاهد الهلاك ثم النشور و الجنة و النار.

]ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون[

إنهم يستعجلون العذاب ، و يقولون : متى هذا الوعد ؟ بلى . ولكنهم ينتظرون بذلك أمرا عظيما ، إذا جاء لا يمكن رده أو تأجيله ، فإنما هو صيحة واحدة لا ثانية لها ، لأنها القاضية ، و هي تعمهم بالأخذ بغتة في وقت تراه يخوضون في جدلياتهم التي لا تغني شيئا.

والإنسان يتمنى - عادة - لو يغير الحقائق بالجدل ، زاعما أنه لو نفى شيئا فإنه ينتفي أو أنه لو أسكت صاحب الحق فإن الحق يزول ، كلا .. فحتى في حالة جدالهم وخصامهم تأخذهم الصيحة.

[50]و المباغتة سريعة الى درجة أنها تمنعهم من أن يخلفوا وصيتهم ، بالرغم من أنهم لا يعودون الى أهلهم فهم أحوج ما يكونون الى التوصية.

]فلا يستطيعون توصية[

بأي شكل كانت التوصية قولا أو إشارة ، وإذ لا يستطيعون حتى التوصية وهي أسهل الأشياء ، و أشدها ضرورة ، فهم لا يستطيعون - بالطبع - إصلاح ما أفسدوه من واقعهم!

]ولا إلى أهلهم يرجعون[

فهم ليسوا على سفر سرعان ما يعودون منه حتى لا يحتاجوا الى وصية.

و يبدو أن الآيات تصور مشهد العذاب الدنيوي المتمثل في الهلاك بالصيحة ، مثل ما أصاب الذين كذبوا بالمرسلين الثلاثة في القصة الماضية.

"و قال البعض : إنها تصور قيام الساعة .. و الساعة أدهى و أمر ، و جاء في الحديث عن الرسول - صلى الله عليه و آله: -

"تقوم الساعة و الرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم ، و الرجل يرفع أكلته الى فيه ، فما تصل الى فيه حتى تقوم ! والرجل يليط حوضه (1)ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم " (٢)و لعل الحديث القرآني يشمل الجزاء بصفة عامة في الدنيا بعذاب الاستئصال أو في الآخرة عند قيام الساعة .

[51]و يمكث الكفار في قبورهم ما شاء الله حتى ينفخ في الصور الملك الكريم إسرافيل ، و بمجرد النفخ تراهم يسرعون الى ربهم حيث وضع الميزان العادل.

]و نفخ في الصور فإذا هم من الاجداث إلى ربهم ينسلون](١) يسوي حوضه بالطين حتى لا يتسرب منه الماء.

(2)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٨٨.

و نجد في بعض الآيات أنهم عند النفخ قيام ينظرون ، بلى . فهم قيام في لحظة ، ولكن سرعان ما يتحركون حيث يريد الله.

و نقل عن الراغب في مفرادته : إن النسل في الأصل الانفصال ، و إنما سمي ولد الإنسان نسلا لأنه ينفصل عنه . و لعلنا نستوحي من هذا أن القبر يضحى كرحم الأم ينسل منه أبناء آدم نسلا.

[52]و هنالك يعترف هذا الإنسان الخصيم الذي استهزأ بكل المرسلين ، و أعرض عن كل الآيات ، و ينادي بالويل لنفسه ، و يزعم أنه كان نائما ، و يتساءل : أية قدرة استطاعت بعثه من محل نومه بعد طول الرقاد ؟!

]قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا[

و هنالك ياتيه النداء من الملائكة :

]هذا ما وعد الرحمن[

إنه الله الذي أنجز وعده ، ليرحم عباده المؤمنين ، " إن وعده كان مأتيا. "

و يمكن أن يكون القائل هم الكفار ، فيكون اعترافا منهم بوعد الله ، و يمكن ألا يكون لهذه الكلمة أساسا قائل خاص بل يكون مقتضى المقام هذا المقال ، سواءا وجد قائل أم لم يوجد.

]و صدق المرسلون[

الذين أنبأوا عن الرحمن وعده.

إن سورة يس قلب القرآن ، و هو يعبر عن ضمير الخليقة ، الذي يتمثل في رحمةالله ، و لعله لذلك تتكرر كلمة " الرحمن " فيها.

[53]بصيحة أهلك القوم جميعا ، و بصيحة ابتعثوا جميعا ، و بصيحة يحضرون في مقام الحساب عند ربهم.

]إن كانت الا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون]و يبدو أن التعبير هنا يوحي بما يوحيه قوله - سبحانه - في خاتم السورة : " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون " و لكن هذا التعبير جاء في مقام الشدة فناسب الحديث الصيحة ، و هي تدل على سرعة نفاذ امره ، و أن كل شيء مستجيب لإرادته.

[54]هنالك يتجلى العدل الإلهي الذي قامت به الخليقة جميعا ، فلا يظلم أحد شيئا ، بل حتى جزائهم إنما هو ذات أعمالهم التي تتجسد ، فإن كانت صالحة فهي الجنات و الفواكه و حور العين ، و إن كانت الأخرى فعذاب شديد.

]فاليوم لا تظلم نفس شيئا[

و الله ليس بظلام للعبيد ، لا في ذلك اليوم ولا في أي يوم ، بلى . إنه أعطى الحرية المحدودة للناس في الدنيا ليبتليهم بها فظلموا أنفسهم ، ولولا أنه جعل دار البقاء (الآخرة) و جعل فيها جزاءا وافيا للظالم و المظلوم لما سمح لأحد بظلم احد حتى في الدنيا ،لأنه ليس بظلام للعبيد ، و أساسا إننا نعرف وجود الدار الآخرة من خلال معرفتنا بأمرين : أولا : إن الله عزيز رحيم فلا يمكن أن يظلم بحضرته أحد من عباده دون أن يغيثه ، ثانيا : إنه قد يدع الظالم يوغل في ظلمه في الدنيا فنعرف أن هناك دارا أخرى يجازي فيها الظالم و ينتصر منه للمظلوم.

]ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون[

فإن كان هنالك جزاء سيء فهو أعمالكم التي تجسدت . أرأيت الذي يشرب ماءا قذرا فيمرض ، هل ظلمه الطبيب الذي نهاه و حذره من العاقبة ، أم أن مرضه هو ذات الماء القذر الذي شربه ؟

[55]أما أصحاب الجنة الذين فازوا بصحبة الجنة و امتلاكها و وراثتها في الدنيا بأعمالهم ، فهم في شغل عما يجري في الطرف الآخر عند اهل النار فلا يحزنهم شيء ماثمة ولا يفزعهم.

]إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون[

و الشغل بذاته نعمة لأنه ينشط الجسم ، و ينفس عن النفس ، إلا أن الإشتغال بما يفكه أعظم نعمة و أشد راحة.

[56]بماذا يشتغل هؤلاء في الجنة ، و كيف يقضون ساعاتهم التي لا تنتهي ، ولماذا لا يملون ..؟

يبدو أن أعظم اللذات الجسدية و الروحية الإشتغال بالأزواج المطهرة ، لأنه إنس معنوي ، و سكن روحي ، و لذة جسدية مركزة.

]هم و أزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون[

فهم في ظلال يحسون بالسكن ، و هم على الأرائك يستريحون بلا تعب ، وهم متكئون لأنه لا يشغلهم شيء يتحفزون لأدائه ، فهم في كامل الراحة ، و قد روي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - قوله (عن صفة أهل الجنة: (

" =و المؤمن ساعة مع الحوراء ، و ساعة مع الآدمية ، و ساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئا ينظر بعض المؤمنين إلى بعض " (١)[٥٧] و بعد لذة الإنس مع الأزواج في مقعد مريح تأتي لذة الطعام ، و

أفضل الطعام ما يتفكه به الفرد بعد قضاء حاجته الضرورية من الطعام ، لأن أصحاب الجنة لا يعدمــون الطعــام حتى يحسوا بالجوع و يتألموا به حينا من الوقت مثلما البشر في الدنيا.

]لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون[

فكل ما تشتهيه أنفسهم يجدونه أمامهم.

[58]و أعظم النعم جميعا نعمة الحضور عند رب الرحمة الحنان الكريم ، فأي نعمة أسمى من الجلوس عند المليك المقتدر ، و تلقي السلام القولي منه ، بالاضافة الى حالة السلام التي يعيشون فيها ، ذلك ان حالة الأمن و السكينة و السلام الفعلي هي من نعم الجسم غالبابينما السلام القولي نعمة للروح أيضا.

]سلام قولا من رب رحيم[

[59]ولا يشترك في مهرجان النعم المتنوعة أولئك المجرمون ، الذين يفصلون عن النعم ، و أي حرمان أعظم من طردهم عن مائدة الكريم حقا ؟! أي رب رحمن وأي مائدة غنية ؟! ياللخسارة الكبرى خسارتهم .

]و امتازوا اليوم أيها المجرمون[

جاء في تفسير علي بن ابراهيم حول هذه الآية:

(1)المصدر / ج ٤ / ص ٣٩٠.

"إذا جمع الله الخلق يوم القيامة ، بقوا قياما على أقدامهم حتى يلجمهم العرق ، فينادون : يا رب حاسبنا ولو إلى النار ، قال فيبعث الله عز و جل رياحا فتضرب بينهم ، و ينادي مناد : " امتازوا اليوم أيها المجرمون " فيميز بينهم ، فصار المجرمونفي النار ، و من كان في قلبه الإيمان صار إلى الجنة " (١)(١) المصدر / ص ٣٩٠.

وان اعبدوني هذا صراط مستقيم

هدى من الآيات

لقد أكد الله عهده مع بني آدم بألا يعبدوا الشيطان لأنه عدو مبين ، وأن يخلصوا عبادتهم لله رب العالمين ، ليكونوا على صراط الله المستقيم ، (و دليل عداوة الشيطان أنه :) أضل خلقا كثيرا (حتى ظهر انحرافهم و هلكوا و أمسوا عبرة لنا) و لكن الناس لم يكونوايعقلون ذلك (ثم استحقوا بعد العذاب في الدنيا النار ، و قيل لهم :) ادخلوا جهنم ، و اصلوا بنارها ، و هنالك) لا يمكنهم الجدل بل :) يختم الله على أفواههم ، و يستنطق أيديهم ، و يشهد عليهم أرجلهم بأعمالهم.

)و إن نعمة الهداية من الله كما نعمة العين و الأذن و الإحساس) ولو شاء الله لأمحى أعينهم حتى يتبادروا الى الصراط فلا يبصرونه ، او يمسخهم و هم في مكانهم حتى لا يقدرون على التقدم أو العودة.

)و شاهد آخر على أن الهدى من الله العقل الذي يسلبه الله ممن يعمر حتى يعودطفلا) فمن بلغ من العمر أرذله نكسه الله في الخلق .أفلا يعقلون ؟

)و كذلك الرسالة من الله و هي ليست شعرا) فالله لم يعلم نبيه شعرا ولا ينبغي له (فالشعر يحتوي على ثقافة باطلة و غامضة ، و هي تبرير و تكريس للواقع الفاسد ، بينما الكتاب بخلاف ذلك كله) فما جاء الرسول إلا بالذكر (الذي تصدقه الفطرة و العقل) و قرآن مبين (و اضح لا غموض فيه) وهو نذير لمن كان له قلب حي (فهو تحد للفساد و الطغيان) وهو بالتالي حجة على الكافرين.

بينات من الآيات

[60]حينما نشر الله ذرية آدم في صورة (ذر) و قال لهم : ألست بربكم ؟ فقالوا : بلى ، أخذ منهم عهدا بعبادته ، و رفض الأنداد من دونه.

و هكذا عندما فطرهم على معرفته ، و أودع ضمائرهم عقولا تهديهم الى ربهم.

ثم بعد ذلك بعث اليهم رسله منذرين و مبشرين ، يستأدونهم ميثاقه ، و يستثيرون عقولهم بالتذكرة به سبحانه ، و كان في ذلك عهد الله الى بني آدم بعبادته ، و ترك عبادة الشيطان ، و لكن هل يمكن أن تجتمع عبادة الله مع عبادة الشيطان ؟

كلا .. فلابد من رفض الشيطان لتتم عبادة الرحمن.

]ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان]أين هو الشيطان ؟ إنه يجري مع ابن آدم مجرى الدم و لكن القلب ينتبه بإذن الله و بما ألهمه الرب من فجوره و تقواه الى وجوده و يميز وسواس الشيطان عن وحي العقل.

و عندما يعقد الإنسان العزم على محاربة الشيطان يتميز في قلبه أكثر فإكثر نداء الغواية عن فطرة الهداية.

ثم يأتيه الوحي عبر رسل الله ورسالاته لتتم الحجة عليه ، فإذا بنداء الرحمن في قلبه يلتقي بندائه على لسان النبي و كتاب الله الذي أرسل به.

و هكذا يمتلك كل شخص مقياسين لمعرفة الشيطان . الاول : ما بقلبه من العقل ، و الثاني : ما أوحي به الرسل.

]إنه لكم عدو مبين[

يسعى الشيطان لخداع البشر بأنه صديقه ، و أن ما يشير إليه من الضلالة محض نصيحة ، و قد يسترسل البعض معه بحجة أنهم خدعوا به ، و لكن ربنا يقول : إنه عدو واضح ، ولا عذر لأحد في اتباع عدوه ، إلا إذا خدع نفسه ، و سر عداوته أنه يأمر بما يعلم الإنسان أنه مضر.

أولا يأمر بالإسراف و التبذير ، و بالفحشاء و المنكر ، و بالإعتداء و الظلم و البغي ، مما يستقبحه البشر ؟ !لا أقل عندما يصدر من الآخرين ، و مما يرفض أي عاقل نسبته إليه.

كلنا نعرف أن مآسي البشرية آتية من الظلم و العدوان و الاستئثار و البخل و الكسل و الإختلاف ، و نحن جميعا نعرف أن ذلك هو من وحي الشيطان ، أفلا نتخذه عدوا ؟!

وعبادة الشيطان لا تعني السجود له ، إنما طاعته بوعي ، والتسليم التام لإغوائه.

و تتجسد عبادة الشيطان في طاعة أوليائه من سلاطين الجور ، و طغاة السلطة و الثروة.

و يقول الفخر الرازي في قوله : " لا تعبدوا الشيطان " معناه : لا تطيعوه ، بدليل أن المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب بل الإنقياد لإمره و الطاعة له ، فالطاعة عبادة ، لا يقال : فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى: " أطيعوا الله و أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " لأنا نقول : طاعتهم إذا كانت بأمر الله لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له ، و أضاف : و إنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه . (١ [61](رفض عبادة الشيطان تهيء لعبادة الله ، بل مجرد الكفر بالأنداد عبادة الله ، كما أن من ضيع عبادة الرحمن وقع في شرك الشيطان ، لذلك قارنت الآيات بين رفض هذه و الإلتزام بتلك ، كقوله سبحانه : " فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى " (٢(

و هنا يقول ربنا:

]و أن اعبدوني هذا صراط مستقيم[

و استقامة الصراط نابعة من أن الله الذي رسمه لنا تعالى عن الميول التي تضلل البشر يمنة و يسارا ، و عن الجهل الذي يتطرف صاحبه ناحية الإفراط أو التفريط.

و من أبرز مظاهر الإستقامة في الصراط أن المؤمنين يؤيدون على السير فيه ، متحدين ضغوط الهوى و الشهوة و السلطة و الثروة و التزييف و التلبيس بإذن ربهم.

(1)التفسير الكبير للفخر الرازي / ج ٢٦ /ص ٩٦.

(2)البقرة / ٢٥٦ . المصدر

و لعل الفرق بين القويم و المستقيم يكمن في أن المستقيم يوحي بأن صاحبه يستقيم عليه متحديا عوامل الإنحراف.

و عبادة الله تعني طاعته ، و طاعته لا تتجزأ ، فمن صلى دون أن يؤتي الزكاة ، أو خضع للإسلام في شؤونه الشخصية دون نظامه الإقتصادي و السياسي ، فإنه لا يعبد الله ، بل إنه يعبد الشيطان.

إن جذر الشرك بالله هو الإستسلام أمام الضغط أنى كان مصدره ، وهذا يخص فقط موارد الضغط ، و إنما المؤمن الذي يتحدى الضغط ، أما من جعل القرآن عضين فقال : نؤمن ببعض و نكفر ببعض ، وأراد أن يؤمن فقط بما يتفق و مصالحه ، و أما عندما تضرب مصالحه يذهب معها فإنه بالذات الذي يحاربه القرآن.

فالقرآن لا يواجه إلا قليلا أولئك الذين يكفرون بالدين رأسا ، و إنما يحادد في الأكثر أولئك الذين يشركون بالله ، فيخضعون لشهواتهم و سلاطينهم والمترفين ، و يخدعون أنفسهم بعبادة الله فيما لا تتنافى و مصالحهم و شهواتهم و كبرائهم.

[62]عندما يتعظ المرء بتجارب غيره يهتدي الى الطريق ، وإنما ينتفع بها من يعقلها و يجعلها و سيلة لإثارة دفائن عقله ، و كوامن فطرته.

و إن من أظهر الحقائق التي يعقلها من شاء الهدى هي : أن بعض الناس في ضلال ، فأنى ذهبت ، و أي شخص سألت ، قال لك : إن بعض الناس على خطأ ، و لكن لا تقودهم هذه الحقيقة الى معرفة حقيقتين اخريين هما : أولا : إنه كما أضل الشيطان كثيرا من الناس كذلك يضلنا فلنحذر منه ، و ثانيا : ماذا كانت عاقبة الضالين . أوليس الهلاك ؟! فلماذا لا نعتبر بذلك ؟!

]و لقد أضل منكم جبلا كثيرا[

فإذا كان الشيطان قد نجح في إضلال خلق كثير منكم فلماذا لا يحذر منه ؟!

]أفلم تكونوا تعقلون[

فهذا فريق أضله الشيطان ، و هداه الى سبيل البوار ، و أهلكه أمام أعينكم ، ثم لم يصبح عبرة لفريق آخر ، و هكذا استمر الشيطان يضل منكم فئاما بعد فئام ، دون أن يعقل اللاحقون ، و يعتبروا بمصير الغابرين.

بينما كان مقتضى وجود العقل عند البشر هو أن يستفيد منه في تحديد طريق النجاة ، و تجنب سبل الهلاك.

و من أبرز ما يستفيد العاقل من مصير الغابرين كيفية إضلال الشيطان لهم ، ذلك أن الشيطان ليس خلقا غريبا يقتحم عليك بيتك حتى تتحذر منه ، كلا .. إنه في عروقك ، في أعماق فؤادك ، في أقرب الأصدقاء إليك ، في زوجك و أخيك ، في تربية أمك وأبيك ، في كلمات معلمك، و حتى في توجيهات من نصب نفسه عالم دين ، و أولئك الذين هلكوا جاءهم الشيطان من بين أيديهم ومن خلفهم و عن أيمانهم و شمائلهم ، و شبه لهم ، و زين لهم ، و برر لهم بوسائل شتى ، فإذا أردنا أن نمنعه فلابد أن نكون في أقصى الحذر و العقل.

[63]إننا رأينا هلاك الغابرين ولا تزال آيات دمارهم مكتوبة على آثارهم ، و محفورة في أفئدة الأجيال ، و لكن الأدهى من هلاكهم النار التي وردوها.

]هذه جهنم التي كنتم توعدون[

[64]إنهم سوف يدخلونها ، و يصطلون بنارها بسبب كفرهم.

]اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون[

[65]إنهم كانوا يبررون كفرهم بأعذار واهية ، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، و يزعمون أن جدالهم يغني عنهم شيئا ، و لكن في ذلك اليوم الرهيب لا يسمح لهم بالكلام ، و إنما تنطق عليهم جوارحهم بدل ألسنتهم.

]اليوم نختم على أفواههم[

فلا يعتذرون ولا يجادلون.

]و تكلمنا أيديهم و تشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون]فالأيدي و الأرجل تشهد بأعمالهم ، فلا سبيل إذا الى الإنكار أو الإعتذار أو حتى الى الجدال.

و لعل الشهادة هنا تصويرية . أو لسنا قد أكتشفنا - بما أوتينا من علم قليل - كيف نستنطق أصابع اليد لنعرف المجرمين بطبع الإبهام ؟ أو لم نبتدع جهاز كشف الكذب المعتمد على نبضات القلب ؟ أولم نهتدي الى مرتكبي الجرائم بآثارهم الخفية ؟ ولا ريب أنه كما تنعكسالأعمال على الطبيعة ، تنعكس آثارها على الجوارح ذاتها ، بيد أنا لما نكتشف وسيلة لمعرفة أبعادها.

و لكن الرب - سحانه - يظهر الخفايا في ذلك اليوم الرهيب ، فيرى الإنسان شريطا مسجلا على يده و رجله يعرض صورا ناطقة بكل ما جرى.

[66]كيف يستنطق الرب الأيدي والأرجل في ذلك اليوم ؟ لنعد الى هذه الحياة و نتساءل : من ذا الذي رزقنا الجوارح أوليس الله ؟! فهو القادر على أن يجعل الأيدي تنطق كما جعلها هنا تبطش.

و لعل هذه هي المناسبة لتذكرة السياق بنعمة البصر و الإحساس و العقل فيالآيات الثلاث التالية ، و هي في ذات الوقت تمهيد لبيان نعمة الهداية ، فالله الذي آتانا نعمة العين ولو شاء لطمسها ، و الذ ي رزقنا سائر النعم التي نهتدي بها من سمع و لمس و ذوق و ما أشبه ولو شاء لمسخهم على مكانتهم فلا يتقدمون ، فلا يستطيعون مضيا الى الأمام ولا عودة الى الوراء ، و الذي أعاد البشر الى حالة الضعف عندما يعمره طويلا ، هو الذي أرسل الى الناس من يهديهم الى صراط العزيز الرحيم.

]و لو نشاء لطمسنا على أعينهم[

أرأيت كيف تمسح الكف حفنة من الرمل حتى لا تبقي لها أثرا على البسيطة ؟ كذلك لو شاء الرب لمسح على الأعين حتى لا يبقي لها أثرا على الوجه.

]فاستبقوا الصراط[

فإذا هم يتبادرون الى الطرق لعلهم يهتدون الى سبيلهم.

]فأنى يبصرون[

ربما تشير الآية الى أن الذي يفقد عينه يحس بعقدة الضلالة ، فيبادر لمعرفة الصراط ، و تلمس الطريق ، لأنه يخشى الإنحراف عنه و الوقوع في المهالك ، و لكن دون جدوى إذ لا يملك ما يرى به طريقه.

و قال البعض : إن الإستباق هو تجاو الطريق و الإنحراف عنه ، بينما قال آخرون : إنه التدافع على الطريق شأن العميان الذين يتزاحمون على الطريق لعدم رؤية بعضهم.

و أنى كان فإن المبادرة و التسابق لا يجديانهم نفعا ، لأنهم فقدوا وسيلة الرؤيةوهي الأعين.

و هكذا من لم يرزقه الله الهدى فإنه لا يجد من يهديه سبيلا حتى لو بادر الصراط و تدافع عليه.

[67]أعظم النعم في مجال التحرك العين ، و لكن هناك نعم أخرى كاللمس و الشم والإحساس يتوسل اليها فاقد البصر ، و لكن من الذي أسبغ هذه النعم ؟ أوليس الله ؟! ولو شاء لسلبها ، و جعل الإنسان مسخا جامدا على مقامه كالحجر.

]ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم[

فإذا بهم كالأحجار.

]فما استطاعوا مضيا[

نحو الأمام.

]ولا يرجعون[

إلى الخلف ، و بماذا يتقدم الإنسان أو يتأخر ؟ أليس بالسمع و الإحساس ؟! فإذا فقدها جميعا فهو أضعف من أحقر حشرة.

[68]إذا فقد الشخص بصره لم يهتد الى طريقه ، و إذا فقد سائر الجوارح لا يستطيع مضيا ولا عودة ، و لكنه يبقى يمتلك العقل ، بيد أن العقل بدوره موهبة إلهية إن شاء وأراد الله سلبها ، و فعلا إنه يسلبها عندما يبلغ الإنسان أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئا.

]ومن نعمره ننكسه في الخلق[

فبدل أن ينمو و يتكامل باستمرار تراه يبلغ قمة رشده البدني و العقلي في حدود الأربعين ، و لا يلبث أن يسير القهقرى ، لأن خلايا المخ التي تنتشر في أطراف الجسد في صورة أعصاب ، و تقوم بالدور الرئيسي في بناء الجسم ، إنها تستهلك مع الزمن ولا تعوض أبدا ، و يقول العلم : إذا بلغ المرء الثمانين من عمره فقد نصف خلايا مخه.

و التنكيس الذي يصيب البشر يشمل الجوانب المادية ، كطريقة مشيه و وقوفه و فقد أسنانه و ضعف

قواه ، كما يطال الجوانب المعنوية ، فهو يفقد قدراته العلمية و خصائصه النفسية فتراه يرجع طفلا يحرص على ما يخصه ، و يعض بنواجذه على حياة ، و يضحى خائفا يلاحقه هاجسالزائر المخيف الذي قد يدخل عليه في أية لحظة وبلا استئذان ألا وهو الموت.

]أفلا يعقلون[

ليذعنوا لله الذي أسبغ عليهم تلك النعم الآن ، و يسلبها منهم عند الشيخوخة.

[69]و الله الذي أعطانا جوارح لنهتدي بها في حياتنا من سمع و بصر و عقل هو الذي أنزل الكتاب ليهدينا به الى الصراط المستقيم.

و نحن بحاجة إليه ، ولا يمكننا الاستغناء عنه بالثقافات الموجودة لدينا التي هي أِقرب الى الشعر منه الى بيان الحقائق.

بينما القرآن جاء ذكرا و بيانا و إنذارا و تبشيرا.

]وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر و قرءان مبين]ذلك أن الشعر يتميز بالخصائص التالية:

أولا : يعكـس ثقافة المجتمع السائدة و يسير بها دون أن ينتقدها أو يثور عليها.

ثانيا : يكرس الواقع الفاسد بتبريره و تلميع رموزه و ستر اخطائه.

ثالثا : يخدر الإنسان و يرضيه بوضعه بإثارة مشاعره الجاهلية من الفخر و العصبية والإعتزاز بالإثم.

و بكلمة إذا كان للإنسان بعدان : بعد جاهلي يعكس شهواته و أمنياته و نوازع الشر عنده ، و بعد رسالي يعكس عقله و عواطف الخير فيه ، فإن الشعر إفراز للبعد الجاهلي و تكريس له ، سواء عبر عنه بقصائد موزونة و منسقة أو بتعابير نثرية و عادية ، و لكن بما أن الباطل مرفوض عند البشر بذاته فإن أصحاب الثقافة الجاهلية يزينونها للناس تارة بأنغام الشعر ، و أخرى بأنواع البديع و البلاغة.

بينما الحق ليس بحاجة الى كل ذلك ، و إن كان الإدب الرفيع و الحلة القشيبة ، و البلاغة النافذة يزيدها جمالا و بهاء ، إلا أن قدرته ليست في حلته إنما في محتواه ، بينما قدرة الثقافة الجاهلية في التعبير عنها ، و لذلك سمي شعرا ، إشارة إلى أنه لولا وزنه و قافيته و التشبيهات الخيالية فيه لا يعتني به أحد ، حتى قالوا : الشعر أعذبه أكذبه.

و هكذا جاء في الحديث في تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء : " و الشعراء يتبعهم الغاوون " قال:

"نزلت في الذين غيروا دين الله ، و خالفوا أمر الله عز وجل . هل شاعرا قط يتبعه أحد ؟ إنما عنى بذلك الذين وضعوا دينهم بآرائهم فيتبعهم الناس علىذلك " (١(

و في رواية مأثورة عن أبي جعفر الباقر (ع) في تفسير ذات الآية قال:

"هل رأيت شاعرا يتبعه أحد ؟ إنما هم قوم تفقهوا لغير الدين فضلوا و أضلوا(2) " هذا عن الثقافة الجاهلية أما عن رسالات الله فإنها تتميز بما يلي:

أولا :إنها تذكرة ، فهي إثارة للعقل ، و إيقاظ للضمير ، و تحريض للفكر ، و أبلغ حجة لصدقها أنها تتوافق و عقل الإنسان و ما أودعه الله فيه من فطرة التوحيد.

ثانيا : إنها بلاغ مبين ، فليس فيه لف و دوران ، و تعابير غامضة ، و كلمات جوفاء ، و تشبيهات خيالية ، إنما بيان للحقائق بوضوح شديد.

ثالثا : إنها تنذر بالأخطار التي تهدد الفرد و المجتمع ، فهي تفجر الطاقة بدل أن تخدرها ، و تنتقد الواقع الفاسد بدل أن تبرره ، و تواجه الإنحراف و الضلال ، و تتحدى الظلم و الطغيان.

و الرسول الذي حمل مشعل الهداية ، و تحدى قوى الكفر و الضلال ، و أعلن منذ البدء أنه النذير المبين ، و الذي جانب و منذ صباه اللهو و العبث ، و اتسمت حياته الرسالية بأقصى درجات الصراع ضد الباطل ، و الإجتهاد في إبلاغ الدعوة ، و الجهاد و القتال في سبيل إعلاء كلمة الله ، إنه لا تتناسب حياته و الشعر (تلك الثقافة الجاهلية) فكل شيء في حياته مناقض للشعر ، لذلك قال ربنا عنه : " وما ينبغي له. "

(1)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٧٠ نقلا عن تفسير علي بن ابراهيم.

(2)المصدر.

و لذلك فقد ترك الرسول حتى هذا الشعر المعروف و الكلام المقفى ، لأنه أضحى لباسا للفكر الجاهلي يومئذ ، و كان إذا قرأ شيئا منه غيره بما يتناسب و الحقيقة ، و لكن ذلك لا يعني أن الرسول كان مخالفا أساسا للوزن و القافية ، كلا .. بل نجده يشجع بعض أصحابه علىذلك تشجيعا كبيرا.

[70]بلى . الرسول منذر يصدع بالحق ، و يقاوم أهل الباطل ، و يتحدى الثقافة الجاهلية.

]لينذر من كان حيا[

فهو النذير المبين لمن كان في قلبه إحساس بتقبل الإنذار.

أما بالنسبة الى غيرهم فإن الكتاب حجة بالغة عليهم تمهد لإنزال العقاب عليهم.

]و يحق القول على الكافرين[

وهم الذين لا حياة لقلوبهم ، و لكن لا يعني ذلك أن الله أجبرهم على الكفر ، كلا .. بل هم الذين كفروا ففقدوا حياة الإيمان فلم يستجيبوا للنذر.

قال من يحيي العظام وهي رميم

هدى من الآيات

تنبض سورة يس بالحقائق الكبرى التي تذكر بها آيات الذكر في نسق بديع . أو ليست هي قلب القرآن الحكيم و محور الحديث فيها الرسالة ، و لكن الرسالة تتصل بحقيقة البعث ، لأنها تذكر به ، و لأن الرسالة دليل المسؤولية ، و تتجلى مسؤولية الإنسان في الآخرة.

و في الدرس الأخير من سورة يس تذكرنا الآيات بهذه الحقيقة عبر بيان شواهد تدبير الله لحياة البشر.

بينات من الآيات

[71]ظواهر كثيرة نتعامل معها يوميا ، و لكن دون أن نتبصر ما وراءها من حقائق ، و أعظمها نعم الله السابغة التي تهدينا الى حبه و شكره و معرفة أسمائه الحسنى ، و من أبرزها قدرته و حكمته ، و هما إسمان كريمان يدلان على يوم البعث.

من تلك الظواهر امتلاك ناصية الأنعام ، فلقد خلقها الله بيد قدرته خلقا ، ثم أودع فيها منافع شتى ، و سخرها للإنسان ، و لو شاء لجعلها وحشية صعبة المراس ، كما جعل في البشر حب التملك و قدرة التملك . أرأيت لو لم يكن البشر يحب السيطرة هل كان يسخر شيئا مماحوله ؟!

]أولم يروا[

هذه الظاهرة المتكررة التي يمرون عليها دون أن يتفكروا فيها ، و إذ هم لا يتفكرون فكأنهم لا يرون شيئا.

]أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا[

والله لم يخلق الأنعام خلقا مباشرا ، بأن يقول لها : كوني فكانت ، إنما خلقها عبر شبكة من الأنظمة و السنن لا تحصى عددا ، و لعل قوله تعالى : " مما عملت أيدينا " إشارة الى هذه الحقيقة التي تجعلنا أكثر امتنانا لبارئنا ، و أكثر وعيا بقدرة ربنا وحكمته ، و بالتالي بيوم الجزاء الأوفى.

]أنعاما فهم لها مالكون[

فهم الآن يملكون تلك الأنعام فعلا ، و يسيطرون عليها ويسخرونها لمنافعهم.

[72]تكاملية نعم الله دليل علمه و قدرته . إنك تجد الإبل - مثلا - يقوم بذات الحاجات المتنوعة التي يعيشها البشر ، فهو يحمله مسافات شاسعة دون كلل . أرأيته كيف يقطع الربع الخالي في الجزيرة العربية معتمدا على ما فيه من اشواك حادة و ماء قليل ؟! أرايته كيف يتحمل وعثاء السفر و العواصف الرملية الهوج ، و يجري في الرمال المتحركة كما تجري السفن بين الأمواج ؟ !وفي ذات الوقت تراهيسقي الإنسان لبنا سائغا ، و إذا اشتهى لحما نحره و استفاد منه ، و فيه بعد كل ذلك جمال و عزة ، و كما الإبل سائر نعم الله.

]و ذللناها لهم فمنها ركوبهم و منها يأكلون[

[73]و تجد في أوبارها و أشعارها وجلودها متاعا و لباسا و بيوتا خفيفة.

]و لهم فيها منافع و مشارب[

و الهدف الأسمى من نعم الله ليس مجرد الإنتفاع بها ولكنه التسامي الروحي الى معرفة الرب وشكره.

]أفلا يشكرون[

[74]و البشر يبحث عن قوة ، و لقد أودع في ضميره الإحساس بالضعف الذي يهديه -إن أحسن التفكر - الى ربه ، و لكن الشيطان يغويه عن السبيل القويم ، و يوحي إليه أن القوة عند الآلهة التي تعبد من دون الله.

]و اتخذوا من دون الله ءالهة لعلهم ينصرون[

فهم يعبدون القوة السياسية و القوة الإقتصادية والوطن و العشيرة و الحزب و الشمس و القمر والنجوم و الإحجار التي ترمز إليها ، و يبتغون عندهم القدرة عند الصراع ، لعلهم ينصرونهم أمام القوى المعادية.

هكذا بينت الآية الكريمة خلفية الشرك بالله ، وهي البحث عن قوة تنصرهم في مواجهة الطبيعة أوالأعداء.

[75]و لكن من ينصر من ؟ هل الآلهة تنصرهم أم هم ينصرونها ؟

]لا يستطيعون نصرهم[

يقول ربنا بصراحة بالغة ، ولو لم يكن في القرآن إعجاز إلا هذه الآية لكانت شاهدة صدق على أنه من عند الله ، إذ يزعم الناس - إلا قليل ممن هداهم الله -أن الطاغوت أو أولي الثروة و الجاه و العشيرة ينصرون من يشرك بهم ، بينما يؤكد ربنا أن العكس هو الصحيح ،و عندما نتفكر جيدا نعرف أن الآلهة هم

الذين يتبعونهم ، فمن الطاغوت لولا اتباعه الذين استسلموا له رغبا و رهبا أو ضلالة ؟ الأثرياء فظلمهم و استضعافهم إنما بسكوت الناس عنهم أو طمعهم في أموالهم و هكذا العشيرة و الوطن و الحزب.

]و هم لهم جند محضرون[

و لعل هذا التعبير يوحي بأن قوة الآلهة هي مجموع قوة التابعين ، فهم رمز التجمع لا أكثر ولا أقل.

وقال المفسرون : إنما عنى الله بذلك يوم القيامة حيث يصطف المشركون خلف آلهتهم المزعومة و يساقون الى النار زمرا ، ولا ريب أن الامر لكذلك ، ولكن - يبدو لي - أن الآية تشمل الدنيا أيضا ، إذ المشركون هم أنصارها هنا ، و في الآخرة تتجلى هذه الحقيقة أكثر فأكثر ، قال ربنا سبحانه : " واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدا (1) "و كلمة أخيرة : إن العوامل المؤثرة في حياة البشر ليست جميعا ظاهرة بل هي عوامل غيبية ، وحتى العوامل الظاهرة كالسياسة والإقتصاد وماأشبه فهي -لو أمعنا النظر - تتصل بعوامل غيبية ، و بالتالي لا تستطيع القوى المعبودة من دون الله(١) مريم / ٨١ - ٨٢.

أن تؤثر فيها شيئا ، ثم إن قوتها الموهوبة محدودة بعالم الدنيا ، وهي وبال في العالم الثاني . إن الغباء يبلغ مداه حين يتخذ الإنسان نظيره الانسان إلها من دون رب العزة لينصره أمام سنن الله و قدره و قضائه ، و لكن هذا الغباء هو بالضبط ما يركبه الإنسان إلامن عصمه الله ، فإغلب الناس يشركون بربهم ، و يعبدون بنسبة معينة آلهة القوة و الثروة و الجاه ، فيفقدون بذات النسبة قوتهم التي وهبها الله لهم لمصلحة تلك الآلهة ، و هم يزعمون أنهم يكتسبون منها قوة و منعة وعزا.

كما أنهم بشركهم يفقدون نصر الله لهم ، ولو أنهم توكلواعلى الله ، و توجهوا تلقاء نعمه التي أسبغها عليهم ظاهرة وباطنة ، و فجروا طاقاتهم التي لا تحد ، و استخرجوا من أنفسهم كنوزها التي لا تنفد ، إذا حققوا المزيد من تطلعاتهم بتأييد ربهم و تسديده.

و لعمري هذا سر العظمة ومفتاح الفلاح لو كانوا يعقلون.

[76]وحين يتخلص الإنسان من حجاب الشرك يتهيأ نفسيا ومن ثم عقليا لتقبل المسؤولية ، لأن أعظم دافع للبشر نحو الشرك الهروب منها ، و التخلص من جزاء أعماله حسب زعمه ، و هكذا يذكرنا السياق بيوم الجزاء الأوفى بعد أن يرفع شبهة المجادلين فيه ، القائلة : كيفيحيي الله الموتى ؟ إن هذه الشبهة آتية من نسيان الخلق ، و عظمته التي تدل على عظمة الخالق ، أما إذا تذكرناه فإن الشبهة تتلاشى.

و يبدأ الحديث ببيان أن كلامهم الجدلي يجب أن لا يحزن أًصحاب الرسالة ، لأنه محفوظ عند الله ، يعلم الله خباياه كما يعلم ظاهره ، فلا ينبغي أن يقربه ويؤخذ مأخذ الجد.

]فلا يحزنك قولهم[

و يبدو ان الحزن بالكلام قد يجر الى التنازل لهم تحت ضغطه فلذلك نهي عنه.

]إنا نعلم ما يسرون[

من نيات مغايرة للكلام حيث أنهم يعلمون أنهم كاذبون و إنما يتكلمون جدلا.

]وما يعلنون[

فيسجل عليهم للجزاء.

[77]ثم يعرف ربنا أكبر شبهاتهم التي تشكك بقدرته - تعالى - و يقول:

]أولم ير الانسان[

قالوا :إن الرؤية هنا تعني العلم ، أي أولم يعرف الإنسان ، و نقول : نعم . و لكن مثل هذا العلم لا يحتاج الى أكثر من نظر ، و نحن لم نشهد خلق أنفسنا ، ولكنا شهدنا كيف خلق نظراؤنا من الناس حتى لكأننا شهدنا خلق أنفسنا.

]أنا خلقناه من نطفة[

هذا الماء المهين هذا ما نراه ، إما ما نعلم فإن الخلق تم بجزء بسيط جدا من هذه القطرة الدافقة من الماء . انها الخلية المتناهية في الصغر من ماء الرجل وماء المرأة.

و بعد أن خلق من الماء المهين رباه الله من خلق لخلق ، و من طور لطور ، ومن مرحلة لأخرى حتى سواه رجلا ناطقا.

]فإذا هو خصيم مبين[

و قد بلغ به الكمال مداه حتى اغتر به ، و أخذ يجادل - و بوضوح تام - خالقه و رازقه!

[78]و من مظاهر جدلهم الباطل أن الواحد منهم ياتي بقطعة عظم بالية ، و يسعى الى رسول الله ، و يزعم أنه سوف يخصمه به.

]و ضرب لنا مثلا[

يبدو أن المثل هو الواقعة التي يستشهد بها على فكرة أو حقيقة ، و إنما يقال ضربه لأنه يشبه غيره و الضرب هو الشبيه.

]و نسي خلقه[

ولو لم ينسه خلقه لما ضربه مثلا . أفلم ير أنه قد خلق من غير مثال يحتذى ؟! فكيف يستبعد قدرة الله على الخلق ؟!

]قال من يحيي العظام وهي رميم[

لقد جاء أبي بن خلف الجمحي معه عظم نخر ففركه ثم قال : يا محمد من يحيي العظام وهي رميم ؟! فأنطق الله محمدا بمحكم آياته و بهته ببرهان نبوته قال : " قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم " فانصرف مبهوتا.

[79]لقد كانت إزالة الشبهة قد بدأت مع بداية هذه المجموعة من الآيات حيث مهد الله لها بالنهي عن الحزن لما يقولونه لأنه بعلم الله ، ثم ذكر الانسان بأصل خلقه من النطفة مشيرا الى تلك البداية البسيطة التي يراها الإنسان ، ثم نوه بذلك مرة أخرى حين قال : ونسي خلقه ، ثم قال:

]قل يحييها الذي أنشأها أول مرة[

هنالك أنشأها إنشاء وابتدعها ابتداعا من غير مثال يحتذى ، ولا أدوات تستخدم ، ولا أنصار و شركاء يساهمون . إن تذكر هذه الحقيقة تذهب أي شك في قدرة البارىء في ذلك ، بلى . يبقى تساؤل قد يلقيه الشيطان في قلب الإنسان الذي يسعى بدوره للتخلص من ثقل المسؤولية و هاجس الجزاء ، و التساؤل هو : كيف يجمع الله الأجزاء المتناثرة في أقطار الأرض حول هذا البدن ؟

فيقول ربنا وهو يشير الى تنوع خلق الله ، الذي يهدينا الى علمه المحيط:

]و هو بكل خلق عليم[

فأنى ألقيت بصرك و ادرت بصيرتك رأيت خلقا عجبا ، حسن التقدير ، جميل الظاهر ، متين الصنع ، متناسبا مع هدفه ، متناغما مع نظائره ، ثم رأيت من أنواع الأحياء ، و ألوان النباتات و مختلف المعادن ، و صنوف الجمادات ، مالا يدع عندك شبهة في سعة قدرة بارئها ، ومحيط علمه و قديم خبره ، فكيف يشك في إمكانية إعادة الخلق ؟!

جاء رجل الى الإمام الصادق (ع) وقال منكرا للبعث : وأنى له بالبعث و البدن قد بلي ، و الأعضاء قد تفرقت ، فعضو ببلدة يأكله سباعها ، و عضو بأخرى تمزقه هوامها ، و عضو قد صار ترابا يبنى به مع الطين في حائط ؟!

قال الإمام مجيبا:

"إن الذي أنشأه من غير شيء ، و صوره على غير مثال كان سبق إليه ، قادر أن يعيده كما بدأه.

قال : أوضح لي ذلك ؟

=قال : إن الروح مقيمة في مكانها ، روح المحسن في ضياء و فسحة ، و روح المسيء في ضيق وظلمة ، و البدن يصير ترابا كما منه خلق ، و ما تقذف به السباع و الهوام من أجوافها ، فما أكلته و مزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ، و يعلم عدد الأشياء و وزنها ، و إن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب ، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور ، فتربوا الأرض ، ثم يمخض مخض السقاء ، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء و الزبد من اللبن إذا مخض ، فيتجمع ترابكل قالب الى قالبه فينقل بإذن الله تعالى القادر الى حيث الروح ، فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها ، و تلج الروح فيها ، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئا " (١)و لعل إشارة القرآن الى بداية الخلقة توحي بنظرية تقول : إن الخلية الأولى التي تلاقحت في الرحم تبقى على حياتها ثم تنمو في رحم الأرض كما نمت أولا في بطن الأم ، و لكن الحديث المذكور آنفا صريح في أن ذرات البدن المتناثرة في الأرض تلتحق به أنى كانت عن طريق المخض ، و لنا أن نشبه ذلك بقطعة مغناطيس إذا حركت في تراب مخلوط بذرات الحديد . كيف تجتمع عليها تلك الذرات ؟!

[80]ثم يمضي السياق قبلا في أن البعث حق ، و يضرب مثلا من الشجر الأخضر الذي جعل الله للناس منه نارا و وقودا ، و يقول:

]الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فأذا أنتم منه توقدون](١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٩٥.

و يقف الإنسان حائرا : لماذا ضرب الله مثلا بالشجر الأخضر ، و ما هي صلته بواقع النشور ؟

قالوا :إن العرب كانوا يستخدمون نوعين من النباتات كالزناد لإنشاء النار كما نستخدم نحن الكبريت ، و سميا بـ (صرخ) و (عفار) و كانا رطبين ، إلا أن احتكاكهما كان يولد النار ، فضرب الله بهما مثلا على قدرته أو على انبعاث النار الخفية كما ينبعث الجسد الميت حيا يوم النشور.

و قال البعض :إن البحث العلمي أكد أن كل أنواع الوقود من أشعة الشمس ، و حتى اتقاد الخشب إنما هو يتخذن هذه الآشعة فيه ، وإلا فإن عناصره الأخرى كالماء و التراب لا نار فيها.

ذلك أن كل عملية تركيب كيماوية بحاجة الى امتصاص الطاقة أو بثها ، و عملية امتصاص الأشجار لثاني أكسيد الكربون بحاجة - حسب هذا القانون - الى الطاقة ، و هكذا فهي تستفيد من الطاقة الشمسية ،

و تستمر الأشجار في اختزان الطاقة بصورة منتظمة.

و هذه العملية لا تقوم بها الأخشاب اليابسة بل الشجر الأخضر ، و لذلك ركز الحديث حوله ، بالرغم من أن الناس يعرفون أن الخشب اليابس أسرع اشتعالا إلا أنه لا يخزن الطاقة . (١)و لكن يبقى السؤال : لماذا ضرب الله بهذا مثلا ؟ الجواب:

أولا : إن ذلك يهدينا الى قدرة الله الذي ضغط النار في الماء . أوليس الشجر الأخضر ينضح بالماء ؟ فأبصر برب يخزن الوقود في الماء!

(1)بتصرف من تفسير نمونه / ج ١٨ / ص ٤٦٤ .

ثانيا :إن السنن الإلهية الخفية أكثر من الظاهرة للإنسان منها ، وما أوتينا من العلم إلا قليلا ، و إننا نستبعد أشياء لآننا لا نعرف الأنظمة ، فلو قيل لأحد من أجدادنا : سيأتي يوم يطير جهاز بعشرات الأطنان من الحديد في الفضاء ، بسرعة فائقة لما صدق ، لأنهلم يكن يعرف قوانين فيزيائية يعرفها الإنسان اليوم ، وقديما قال الإمام علي (ع: (

"الناس أعداء ما جهلوا (!) "

و كذلك البشر ينكر البعث لأنه لا يعرف ما أودع الله في ضمير الوجود من أنظمة ، كما لم يكن يعرف الإنسان كيف يجعل الله من الشجر الأخضر نارا ، فلعل ذرات البدن التي تنفصل عنه بعد الموت تبقى ذات صلة خاصة به الى أن يبعث الله من في القبور ، أو تطبع عليها سمات تشير الى مصدرها.

ثالثا : إن ذرات الحرارة التي تنفصل عن الشمس و تخزن في الشجر الأخضر تبعث مرة اخرى إليها ، و لكن دون أن يعدم منها شيء كما يحسب الجاهل ، كذلك ذرات الجسم.

رابعا : و لعل في الآية إشارة لطيفة الى قانون الهي في الوجود أن فيه الغيب و الشهود ، فهناك الشجر الأخضر تحسبه لجة ماء ، فاذا فيه كتلة وقود مختزنة ، كذلك الدنيا شهود الآخرة ، بينما الآخرة غيب الدنيا ، فإنت ترى جسد الميت المسيء بينما هو في النار كما الزناد احتوى على نار مختزنة ، كما أن آكل مال اليتيم يحسب أنه يتناول طعاما شهيا ، و لكنه - في الواقع - إنما يأكل في بطنه نارا ، و الذي يكذب لا يعرف أن نتنا خبيثا يخرج من فيه يلعنه به الملائكة ، و هكذا.

(1)نهج البلاغة / خ ١٧٢ / ص ٥٠١.

و هكذا ياتي رجل الى الإمام أمير المؤمنين (ع) و قد جاء بعظم كافر فيقول : أنتم تقولون أنه معذب فأين النار التي يعذب بها الآن ؟! فياتي إليه الإمام بزناد فيقدحه فيقول : أين كانت النار في هذا الزناد ؟

[81]البعث و النشور حقيقة فطرية . أوليست نفوس البشر تنزع الى الخلود ؟ و هذه الجهود الهائلة التي يبذلها البشر من أجل الخلود ، دليل عمق الإحساس بالخلود ، و ما اكره الموت في نظر الإنسان إلا ايمانه بانه جاء ليبقى ، و فقط أولياء الله الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم لا يهابون الموت ، ولو احصيت أهداف الناس من مساعيهم المختلفة لكان لهدف استمرار البقاء حصة الاسد فيها ، يقول الله تعالى لبيان هذه الحقيقة : " و تتخذون مصانع لعلكم تخلدون(1) " و حيث علم البشر أنه لا محالة ميت ، فتش عن بقاء إعتباري إن فقد القدرة على البقاء الحقيقي ، فإذا به يسعى للإمتداد عبر أبنائه أو آثاره أو حتى تحنيط جسده الميت و بناء المقابر الضخمة عند رفاته.

و حين اراد إبليس إغواء أبينا آدم وزوجه حواء وإخراجهما من الجنة ، قال لهما : " هل أدلك على شجرة الخلد و ملك لا يبلى " (٢)هكذا تراه يثير فيهما حب الخلود ، و يربطهما بالمعصية ، و كذلك يصنع بأبناء

آدم ، فإنه من أعظم أسباب الذنوب حب الخلود.

ومن هنا فإن الإمام علي (ع) حين يسأله أحدهم : ما هو الحق الشبيه بالباطل ؟! يقول : الموت ، لأن نزعة الخلود لا تدعه يذعن للموت هذا الذي لا ينجو(١) الشعراء / ١٢٩

(2)طه / ١٢٠

منه حي أبدا ، و قد قال ربنا سبحانه : " كل نفس ذائقة الموت. "

إن هذا الإحساس الفطري العميق بالخلود لا يتحقق في الدنيا ، فهو إذا يتحقق بالبقاء في الآخرة ، فما الموت إلا قنطرة ، و ما الدنيا إلا مزرعة ، و إن الآخرة لهي الحيوان.

و لكن تبقى العقبة الرئيسية أمام البشر جهله بقدرة الله و احتجابه بما يراه عما لا يراه ، بالشهود عن الغيب.

لذلك نرى آيات القرآن تذكرنا بآيات قدرة الله ، فهذه السموات التي لا تحصى أقمارها و شموسها ، و هذه الأفلاك التي لا تحد اتساعا ، ولا تنحرف عن مسيرها قيد شعرة ، طوعا لربها و تسليما ، و هذه الأرض التي لا تنقضي عجائبها ، و هذه الأحياء المتنوعة التي تتجلىفي كل واحد منها عظائم قدرة ربنا الجبار . أوليست جميعا دليل قدرة الله ؟!

]أوليس الذي خلق السموات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم]بلى . هو القادر ، و كيف يخلق إن كان عاجزا سبحانه ؟!

بلى .إنه القادر ، و دليل ذلك تنوع الخلق ، فمن البعوضة المتناهية في الصغر ، الى الفيل الذي يشبه البعوضة و لكن بحجم أكبر ، الى الحوت الذي قد تكون عين واحدة منه أثقل من فيل ثم يجوب البحار بسرعة هائلة ، الى عجائب البحار و رواسي الجبال و نباتات السهول، حتى أنك لو قضيت عمرك في معرفة آيات الله في أصغر نبتة : كيف تستقي الأرض و تمتص أملاحها ، و كيف تمثل من الشمس ضوءها ، و كيف تحافظ على نفسها ضد الآفات و العواصف ، و كيف تحقق هدفها في هذاالكون الأرحب ..؟ نعم . لو فعلت ذلك و عشرات الباقين لما انقضت عجائب تلك النبتة الصغيرة ، و هكذا الحيوان الصغير كالنملة ، فإذا زرت مكتبة كبيرة فلعلك تجد عشرات الكتب في نبتة متواضعة ! و ربما فوجئت بأن النملة التي تسحقها برجلك قد حظيت باحترام العلماء فألفوا فيها عشرات الألوف من الكتب و الدراسات حتى الآن.

هذا التنوع الكبير الذي لا يحصى أفراده دليل خلاقية الرب ، و أنه لا يعجزه شيء في السموات و الأرض ، و أنه عليم كيف يصنع ما يصنع ؟

]و هو الخلاق العليم[

و لعل التعبير بـ " مثلهم " هنا للدلالة على أن القدرة تتعلق بجنسهم عموما ، و ليس بأشخاصهم فقط ، فالذي يستطيع على مثل الشيء يستطيع عليه ، دون العكس ، و لسنا بحاجة الى بعض التكلفات البعيدة التي ذهب اليها المفسرون لزعمهم أن " مثلهم " تدل على عودة الناس ليست بأبدانهم بل بأرواحهم فقط.

[82 [من أصغر خلية الى أعظم مجرة ، كل مخلوق يؤدي دورا و يحقق هدفا ، بينما يستوي الإنسان على عرش السلطة ، فقد أوتي ما يسخر به ما في الأرض جميعا ، و توفر فرصة العيش الرغد لهذا المليك المكرم . أولم يقل ربنا سبحانه : " و سخر لكم ما في الارض جميعا" " و لقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر و البحر " و عندما نتفكر في وجود الإنسان نرى كل شيء فيه يحقق هدفا ، من أعظم جارحة كالمخ و القلب الى اصغر نسيج.

تعالوا إذا نفكر : أليس لوجود الإنسان في الأرض بذاته هدف ؟ وهل خلقه الله عبثا ؟ فأين إذا حكمة الله ،

التي تتجلى في كل شيء ؟! وأين عدالته التي نرىآياتها في السموات و الأرض ؟!

كلا .. إنما خلق الإنسان لهدف أيضا ، و هو أن يتكامل الى الله ، و قد جاء في الحديث القدسي المعروف :

"خلقت الأشياء لأجلك ، و خلقتك لأجلي"

و قال ربنا سبحانه:

"أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و انكم الينا لا ترجعون. "

"وما خلقنا السماء و الارض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إنا كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون. "

و حين تفكر أولو الألباب في خلق السموات و الأرض عرفوا أن الخلق ليس باطلا فقالوا : " ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار. "

و لكن هناك من يعرف هذه الحكمة و لكنه ينكر المعاد ايضا ، كالفلاسفة المتأثرين بآراء اليونانيين القدماء .لماذا ؟ لأنهم جهلوا كيف خلق الله الخلق ، فقال بعضهم : الخلق صادر عن الله - سبحانه و تعالى - كما يتدفق الماء من العين . فكيف يعود الماء الى العينتارة أخرى ؟!

و قال آخرون : بلى يعود ، و لكن لا ليعذب أو يجازى على أفعاله ، بل ليلتحق بالمصدر ، كما تعود المياه الى البحار بعد تطواف كبير!

و قد أنكر هؤلاء البعث بالصورة التي جاءت بها كتب الله لجهلهم بكيفيةالخلق ، يقول ربنا وهو يوضح قدرته في أمر الخلق:

]إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون[

فليس فيضا أو صدورا ، و ليست دورة وجودية كما تقول الدهرية والذين تاثروا بهم من الفلاسفة ، إنما هو فعل محدث لرب القدرة ، فحيث أراد خلق المشيئة بعظيم قدرته فخلق الأشياء بالمشيئة ، حسب حيدث مأثور.

و التعبير بـ " يقول " لبيان حدوث الإرادة ، و إلا فربنا غني عن احداث تحول لفعل الاشياء وهكذا جاء في كلام أمير المؤمنين (ع: (

"يقول لما أراد كونه (كن) فيكون ، لا بصوت يقرع . ولا بنداء يسمع ، و إنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه و مثله ، لم يكن من قبل ذلك كائنا ، و لو كان قديما لكان إلها ثانيا " (١)إن الكلمات تقف دون تبيان الغيب الإلهي عاجزة كليلة ، و إنما تقرب إلينا = قدر المستطاع - حقائق الغيب بما هي قريبة منها في عالم الشهود ، فإننا - مثلا - حين نريد شيئا نأمر به و الأمر عادة يكون بالتعبير عنه قولا ، لذلك نجد القرآن يعبر أن أمر الله بالكلمة أو بالقول.

و قد وهب الله هذه القدرة لأهل الجنة ، فقال في آية مضت : " ولهم ما يدعون " وقال في قصة سليمان : " قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده. "

هكذا بمجرد أن يشتهي أهل الجنة شيئا يجدونه عندهم بإذن الله ، كذلك بمجردإرادة خليفة سليمان عرش بلقيس وجده عنده.

[83]وفي ختام السورة و بعد أن يصف القرآن ربنا بما ينبغي من القدرة و العلم يقدسه من كل نقص أو عجز أو فقر فيقول:

]فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء[

أولا ترى آثار الفقر و الحاجة و الضعف في كل شيء ؟ إن ذلك شاهد مملوكية لمالك غني مقتدر قوي ، هكذا ينطق كل شيء بأن ربنا سبحانه القدوس المبارك المتعالي.

وإذا عرفنا قدسية الرب وقدرته و حكمته آمنا بالنشور ، و كلما ازداد المرء معرفة بربه أزداد إيمانا باليوم الآخر.

]وإليه ترجعون[

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

- 1في كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى عبد الله (ع) قال : " من قرأ سورة الصافات في كل يوم جمعة لم يزل محفوظا من كل آفة ، مدفوعا عنه كل بلية في الحياة الدنيا ، مرزوقا في الدنيا في أوسع ما يكون من الرزق ، و لم يصبه الله في ماله وولده ولا بدنه بسوءمن شيطان رجيم ، ولا جبار عنيد ، وإن مات في يومه أو ليلته بعثه الله شهيدا و أماته شهيدا و أدخله الجنة مع الشهداء في درجة من الجنة "تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٣٩٩.

الاطار العالم

تهدينا سورة الصافات بآياتها السامية الى ذات الأفكار و الحقائق التي كانت الآيات السابقة في سورة (يس) تؤكد عليها باضافات أخرى ، و اسلوب أدبي نفسي جديد .

تبدأ آياتها بذكر الملائكة التي تصطف انتظارا لأمر الله ، و بذلك سميت بسورة " الصافات " كما يحدثنا الدرس الاخير منها عن الجن و الملائكة ، و شبهات الجاهليين حول علاقتهما بربهما ، فقد زعموا بأن لهما علاقة نسبية بالله ، و ذهب بعضهم بعيدا إذ قالوا بأن الجن نتيجة مباشرة لعلاقة زوجية بين الملائكة و ربهم - تعالى عما يشركون. -

بينما تحدثنا الدروس الوسطى عن الانبياء (ع) و العلاقة بين السياقين أن القرآن حينما بين خطأ الجاهليين الفظيع في تصورهم حول علاقة الملائكة و الجن بالله كان لابد من الإشارة لنفس الخطأ الذي وقع فيه الآخرون عندما تصوروا بأن هناكعلاقة مشابهة بين الله و الرسل ، انطلاقا من تقييمهم للمعجز الذي طالما تكرر على يد الانبياء من دون الآخرين ، فاتخذوا ذلك دليلا على انهم ابناء الله ، و لهذا نجد الآيات تطيل الحديث حول هذا الموضوع مؤكدة بأن نبوة هؤلاء لم تكن بأسباب ذاتية تكوينية فيهم ،انما أعطاهم الرب هذه المنزلة الرفيعة لما وجده فيهم من عمق الإيمان ، و صدق العمل ، و شجاعة الإقدام ، والاحسان إلى الناس ، و لعل الحديث عنهـم (ع) في هذه السورة المباركة يتصل بهذا الجانب من حياتهم ، نفيا للبدع الجاهلية.

من هنا نستطيع القول بأن الخط العام لسورة الصافات هو بيان العلاقة السليمة بين الله - عز وجل - وسائر خلقه ، التي تتجسد من جهته في الإنشاء ، و الخلق ، و الإبداع ، و الرزق ، و .. و .. ، اما ما دون هذه العلاقة ، فإن هناك معراجا واحدا يتقرب من خلاله الخلق لربهم ، و هو الايمان و العمل الصالح.

و حين نتدبر في جمل بصائر السورة تتجلى لنا المسؤولية بأظهر صورها ، و التي تصعقنا عند قول الرب :

" وقفوهم انهم مسؤولون. "

ومحور المسؤولية هو الذي يوصل محاور السورة ببعضها ، و أبرزها ثلاثة محاور:

الأول :نفي الأنداد الذين يتخذهم الجاهلون آلهة لعلهم ينصرون . ان غايتهم من عبادة الآلهة التنصل من جزاء أفعالهم ، و لكن هيهات ! ان الملائكة صافون لربهم صفا ، و الشياطين محجوبون عن السماء ، و تترصدهم الشهب ، و المستكبرون محضرون لحساب عسير.

الثاني : الأنبياء والأولياء عباد الله المكرمون ، فلا يشفعون إلا لمن ارتضى ، ولا يمكن التعويل عليهم لمواجهة سنن الرب ، كيف وإنما بلغوا درجاتهم هذه بانهمعباد الله المخلصون.

الثالث : نسف قواعد التبرير التي يعتمد عليها المجرمون في اقتراف المآثم ، حيث يزعمون أنهم كانوا مجبورين.

و تتصل الصور التي ينقلها القرآن الينا من يوم المسؤولية و الجزاء بهذا المحور.

و النسق القرآني يجعل المحور الأول و الأخير متدرجين ، ثم يذكر بالمحور الثاني الذ ي يأتي كشاهد مبين لهما ، ذلك أن القرآن يضرب للحقائق الأمثال ، ومن أروع أمثلته حياة الأنبياء ، الذين أمرنا بأن نسلم عليهم بكرة و عشيا ، ليتخذهم المؤمنون قدوة و منارا.

قل نعم وأنتم داخرون

هدى من الآيات

ينصب الحديث في هذا الدرس حول الملائكة ويوم البعث ، و يربط الموضوعين ببعضهما أن الانسان قد يكفر بالجزاء رأسا حين لا يؤمن بيوم الجزاء ، و قد يكفر به بصورة غير مباشرة ، و ذلك حين يزعم أن الملائكة يشفعون له عند الله لأنهم أبناؤه سبحانه.

وما دام السياق يكرس روح المسؤولية فلابد من معالجة هذين الموقفين معا ، لأنهما يشتركان في المحصلة النهائية ، و هي التنصل من المسؤولية.

فالشرك بالله من خلال الاعتقاد بربوبية الملائكة أو الجن أو الآلهة المزيفة الأخرى ، له مبرر نفسي هو محاولة التملص من المسؤولية . إن من الصعوبة على الناس تحملها ، مع علمهم بها ، فلكي يتخلصوا - بزعمهم - من حدية أوامر الله ، و يتهربوا من الالتزام بالدين، تراهم يبحثون عن مبرر نفسي لأنفسهم مما يدفعهم للتصور بأن الملائكة أو الجن أو الصالحين كعيسى (ع) سوف يدفعون سخط الربو عذابه عنهم بالشفاعة أو الفداء.

و يوم القيامة هو يوم تتجلى فيه المسؤولية بشكل واضح و أكيد ، و تأليه هؤلاء للملائكة و الجن و الأنبياء ، يأتي لحل إشكالية ذلك اليوم ، و لكن هيهات ، لهذا أكد ربنا في نهاية هذا الدرس مسؤولية الإنسان الحتمية بقوله : " قل نعم و أنتم داخرون. "

بينات من الآيات

[3 - 1]يصور لنا السياق في مطلع هذه السورة الكريمة مشهدا من الغيب حيث تصطف الملائكة في السماوات العلى ، بما لا يعلم عددها إلا الله عز وجل ، أنتظارا لتلقي الوحي من ربها ، ثم تنزل به الى حيث يأمرها زاجرة ما يعترضها من العقبات ، تتنزل به و تتلوه على النبي ، و من هنا يمكننا القول بأن تنزيل الوحي ليس مخصصا بجبرئيل إنما يوجد معه ملائكة آخرون يؤدون نفس الدور ، و في القرآن نجد تعبير رسل الله ، يعني تارة الملائكة التي تهبط بالوحي ، و يعني تارة أخرى الملائكة الذين يتوفون الأنفس ، بينما يقول الله تعالى: " قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون (1) " يعني بذلك عزرائيل ، وبجمع الآيات الى بعضها نستوحي بأن ملك الموت الأعظم زعيم لنزعة الروح ، أما بقية الملائكة فهم أعوانه على ذلك ، كما أن جبرئيل الملك الأعظم - الذي يتنزل بالوحي على الانبياء و الرسل - زعيم لطائفة من الملائكة الذين يؤدون نفس المهمة.

]و الصافات صفا[

يقسم الله بالملائكة التي تصطف انتظارا لأمره و وحيه ، ثم تهبط لإنفاذ أمر(١) السجدة / ١١.

الرب ، زاجرة العقبات في طريقها ، كالطبقات الموجودة بين الأرض و السماء ، و الشياطين التي تحاول استراق السمع أو حجب الله عن أنبيائه و رسله.

]فالزاجرات زجرا[

كما أن من صفاتها تلاوة الوحي على الأنبياء ، و التلاوة من التتالي أي التتابع مما يدل على أن وحي الله لهم لا ينزل مرة واحدة ، إنما يتنزل مفرقا ، و ذلك مما تستدعيه الحكمة في التغيير.

]فالتاليات ذكرا[

[4]فالملائكة إذن ليسوا آلهة من دون الله ، إنما هم مسلمون لأمره ، و حملة وحيه الى الخلق ، فلا تصح عبادتهم ، و إنما عرفنا الله بجانب من دور الملائكة وهو شيء من الغيب ، لأن إشراك طائفة من الناس بالملائكة نابع من جهلهم لحقيقة هذا الخلق ، لهذا نجد القرآن بعد هذا التعريف المختصر و البليغ في نفس الوقت ، ينطلق لتأكيد حقيقة التوحيد قائلا:

]إن إلهكم لواحد[

ويلاحظ ورود ثلاثة تأكيدات على هذا الأمر ، هي القسم وهو أعظمها وإن التوكيدية واللام في عبارة لواحد ، الواقعة في جواب القسم.

[5]و لكي لا يشبع الإنسان ميوله الفطرية نحو العبودية للرب باعتقادات باطلة تجاه الكون و بعض المخلوقات يبين الله بأن كل مافي الكون هو مخلوق مفتقر اليه في وجوده ، و هذا البيان يعطي البشر شعورا بالإنسجام مع الطبيعة من حوله وهو يعبد ربه ، و على العكسمن ذلك لو اشرك بالله.

]رب السماوات و الأرض وما بينهما ورب المشارق[

و لعل الحقائق العلمية القائلة بأن لكل نجم و كوكب مدارا خاصا به ، فمشرقه و مغربه يختلف فيه عن غيره ، تكشف عن جانب من هذه الآية التي جاءت كلمة المشارق فيها جمعا.

و هناك احتمال آخر لمعنى الكلمة هو : إن رحلة الشمس من عام لعام (أو بالأحرى حركة الارض السنوية حول الشمس) تستدعي وجود مشارق لها بعدد أيام السنة.

و لعل تخصيص المشارق دون المغارب بالذكر إنما هو بسبب أن عباد الشمس يسحرهم شروقها فيعبدونها فيها ، و لذلك استدعى التأكيد على أن الله هو رب المشارق.

[6]أما عن الكواكب التي يتخذها فئام من الناس معبودا من دون الله ، إما لما يرون من اعتقادهم أن ظهورها و غيابها يؤثر في حياة البشر ، أو لأنبهارهم بروعتها ، فإن القرآن يوضح دورها في السماء فيقول :

]إنا زينا السماء الدنيا[

القريبة من الأرض..

]بزينة الكواكب[

هذه الكواكب قد تكون موجودة في السماوات الأخرى ، و لكنها لا تكون زينة لها ، بسبب انعدام الأوكسجين و الهواء من فضائها ، مما يمنع بقاء الضوء أو انعكاسه.

[7]و بالاضافة الى هذا الجمال يشير السياق الى القوة و المتانة في خلق السماء ، حيث جعل فيها الرصد و الحرس ، يمنعون نفوذ الشياطين الى الملأ الأعلى.

]وحفظا من كل شيطان مارد[

[8]و تهدم هذه الآية الكريمة العقيدة الباطلة ، التي تقول بمعرفة الجن لجميع الأقدار التي جرت في الماضي ، و ما تجري الآن ، وما ستقع مستقبلا ، لانهم يتصلون بالغيب و يطلعون عليه ، و ينفي القرآن ذلك نفيا مباشرا بقوله :

]لا يسمعون إلى الملإ الأعلى[

لا يستطيعون التجسس أو استراق السمع من الله ، و هو يوحي للملائكة بما يقدره و يقضيه ، لتباشر تنفيذها بإرادته تعالى.

]و يقذفون من كل جانب[

يقذفهم حرس السماء بأسلحتهم لو حاولوا النفوذ و اختراق الحجب ، فهم في يقظة دائمة.

[9]و دحرون الشياطن.

]دحورا[

عند تسللهم لاستراق السمع ، كما يكتب عليهم ذنبا يجمع الى جرائمهم الأخرى ، فينالون بذلك العذاب الشديد في النار بعد الحساب.

]و لهم عذاب واصب[

قال الإمام الباقر (ع: (

"عذاب واصب أي دائم موجع ، قد وصل الى قلوبهم " (١)[١٠= و الشياطين يسعون جهدهم للحصول على بعض المعلومات من السماء من أجل اضلال أهل الأرض بها ، بعد تضمينها الأفكار الباطلة ، وما عند الكهنة و المنجمين من الأخبار الصائبة هو من هذا النوع ، فهم يجلبون ثقة الناس بهم ، من خلال الجزئيات الصحيحة حتى يثقونبكل ما يصدر عنهم من الباطل.

]إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب[

و في الآية وآيات أخرى مشابهة دلالة على أن الشياطين تتمكن من الحصول على بعض الأخبار ، من خلال مغامراتها المستمرة.

كما نستوحي من الآية وآيات أخرى أيضا في القرآن أن حديثا يدور لدى الملأ الأعلى عما يجري في الدنيا ، متى ينزل المطر ، متى تحدث الزلازل ، و .. و ..ولا ريب أن للظواهر الواقعة مستقبلا إرهاصاتها ودلالاتها ، و لعل الحاسة السادسة ، و النظر المغناطيسي ، والإنتقال التلقائي ، و التنبؤات الصحيحة ، و الأحلام ، وحتى بعض أبعاد السحر و الكهانة و العرافة و .. و ..تدل على وجود مبشرات و منذرات قبل وقوع الحوادث.

أما الذين يزعمون بانهم يتبعون الجن و الشياطين فإنهم خاطئون ، لأن الجن أساسا لا يملكون من علم الغيب شيئا ، حيث يمنعهم حرس السماء من ذلك.

[11]و بعد هذه المقدمة البليغة التي حطمت أسطورة الشرك بالجن ، و التصور(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٠٠.

بأنها آلهة من دون الله ، يخلص السياق الى تساؤل من شانه أن يهز نفوس الكفار و المشركين و عقائدهم من الأعماق ، و يبعثهم على التسليم للرسالة و عقائدها الصائبة لو أرادوا ذلك.

يقول تعالى:

]فاستفتهم[

أيها الرسول واسألهم . والاستفتاء هو استطلاع الرأي..

]أهم[

يعني الكفار و المشركين..

]أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب[

و لتفسير هذه الآية ثلاثة أوجه:

الأول :أن المعني بالتساؤل هم الملائكة ، ولا يملك الإنسان إجابة سوى الإعتراف بتفوقها الذاتي عليه من حيث القوة ، فهي أقوى حتى من الجنة ، التي يتصورها الإنسان لضعفه أنها آلهة ، فهي من جهة القياس أولى بادعاء الإلوهية و التمرد على الله ، لكننا نجدها خاضعة له مسلمة لأمره ، فلماذا إذن هذه النزعة نحو الربوبية في بعض بني البشر أو التكبر ، و هم ضعفاء في الخلقة حيث عنصرهم الطين اللازب ؟!

الثاني : إن المقصود بالخلقة الشديدة هم الجن ، و ما داموا أضعف من مقاومة قدرة الله و عذابه فلماذا يشرك البعض بهم ، و هذا الأمر يستوجب العذاب الأليمالذي لا تحتمله ابدانهم الطينية الضعيفة ؟!

الثالث : إن الآية تشير الى سائر خلق الله في الكون ، كالسماوات و الارض و الكواكب حيث تتجلى آثار قدرة الله ، التي دفع التشكيك فيها بالإنسان الى الكفر بالبعث ، فإذا ما تفكر الإنسان في خلقها و ثق بقدرة ربه ، و بالتالي آمن بيوم البعث ، و هذا أظهر الوجوهفيما يبدو لي.

[12]و مشكلة الإنسان تجاه الحقائق الكبيرة أنه لا يستوعبها إلا إذا اتصف بسعة الأفق و التعقل ، و كلما كان العقل كبيرا كان صاحبه أقدر على اكتساب المعرفة ، و عقل الحقائق ، و الإمام علي (ع) يقول :

"يا كميل ابن زياد : إن القلوب أوعية فخيرها أوعاها " (١)و العاقل حينما يصغي للحقائق أو يشاهدها يتعجب منها و لكنه يصدقها ، فلا يكذبك لو قلت له بأن الدلفين يستخدم الآن في عمليات التجسس أو أن العلم الحديث اخترع جهازا فلق به رأس البعوضة . أما الجاهل فهو لا يكذب الحقائق و حسب ، بل و يستهزىء بصاحبها ، و يسخرمنه ، و قد يوصمه بالجهل و الجنون ، وفي الوقت الذي يدل موقف الإعجاب على نمو العقل ، وسعة الصدر ، و استيعاب الحقيقة ، فإن موقف السخرية دليل على ضيق الأفق ، و جمود الفكر ، و القرآن يصف الرسول بالإعجاب ، بينما يصف الكفار و المشركين بالسخرية.

]بل عجبت و يسخرون[

[13]ومن شواهد تحجر قلوبهم ، و جمود عقولهم ، أنهم لا ينتفعون بالذكر ، و قد يتعمدون التغافل عن الحقيقة.

(1)نهج البلاغة / خ ١٤٧ / ص ٤٩٥.

]وإذا ذكروا لا يذكرون[

و التذكير هو إثارة معلومات الإنسان في ذاكرته مما يدل على أن عقل الإنسان يحتوي على حقائق كثيرة لو استثاره صاحبه.

[14]وهؤلاء ليس فقط لا يعودون الى ذاكرتهم إذا استثيرت ، إنما يرفضون الانصياع للحق مع ظهور الآيات و الشواهد عليه ، و أعظم من ذلك جرأة على الله أنهم يستثيرون الناس للسخرية على الحق.

]و إذا رأوا ءاية يستسخرون[

و قد تكون في الآيات إشارة الى ثلاث مراحل يمر بها هؤلاء في رفضهم للحق : الأولى السخرية بالحق لمجرد رؤيته ، و الثانية : قسوة القلب ، و هي نتيجة للسخرية حيث تتراكم عليه الحجب ، فلا يعود صاحبه قادرا على التفاعل مع التذكرة ، و مطابقة الحق الخارجي مع الفطرة البشرية و العقل ، و الثالثة : محاربة الحق و محاولة صد الناس عنه.

[15]و من أجل أن يبرر هؤلاء كفرهم بالحقيقة ، و يضلون الناس عنها يلجأون الى إثارة الشبهات حول الحقائق ، الشبهة الأولى حاولوا من خلالها تشكيك الناس في أصل الرسالة.

]و قالوا إن هذا إلا سحر مبين[

و اختاروا تشبيهها بالسحر ، لأنه أقرب الأمور و أشبهها للحق ظاهريا ، و من قصة النبي موسى (ع) يتضح لنا أن حبال السحرة خيلت للناس أنها تسعى ، إلا أن الفرق بين السحر و الحق أن السحر لا واقع له ، بينما الحق واقع قائم.

[16]و الشبهة الثانية قالوا : كيف يبعث الإنسان بعد أن يصير ترابا وأعضاء ممزقة ؟! لأنهم يريدون حياة لا مسؤولية فيها ، و هذا الاعتقاد يلتقي مع عبادتهم للجن و سائر الشركاء الذين يعبدونهم ليرفعوا عنهم المسؤولية بالشفاعة.

]ءإذا متنا و كنا ترابا و عظاما أنا لمبعوثون[

[17]ثم يضيفون استهزاءا و سخرية :

]أو ءاباؤنا الأولون[

الذين تلاشوا في التراب ؟!

[18]فيجيبهم الله على لسان نبيه (ص) إذ يترفع عن مخاطبتهم تحقيرا لهم و إصغارا ، و هكذا لا نجد في القرآن ولا أية واحدة ، تشتمل على خطاب مباشر من الله للمشركين و الكفار على صعيد الدنيا:

]قل نعم و أنتم داخرون[

أي ساجدين مستسلمين للارادة الالهية ، حيث تنتهي الحياة الدنيا و حرية الإنسان تباعا لها ، ولا يبقى هناك إلا العمل و الحساب ، حيث تتجلى المسؤولية التي لا محيص منها تجليا تاما.

و قفوهم إنهم مسؤولون

هدى من الآيات

يحدثنا السياق في هذه المجموعة من الآيات عن جوانب من اليوم الآخر ، حيث الصيحة العظيمة فإذا بالظالمين قيام ينظرون و ينتظرون عذاب الله . و هناك تتجلى المسؤولية ، التي طالما تهربوا منها في الدنيا ، فتسقط تبريراتهم التي زعموا بأنهم قادرون على جعلها وسيلة للتخلص من جزاء أعمالهم.

و التي من بينها إلقاء المسؤولية و اللوم على الآخرين ، إذ يدعي البعض بأنه كان مكرها و مجبورا من قبل السلطات او القوى الإجتماعية.

و من أبرز أدلة المسؤولية في الدنيا وجود الجزاء ، فالذي يركب سفينة ثم تغرق يكون مسؤولا بنسبة معينة عن غرقها ، مهما برر الأمر بغفلة ربانها مثلا ، و هكذا لو كنا في مجتمع يحكمه الظالم ثم سكتنا عنه فشملنا الذل و البلاء ، فإن ذلك دليل مسؤوليتنا عن الوضع، حتى لو بررنا بثقافة الجبر أو فلسفة الانتظار.

و لكي يعمق القرآن شعورنا بالمسؤولية ، ولا يدع التبريرات تحجبنا عن هذا الأمر الخطير ، و الأساسي في حياة البشر ، يصور لنا مشاهد من يوم القيامة ، و يثير فيها جانبا من التبريرات ، التي يتشبث بها الظالمون آنذاك ، مع ردها ردا قاطعا ، و كل ذلك في صورة حوار بينهم و بين الله و الملائكة ، و إنما يرينا السياق هذه المشاهد من الآخرة لكي تنعكس على حياتنا الدنيوية في صورة إحساس نفسي و عملي عميق بالمسؤولية.

بينات من الآيات

[19] فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون[

الزجرة تعبير آخر عن النفخة ، و هي صوت يصدره أحد الملائكة بإذن الله فيميت الناس أو يبعثهم للحياة ، كيفما أراد تعالى ، و قد يفهم من ذلك أن انبعاث الحياة في الأرواح و العظام الميتة بحاجة الى تفاعلات سريعة جدا ، و هذا ما توفره الزجرة ، التي تبعث الناسأحياءا وفي كامل وعيهم للحساب ، و إذا كان الإنسان في الدنيا يخلق جاهلا ثم يتدرج في المعرفة ليصل الى حد من الكمال ، فإنه يوم البعث و بعد الزجرة ينهض بقوة كاملة ، و وعي تام.

[20] وأول نظرة يلقيها الظالمون الى ما حولهم ، تكفيهم علما بمصيرهم ، حيث الويل و الثبور ، و قد كانوا محجوبين عن هذه الحقيقة في الدنيا ، بسبب ذنوبهم و تكذيبهم بالرسالة الإلهية.

و من طبيعة البشر أنه لا يعترف بوقوعه في الخطأ و الهلكة إلا قليلا ، و في اللحظات التي ييأس و يفقد فيها أدنى أمل بإمكانية التبرير.

فالظالمـون إذن يحاولون أن لا يعترفوا بخطئهم أو ضعفهم ، و هلكتهم في الدنيا.

و لكنهم يومئذ لا يملكون سوى الإعتراف ، و نبذ التبريرات التي تشبثوا بها في الدنيا للفرار من المسؤولية.

[و قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين]

و الدين هو مجموع الفروض و الواجبات التي فرضها الله على الناس ، كإقامة الصلاة و العدل و .. و .. و بالتالي فإن الدين هو المسؤولية ، و قد تهرب هؤلاء منها و لم يتحملوها ، لكنهم وجدوها يوم البعث هي الحاكمة ، فعلموا بأنهم هالكون و خاسرون ، و قد يكون معنىالدين هنا خصوص الجزاء.

[21]و يؤكد لهم المنادي من قبل الله - وهو أحد الملائكة - هذه الحقيقة ، و أن هذا اليوم ليس للجزاء و حسب ، إنما هو يوم الجزاء العادل ، الذي يفصل فيه بين أصحاب الجنة و أصحاب النار.

]هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون[

وفي الآية إشارة صريحة بأن التكذيب هو الذي دفع بهؤلاء الى عدم تحمل المسؤولية ، بل الى الظلم و الجور ، فمن الطبيعي أن الانسان الذي يشعر بأنه لا يجازي على أعماله السيئة سوف يتمادى فيها ، ومن هذا المنطلق يكون الإيمان بالآخرة حجر الزاوية في توازن فكر وسلوك الإنسان.

[23 - 22]ثم يامر الله بجمع العاصين الى بعضهم ، و إدخالهم النار ، و هم ثلاثة أنواع.

- 1الظالمون ، و هم الذين يظلمون أنفسهم و يظلمون الآخرين.

- 2الآلهة المزيفة التي يعبدها الظالمون من دون الله ، كالأصنام الجامدة ،والأخرى المتحركة ، أمثال الطغاة ، و أصحاب المال ، و علماء السوء.

- 3الأزواج ، و قد قال بعض المفسرين : إن المقصود بالكلمة ظاهرها وهي الزوجة ، و هذا يعني أن الزوجة لا يمكنها أن تبرر عدم تحمل المسؤولية بأن زوجها لا يقبل أو لا يسمح لها بذلك ، وإلا فإنها سوف تلقى العذاب و تدخل معه الى النار.

و ثمة تفسير آخر للكلمة وهو : إن المقصود بالأزواج هم الأشباه و النظائر ، و يعني ذلك أن كل جماعة تتجانس مع جماعة أخرى في عملها فإنها تحشر معها ، كالخمارين و النمامين فإنهم يحشرون مع أمثالهم.

و يبدو أن الأزواج هم النظائر المكملة لبعضها ، و يقال لمثنى الحذاء و النعل زوج ، لأنهما يتكاملان و يؤلفان شيئا واحدا ، و من هنا فإن كلمة الأزواج تشمل أولئك الذين يسكتون عن الظلم ويرضون بأفعالهم ، لأن الظلم زائدا السكوت عنه و الرضى به يتكاملان ويلدانواقع الظلم و التخلف والإرهاب ، و إذا صح هذا التفسير فإن القرآن يقسم الناس الى ثلاث فئات:

الأولى : أئمة الظلم و الجور وما يرمز لهم من الأصنام الجامدة.

الثانية : أتباع أئمة الظلم ، و أشياعهم الذين ينفذون الظلم مباشرة ، كالجند و أجهزة الإستخبارات والإعلام و .. و ..

الثالثة :الساكتين عن الطواغيت و أعوانهم من سائر الناس ، و هؤلاء جميعا يجمعون و يساقون الى النار بأمر الله إذ يقول يوم القيامة:

]احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله]و نستلهم من هذه الآية - كما من آيات عديدة أخرى - أن أعظم ما يسأل عنه الناس يوم القيامة الولاية ، فهم مسؤولون عن القيادة التي كانوا يتبعونها ، و الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ، كالطاغوت السياسي و الثقافي و الاقتصادي ، و بالتالي النظام الإجتماعي الذي كانوا يخضعون له.

]فاهدوهم إلى صراط الجحيم[

و لعلنا نفهم من قوله تعالى : " فاهدوهم " أن الذين تقدم ذكرهم يحشرون الى جهنم عميانا عمى ماديا ، تجسيدا للعمى المعنوي الذي اختاروه لأنفسهم في الدنيا ، و في ذلك قوله تعالى : " ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى و أضل سبيلا) "
(1، فهم بحاجة إذن الممن يدلهم على صراط النار ، و يهديهم الى حيث يستقر بهم المصير.

[24]و لكن هل ينتهي كل شيء ؟ كلا .. إنما يوقف هؤلاء للحساب ، و الحساب أبرز تجليات العدالة الإلهية و المسؤولية البشرية ، فمن جانب يدخل العصاة الجحيم و هم قانعون بعدالة الله ، و أن هذا المصير جاء نتيجة لعملهم لا نتيجة لظلم ، و من جانب آخر يصلون الى اليقين بالمسؤولية التي أنكروها في الدنيا.

]و قفوهم إنهم مسؤولون[

عن أفكارهم ، و أقوالهم ، و أعمالهم ، و قبل كل ذلك عن إمامهم و خطهم الديني و السياسي العام.

[25]و أول الأسئلة التي توجه اليهم:

]مالكم لا تناصرون[

فمن عادة الإنسان في الدنيا أنه يقدم على الظلم و عموم الخطيئة اعتمادا على الآخرين ، فالشرطي الذي يعتقل المجاهدين يعتمد على مسؤول فرقته ، و هذا الآخر بدوره يعتمد على مدير الشرطة ، و هكذا دواليك ، و يشكل الجميع شيئا واحدا هو جهاز ما يسمى بالأمن أو الحزب الحاكم الذي يعتمد أفراده في الظلم على بعضهم.

وهؤلاء تتقطع بهم الأسباب و الروابط يوم القيامة ، كما تقدمت بذلك الآية الكريمة ، و هذه الفكرة ليس تنفعنا على صعيد ذلك اليوم و حسب حيث نطلع على مشهد منه ، بل يجب علينا في الدنيا - و انطلاقا من هذه المعرفة - أن لا نظلم أحدا اعتمادا على أحد.

[26]إن من نعتمد عليهم في ظلمنا لن ينفعونا بشيء في الآخرة ، بل لن ينفعوا أنفسهم ، إذ سيستسلمون أمام الإرادة الربانية ، التي طالما تمردوا عليها بجهلهم في الدنيا ، و هذه إشارة الى حاكمية الرب المباشرة في ذلك اليوم.

]بل هم اليوم مستسلمون[

ومن لا يستسلم لإرادة الله باختياره فإنه يخضع لها بالرغم منه.

[27]ولأن الظلمة وأعوانهم اعتادوا على حياة التبرير ، و لعلها أنقذتهم من الجزاء في بعض المواضع من الحياة الدنيا ، فإنهم يحاولون التشبث بها في الآخرة أيضا ، طمعا في التـنصل من المسؤولية ، و من ثم الهرب من الجزاء و العدالة الإلهية ، و أنى لهم ذلك ؟

و القرآن يصور تجليا للتلاوم ، و محاولة التبرير ، من خلال عرضه الرائع لحوار يدوربين المستضعفين و المستكبرين ، التابعين و المتبوعين.

]و أقبل بعضهم[

وهم التابعون..

]على بعض[

وهم المتبعون و أئمة الظلم - حسبما يبدو.. -

]يستاءلون[

من أجل معرفة المسؤول عن الظلم ، و بالتالي عن المصير السيء الذي صار إليه الجميع..

[28]أما المستضعفون فقد خاطبوا المستكبرين:

]قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين[

هنا يحاول التابعون رفع المسؤولية عن كاهلهم بعذرين:

الأول :قالوا إننا لم نكن نبحث عن الكفر و الظلم ، و لا نسعى إليهما إنما أنتم الذين حملتم الوزر إلينا ، فكنتم تأتوننا ولم نكن نأتيكم.

الثاني :ثم ادعى هؤلاء بقولهم " عن اليمين " أنهم كانوا مجبرين على اتباع الظلمة ، و لعل اليمين تشير الى القوة لا الى الجهة اليمنى التي تخالف الشمال ، و قد استخدم القرآن هذه الكلمة تعبيرا عن القوة ، قال تعالى : " ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين " (١) يعني القوة ، و إنما استخدمت اليمين للتعبير(١) الاحقاف / ٤٤ - ٤٥.

عن القوة لأن قوة الإنسان تتجلى عادة في يمينه.

[30 - 29]و أمام هذا الموقف من المستضعفين ضد المستكبرين يدافع الآخرون عن أنفسهم ، و في دفاعهم بيان للواقع كما هو ، كما كان في اتهام أولئك إشارة لإسلوب الطغاة في تضليل الناس.

فأئمة الكفر و الظلم يرفعون التهمة عن أنفسهم بأمرين ينطويان على الإشارة لقابلية الإنحراف عند الإنسان:

الأول : [قالوا بل لم تكونوا مؤمنين[

و حينما لا يكون الانسان مؤمنا بعقيدة ما ، ولا ملتزما بمبدأ ما ، إنما يعيش خور العزيمة و ضعف الإرادة و الفراغ الثقافي و القيادي في ذاته ، يكون عرضة للإنحراف ، أولا : لأن الطغاة يستخدمون شتى ألوان الضغط عليه حتى يخضعوه لأهوائهم ، يرغبونه و يمنونه ثميهددونه و يتوعدونه ثم يضلونه و يغوونه ، فكيف يصمد - من دون الإيمان بالله و الثقة بنصره - أمام كل هذا الضغط ؟ ثانيا : يستحيل على البشر بطبيعته أن يعيش الفراغ ، فهو إن لم يعتقد بالإسلام مثلا و يصرف ماله و طاقاته من أجله ، فإنه سوف يعتقد بمبدأ آخر و سيصرف طاقاته في سبيله ، وفي الحديث قال الإمام الباقر (ع: (

"ما من عبد يبخل بنفقة ينفقها فيما يرضي الله إلا ابتلي بأن ينفق أضعافها فيما أسخط الله " (١)أما المؤمن فهو يتحدى الإعتقادات الباطلة بإيمانه ، و يقاوم الأفكار التبريرية و الثقافية السلبية بثقافته الرسالية ، و يرفض الإنتماء لحزب الشيطان و قيادة(١) بح / ج ٧٨ / ص ١٧٣.

الطاغوت بانتمائه لحزب الله و القيادة الرسالية ، فيجد قوة مادية - الى جانب قوته المعنوية - لمواجهة ضغوط المستكبرين.

الثاني : نفى المستكبرون أن تكون لهم سلطة لا تقهر على المستضعفين من أتباعهم.

]و ما كان لنا عليكم من سلطان[

إن ما يكمل مسيرة الطغاة هو قابلية الإستغلال الموجودة عند الناس ، فالطاغوت هو عامل خارجي للظلم والإنحراف ، أما العامل الأساسي فيكمن في الواقع السلبي السائد في المجتمع ، كالخوف ، و الجهل ، و التفرق ، و الظلم الإجتماعي ، أما الله فإنه لم يفرض سيطرة أحد من الناس بصورة تكوينية أبدا .

الثالث : المجتمع الذي يظلم بعضه بعضا ، فيأكل قويه حقوق ضعيفه ، و يستغل الغني الفقير ، و يبتز تجاره المستهلكين فيه ، يكون تربة مناسبة لنمو الأنظمة الجائرة فيه ، لأن المجتمع الذي يقوم أساسا على الظلم لا يسلم فيه أحد منه ، بل سوف يتصاعد الظلم فيه حتىيبلغ قمته المتمثلة في النظام السياسي فيولى أعتى الظلمة أموره ، و يكون مصداقا للآية الكريمة " : وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا. "

إن النظام السياسي هو الجانب البارز من العملة بينما جانبها الآخر هو الفكر و السلوك ، و العادات والأعراف الإجتماعية.

و الطاغوت يشعر - بدوره - أنه قائم بسلبية مجتمعه ، و لهذا يقوم بتعميقها و نشرها.

]بل كنتم قوما طاغين[

و تفسر هذه الآية تفسيرا عميقا الحكمة المعروفة " كما تكونون يولى عليكم " ، و ربما لذلك حذر أمير المؤمنين (ع) في وصيته المعروفة قائلا:

"لا تتركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيولى عليكم شراركم " (١)[٣١] و هنالك لا يجد الظالمون بدا من الإعتراف باستحقاق العذاب ، و هذا هو معنى المسؤولية في قول الله : " وقفوهم إنهم مسؤولون " فالتبرير في الدنيا لا ينفع الانسان في الآخرة إنما يورده النار.

]فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون [

لقد سبقت كلمة ربنا على المستكبرين بالغواية و الضلالة ، و العذاب بالنار ، و لا يمكن لمن يتحدى رسالات ربه الإهتداء الى الحق ، لأن المصدر الوحيد لنور الهداية فضل الله ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

[32]ثم بين المستكبرون أنهم بدورهم كانوا غاوين ، و أن اتباع المستضعفين لهم كان يؤدي بهم الى الغواية . وهكذا يتحمل المستضعفون كامل المسؤولية عن ضلالتهم لأنهم اتبعوا رجالا ضالين . و هل ينتظر لمن اتبع ضالا أن يهتدي السبيل ؟

]فأغويناكم إنا كنا غاوين[

إن أبسط أحكام العقل و أوضحها هو ضرورة اتباع الهداة المهديين ، و هؤلاء الذين يقلدون أو يتبعون الضالين يحتج عليهم ربهم بهذا الحكم الذي هداهم اليه العقل بوضوح شديد.

(1)نهج البلاغة / وصية ٤٧ / ص ٤٢٢

[33]وردا على تبريرات هؤلاء وأولئك يؤكد القرآن بأن الظلم المشترك بين المستكبرين بجورهم ، و المجتمع بسكوته و سلبيته ، سوف يؤدي الى المصير الواحد ، و الجزاء الجامع ، و هذا بالضبط معنى المسؤولية.

]فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون[

و لعل الآية الكريمة تشير الى فكرة هامة ، من شأنها - لو فهمها الانسان ، و تعمق فيها ، و عمل بها - أن تزكي نفسه و تربيها على الإيمان ، و هي أن يحمل كل فرد نفسه المسؤولية و يتهمها باستمرار ، أنى كان دور الآخرين ، و هذه من صفات المتقين الذين وصفهم إمامهم علي (ع) بقوله:

"و لقد خالطهم أمر عظيم ! لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون ، إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري ، و ربي أعلم بي مني بنفسي ! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ،و اجعلني أفضل مما يظنون ، و أغفر لي مالا يعلمون (1) "و نعرف دور هذه النظرة من المؤمن تجاه نفسه إذا عرفنا طبيعة النفس البشرية التي تعيش التبرير و الأعذار و تسعى للفرار من ثقل المسؤولية ، و بكلمة : لابد أن نعرف بأن ذهاب الظالمين الى النار ، و تحملهم العذاب الأليم ، لا يعني براءتنا ، بل قد يكون دليلا على العاقبة الواحدة لهم و لنا ، إن كنا ساكتين عنهم ، راضين عن فعالهم.

[34]و حتى لا يتصور الإنسان بأن هذا الحديث ينصرف الى جماعة كانت في(١) نهج البلاغة / خ ١٩٣ / ص ٣٠٤.

التأريخ الغابر ، بالذات و أن الإشارة إليهم كانت بالضمير الغائب " فإنهم " يلحق القرآن حديثه عنهم بتأكيد مستقل على أن هذا المصير يشمل كل مجرم ، فعاقبة المجرم الذي يخالف سنن الله ، و يتبع هوى النفس ، و يعبد ذاته ، و يلحق الأذى بغيره ، العذابالأليم.

]إنا كذلك نفعل بالمجرمين[

[35]من هم هؤلاء المجرمون ؟ وما هي صفاتهم ؟ و كيف نتقي مصيرهم الأليم.

ينساب السياق في بيان ذلك تمهيدا لبيان من يخالفهم و هم المتقون ، لتكتمل الصورة لمن أراد النجاة ، و يحق القول على الجاحدين.

و أعظم ميزات المتقين التوحيد ، كما أن الشرك بالله أخطر ذنوب المجرمين ، الذين يرفضون التسليم للإله الواحد ، و يتخذون الأنداد من دون الله . إن رفض السلطات الفاسدة ، و الأنظمة المنحرفة ، و التقليد الأعمى لرجال ضالين ، الشرط الأول لرسالات الله.

]إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون]فهم ليسوا على الخطأ و حسب ، إنما و يتصورون أنفسهم على الحق ، و لو جاءهم من يبين خطأهم رفضوه ، و اخذتهم العزة بالإثم ، و هذه من العقد النفسية الخطيرة التي ينبغي للإنسان اجتنابها ، ذلك أن المقياس في الإيمان بالله هو التسليم للحق في كل الأحوال متى تبين ، و لو خالف العرف الإجتماعي أو اعتقادات الفرد و سيرته السابقة . ولا شك أن اعتراف الإنسان الفرد أو الأمة بخطئه و الذي قد يستتبع التغيير الجذري في الحياة أمر صعب جدا ، و لكنه يأخذ به الى العاقبة الحسنةفي الدنيا والآخرة ، ومن أمثلة هذه الحقيقة على صعيد الأمم قوم يونس (ع) الذين قال الله عنهم " : فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و متعناهم الى حين " . (١)ومن امثلتها على صعيد الأشخاص و التي تبين صعوبة الأمر نذكر هذه القصة المؤثرة من التأريخ ، ففي بحار الأنوار:

عن علي بن أبي حمزة قال : " كان لي صديق من كتاب بني أمية ، فقال لي إستأذن لي على أبي عبد الله ، فاستأذنت له ، فلما دخل سلم و جلس ، ثم قال : جعلت فداك ! أني كنت في ديوان هؤلاء القوم ، فأصبت من دنياهم مالا كثيرا ، و أغمضت في مطالبه ، فقال أبو عبدالله : لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم ، و يجبي لهم الفيء ، و يقاتل عنهم ، و يشهد جماعتهم ، لما سلبونا حقنا ، ولو تركهم الناس و ما في أيديهم ما وجدوا شيئا إلا ما وقع في أيديهم ، فقال الفتى : جعلت فداك فهل لي من مخرج منه ؟ قال : إن قلت لك تفعل ؟ قال: أفعل ، قال : اخرج من جميع ما كسبت في دواوينهم ، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله ، و من لم تعرف تصدقت به ، و أنا أضمن لك على الله الجنة ، قال : فأطرق الفتى طويلا فقال : قد فعلت جعلت فداك ، قال ابن أبي حمزة ، فرجع الفتى معنا الى الكوفة ، فما ترك شيئا على وجه الأرض إلا خرج منه ، حتى ثيابه التي كانت على بدنه ، قال : فقسمنا له قسمة ، و اشترينا له ثيابا ، و بعثنا له بنفقة " . (٢)[٣٦] ولأن العمل بمضامين التوحيد صعب هكذا ، نجد الكثير من الناس يستكبرون ولا يستمعون للموعظة ، و تأخذهم العزة بالإثم ، بل يتهمون صاحب الرسالة بأرخص التهم ، كما قالوا للأنبياء أنهم شعراء (و نفوا بذلك منهم الحكمة(١) يونس / ٩٨.

(2)بح / ج ٧٥ / ص ٣٧٥.

و الاهتداء) ثم قالوا أنهم مجانين ، كما أنهم اتهموا الرسل بحب الرئاسة ، و أن دعوتهم الى الله ليست سوى وسيلة للتأمر عليهم.

]و يقولون أإنا لتاركوا ءالهتنا لشاعر مجنون[

و هكذا يجب ان يعرف الرساليون صعوبة الإصلاح الحقيقي المتمثل في التوحيد ، و يتفهموا العقبات التي تعترضهم في الوصول اليه ، حتى لا يصيبهم الاحباط أو اليأس حينما يصطدمون بالرفض في بادىء الأمر ، فالأنظمة الطاغوتية و حتى بعض الناس سوف لا يكتفون برفض دعوتهم ، بل سوف يثيرون الشبهات حول اشخاصهم .

[37]و يجب على الرساليين أن يقيموا مسيرتهم على مقياس الحق ، و هو القرآن و سنة الرسول و أهل بيته - صلوات الله عليهم - ، ليزدادوا ثقة برسالتهم ، و ليعرفوا اخطاءهم حتى لا يعتبروا موقف الناس والأنظمة مقياسا لمعرفة الحق ، لأن الناس بجهلهم و سلبيتهم النفسية ، و الأنظمة بعدائها ، سوف يثيرون زوابعا من الشتائم و الدعايات المغرضة ضدهم.

]بل جاء بالحق[

و الحق يدل بذاته على ذاته ، فإن لكل حق حقيقة ، و على كل صواب نورا.

و فرق واضح بين الحق الذي يدعو اليه النبي و الشعر الذي لا يدعو الى شيء ، و ليس سوى إثارة الخيال ، و ترديد الأفكار الشائعة ، و تمجيد العادات الجاهلية.

و لأن مقياس الجاهليين لم يكن الحق إنما التراث و الواقع القديم لم يجدوا التقاءا ولا انطباقا بين ما عندهم و بين الرسالة الالهية.

]و صدق المرسلين[

وعادة يدعي أصحاب الباطل أنهم ينتمون الى الرسالات الأولى ، و إنما ينتمون الى أهوائهم ، و القرآن يردهم بأن النبي يصدق المرسلين ، فرسالته ليست سوى تجديد لتلك الرسالات ، و لو صدقوا في انتماءهم إليها لآمنوا بهذه أيضا.

و بالتدبر في الآيتين (٣٥ - ٣٦] يمكننا القول بأن هناك سببين رئيسيين وراء كفر هؤلاء بالرسالة ، هما الإستكبار على الحق ، و المقاييس الخاطئة لمعرفته.

[38]وفي نهاية الدرس يؤكد الله للكفار و المشركين (المجرمين) أنهم سوف يذوقون العذاب.

]إنكم لذائقوا العذاب الأليم[

والآية تشير الى أن الله يحشر المجرمين في تمام وعيهم و إحساسهم المادي و المعنوي ، من أجل تذوق العذاب باعمق ما يمكن للإنسان.

[39]و الى جانب هذا التأكيد على العذاب ، نجد تأكيدا آخر على العدالة الإلهية ، و أن الجزاء بقدر أعمال البشر بل هو ذات أعمالهم.

]و ما تجزون إلا ما كنتم تعملون[

والآية تعمق و تؤكد في نفس الإنسان مسؤوليته التامة عن كل ما يصدر عنه ، من قول و عمل و سلوك . قال الرسول (ص: (

"لما أسري بي الى السماء دخلت الجنة فرأيت فيها الملائكة يبنون لبنة من ذهب ، و لبنة من فضة ، و ربما أمسكوا ، فقلت لهم : مالكم ربما بنيتم وربماأمسكتم ؟ فقالوا : حتى تجيئنا النفقة ، فقلت : وما نفقتكم ؟ فقالوا : قول المؤمن في الدنيا : " سبحان الله ، و الحمد لله ، ولا اله الا الله ، و الله اكبر " . فإذا قال بنينا ، و إذا أمسك أمسكنا " (١)و الذي يشعر بهذه الحقيقة - أن مستقبله رهين عمله - سوف يسعى جهده لتصحيحه و إتقانه وبنائه و فق ما يريده الله سبحانه.

(1)بح / ج ٩٣ / ص ١٦٩.

إلا عباد الله المخلصين

هدى من الآيات

بعد تكريس المسؤولية المتجلية في الجزاء يوم القيامة ، و قطع الأعذار الواهية التي يتشبث بها المستضعفون ، يبين القرآن حال عباد الله المخلصين ، الذين أخلصوا ولاءهم لقيادتهم الشرعية ، و أخلصهم الله من شوائب الشرك و آثار الضغوط التي تنقسم الى نوعين : الأول : ضغط المجتمع المتجلي في قرين السوء ، الثاني : الضغط التاريخي المتمثل في الآباء.

لهؤلاء عباد الله المخلصين رزق معلوم (غير منقطع و هو جزاء أعمالهم المعلومة عند ربهم (فواكه (كرزق مادي) وهم مكرمون (كرزق معنوي) و هم في جنات النعيم يجلسون على سرر متقابلين (يتجاذبون اطراف الحديث لفراغ بالهم و مشغولون بالتالي بلذة المؤانسة) يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها هلاك ومرض ، و الى جنبهم الحور كأنهم بيض مكنون (تتلألأ بشرتهن اشراقا) .

و تكتمل النعم عندهم حين يطلعون على قرناء السوء الذين حاولوا عبثا أغواءهم ، و بعد ان يبين السياق هلاك اولئك من كفرهم بالجنة ، ينقل خطاب المخلصين لهم بأنه لولا نعمة الله لكانوا من المهلكين ، ثم يسدل الستار على هذا المشهد بعد أن يقرروهم أفما نحن بمعذبين ؟ و يذكرنا القرآن بان ذلك هو الفوز العظيم الذي لمثله فليعمل العاملون.

و يكشف عن مشهد آخر حيث شجرة الزقوم ، التي هي حسب الظاهر ذنوب أهل النار تصبح طعاما لهم هناك و هي فتنة (في الدنيا) للظالمين و هي تنبت في أصل الجحيم ، و لكن فروعها في بيوتهم ، اما طلعها فكانه رؤوس الشياطين (الذين خدعوهم بها في الدنيا) . انهم ياكلونمنها حتى يملأوا بطونهم (كما أكلوا المال الحرام) ، ثم يشربون عليها ماء حميما يقطع امعاءهم (كما شربوا الشراب الحرام في الدنيا) ، ثم يعودون جميعا الى الجحيم (كل ذلك) لانهم اتبعوا آباءهم و هرعوا الى آثارهم يقلدونهم فيها على غير هدى.

بينات من الآيات

[40]بعد حديثه عن مصير المجرمين ، يذكرنا القرآن بمشهد مشرق من الآخرة حيث عباد الله المخلصون ، في جنة ملؤها النعيم و الرحمة و التي لا تعطى عبثا انما بثمن ، واول واهم ثمن يشتري به العبد الجنة هو الاخلاص ، و اذا كان العمل بذاته صعب ، فالاخلاص فيه أصعب ، لانه يعني الانقطاع نفسيا و اجتماعيا و اقتصاديا و سياسيا و .. و .. عما سوى الله ، حفاظا على حقيقة التوحيد.

فقد يصلي الانسان لان الصلاة تدر عليه الربح ، و ترفعه درجة في الناس ، و تعطيه قوة في الجسم و ما اشبه ، فهو يصلي نتيجة لتفاعل عدة عوامل دفعته بهذا الاتجاه ، فاذا انعدمت هذه العوامل ، او وجدت اخرى تعاكس مسيرة الصلاة كمالو وجد نفسه في بلد اجنبي لا يصلي أهلها ، و أو صعبت عليه الصلاة لنعاس شديد أو برد أو حر فانه يتركها و ربما يحاربها ، لان الذي يصلي لارضاء الناس ، سوف يشرب الخمر حين يكون فيه رضا الناس ، و من هذا المنطلق صار الاخلاص اهم من العمل و كميته.

قال الامام علي (ع: (

"تصفية العمل خير من العمل (1) "

و قال (ع: (

"تصفية العمل اشد من العمل ، و تخليص النية عن الفساد أشد على العاملين من طول الجهاد " (٢)و الاخلاص هو أن تعمل في كل الظروف و بنية صافية بعيدا عن التأثر بالعوامل المضادة للعمل ، و هذا ما لا يدركه أحد الا حينما تكون شخصيته (ثقافة و سلوكا) مصاغة بالقيم الرسالية الصحيحة ، و ليس بالظروف و الضغوط أو ردود الفعل و المصلحة.

و ربما لذلك قال القرآن " المخلصين " بفتح اللام ، و ليس المخلصين بكسرها ، و القرآن لم يستخدم الصيغة الثانية أبدا ، و المخلص هو الذي اخلصه الله و صفى نفسه و حياته من الشوائب و المؤثرات ، حتى اصبحت أعماله كلها لوجه الله وحده لا شريك له ، و لعل الآية الكريمة : " انما يتقبل الله من المتقين " (٣) تهدينا الى ذات(١) بح / ج ٧١ / ص ٩٠.

(2)بح / ج ٧٧ / ص ٢٨٨.

(3)المائدة / ٢٧.

المفهوم.

و الشيء الذي يبني عليه الاسلام أساس الاخلاص هو الاستمرار فيه ، و الا فإن الانسان كل انسان قد يعيش لحظة يخلص فيها لله عمله و دعاءه ، فالعمل الواحد لا يقبل منفردا ، انما يضم الى عموم مسيرة الانسان ، و الذي لا شك فيه ان الواحد لا ينعت بخلق ما الا اذاصار عادة له و سلوكا.

فالذي يصوم شهر رمضان المبارك ، و في الاثناء ، او بعده و قبله يغتاب الناس و يأكل المال الحرام ، أو يترك جانبا من الدين كالجهاد لا يكون متقيا ، فصومه لا يقبل ولا يكون مخلصا من هذه صفته ، لان تأثره بدوافع الغيبة يشير الى أن شخصيته لم تزل مزيجا من الايمان و الكفر ، فبينما ينطلق صومه من قاعدة الايمان في نفسه ، تنطلق الغيبة من دوافع الكفر.

و انما يدخل الله الجنة الذين اخلصوا ايمانهم و عملهم بالمعنى المتقدم بغير حساب ، و من سواهم يدخلهم بعد الحساب و التطهير ، و على هذا جاء في الاخبار : ان من المؤمنين من يلبث في النار مئات ، و بعضهم عشرات السنين ، كل بنسبة انحرافه ، و رواسب الكفر التييجب ان تطهر قبل الدخول في الجنة . و في الرواية قيل للامام موسى بن جعفر (ع) : مررنا برجل في السوق و هو ينادي : انا من شيعة محمد وآل محمد الخلص ، و هو ينادي على ثياب يبيعها :من يزيد ؟ فقال موسى (ع: (

ما جهل ولا ضاع امرء عرف قدر نفسه ، اتدرون ما مثل هذا ؟ هذا شخص قال : انا مثل سلمان وابي ذر و المقداد و عمار ، وهو مع ذلك يباخس الناس في١١ + بيعه ، و يدلس عيوب المبيع على مشتريه و يشتري الشيء بثمن فيزايد الغريب يطلبه فيوجب له ، ثم اذا غاب المشتري قال لا اريده الا بكذا ، بدون ما كان طلبه منه ، ايكون هذا كسلمان و ابي ذر و المقداد و عمار ؟ حاشا لله ان يكون هذا كهم " (١)[إلا عباد الله المخلصين[

[41]و القرآن يحدثنا عن جانب من الرزق ، الذي يصير اليه المخلصون لا حصرا انما اشارة ، والا ففي الجنة مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

]أولئك لهم رزق معلوم[

و المعلوم هو الشيء المعروف المحدد بالمعرفة ، و يبدو ان رزق المخلصين يكون معلوما بالجنة فلا ينقطع حينا و يتصل حينا ، و يكون معلوما لانه جزاء أفعالهم وهي معلومة عند ربهم ، و قالوا ان معنى ذلك ان رزق المخلصين يأتيهم كاملا كما يريدون و يتصورون بعلمهم ،و هذه الارادة و الميول تنتقل بارادة الله الى اذهان الخدم ، فيأتونهم بما يريدون قبل ان يطلبوه ، قال رسول الله (ً) : " اولئك لهم رزق معلوم " :

"يعلمه الخدام فيأتون به اولياء الله ، قبل ان يسألوهم اياه " (٢)[٤٢] و يفصل القرآن في ذكر الرزق ، تشويقا لنا للاخلاص ، و للمخلصين على الاستقامة.

(1)بح / ج ٦٨ / ص ١٥٧.

(2)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٠٣.

]فواكه[

يشبعون بها حاجاتهم الكمالية ، أما حاجاتهم الضرورية فقد قال البعض ان اجسامهم خلقت للبقاء فلا تحتاج الى طعام حاجة ضرورية ، و يحتمل ان يكون توفر الفواكه لديهم يغنيهم عن الطعام الضروري ، أو ليس أكل الجنة دائما وظلها ؟

و تنضم الى هذه اللذات اعظم نعمة يشعر بها المؤمنون المخلصون ، و هي الكرامة من عند الله ، فهم يأكلون الفواكه و شعورهم عميق برضى الله عنهم.

]و هم مكرمون[

و لعلنا نستوحي من كلمة مكرمون ان المخلصين يفدون الى الجنة على رزق معلوم و محدد ، لكن الله يكرمهم كل حين ليزدادوا فضلا من عنده . وفي الحديث:

"فانهم لا يشتهون شيئا في الجنة الا اكرموا به " (١)[٤٣] [في جنات النعيم[

و الجنة هي البساتين الكثيرة الزرع و الشجر ، بحيث تلتقي فيها الاغصان و الاوراق فتختفي ارضها ، تحت ظلال الاوراق و الكلمة تفيد التنوع ، لان الجنة لا تطلق على النوع الواحد من الزرع ، أما كلمة النعيم فهي مبالغة في النعمة للكثرة و الجودة.

[44]ولان المؤنس من الحاجات النفسية للبشر ، فقد جعل الله المؤمنين يأنسون ببعضهم في الجنة فإذا بهم كما يصفهم القرآن:

(1)المصدر.

]على سرر متقابلين[

[45]و في الاثناء حيث يدور الكلام بين عباد الله.

]يطاف عليهم بكأس من معين[

و هو الذ الشراب ، خمرا كان أو ماء أو غيرهما ، كما ان المعين الذي لا ينضب ، فتارة يكون الشيء لذيذا لكنه ينتهي بسرعة ، و تارة يكون لذيذا ولا ينتهي .

[46]و يجتمع الى لذة الشراب جماله و جمال كأسه تأكيدا لها ، فالكأس من الفضة اللامعة.

]بيضاء لذة للشاربين[

و قد يكون البياض وصفا للمعين ، ففي الحديث عن الامام الحسن (ع: (

"خمر الجنة اشد بياضا من اللبن " (١(

[47]و هذا الشارب خال من العيوب فلا يمله المؤمنون او يرفضونه.

]لا فيها غول[

وهو السكر أو الارهاق الذي يلحق بالشارب فيغتال عقله وقواه ، أو المرض الذي ينتهي به الى الموت ، و منه الاغتيال وهو القتل سرا ، هذا من جانب ، و من جانب آخر لا يبعد المؤمنون عن شراب الجنة بنضوبه ، أو بارادة اخرى تفرض عليهم.

(1)المجمع / ج ٧ - ٨ / ص ٤٤٣.

]ولا هم عنها ينزفون[

و يقال نزف الماء اذا ابعد وأزيح عن العين.

[48]و من نعيم المخلصين الازواج المطهرة في القصور.

]و عندهم قاصرات الطرف عين[

و للقصر ثلاثة تفاسير:

الاول : ان القاصرات هن النساء اللاتي ينحصر نظرهن الى ازواجهن ، و بالتالي تحد شهوتهن في ازواجهن ، فانظارهن قاصرة عن غيرهم.

الثاني : القاصرة الطرف هي قليلة الشعر في حاجبيها ، و هذه من جمال المرأة.

الثالث : وقال المفسرون قاصرات الطرف اللواتي ارسلن نظرهن الى الارض تواضعا و حياء ، و هذه من الصفات الحسنة في المرأة.

اما العين فهي جمع عيناء ، و العيناء واسعة العين شديدة و كبيرة السواد فيها ، و ناصعة البياض ، و هذه هي الاخرى من الصفات الجمالية الحسنة في المرأة .و لعله لذلك كان شعراء العرب قديما ، يشبهون في غزلهم عيون النساء بعيون البقر الوحشي (المها) التي تشتمل على نسبة من هذه الصفات.

[[49]كأنهن بيض مكنون[

و المكنون هو المحفوظ ، فهن محفوظات لم يمسهن احد قبلهم ، و من صفات البيض عندما يجمع الى بعضه ، انه ينصع بالبياض ، حتى ليكاد يضيء ، و في ذلك اشارة لجمال بشرتهن.

و الملاحظ ان الآيات الكريمة تعرضت بالذكر لمجموعة غرائز في الانسان بينها غريزة الاكل و الشرب و الجنس ، التي يجد الانسان حوافز و دوافع داخلية و خارجية على اشباعها ، و ربما اشبعها بالحرام ، و ذلك تطميعا لنا فيما عند الله ، حتى نترفع عن الاكل الحرام المشوب بالذلة بذكر رزق الجنة و كرامته ، و عن الشرب الحرام بالرغبة في شرابها ، و عن اللذة المحرمة بذكر حورها الحسان.

جاء في بيان دعائم الايمان على لسان الامام علي (ع) ما يدل على ذلك اذ قال:

"فمن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات"

[50]و يعرج القرآن من الجانب الآخر ليطلعنا على حال المكذبين بالرسالات ، العاصين لله ، ليشجعنا ذلك الرجاء على الطاعة ، و ليمنعنا هذا الخوف عن المعصية ، و يدخل السياق الى هذا الموضوع ، من خلال عرضه لجانب من حديث المخلصين الذين جلسوا على سررهم يستريحون لبعضهم البعض ، بالحديث عن النعيم الحاضر و عن الحياة السابقة.

]فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[

و الاقبال هنا دلالة على الإشتياق لبعضهم ، و للحديث الذي يدور بينهم.

] [51]قال قائل منهم إنى كان لي قرين[

يعني الرفيق.

[53 - 52]و لم يكن صالحا ، بل كان يدعو الى النار ، و ليس شرطا ان الصديق الذي يعنيه القرآن بهذه الآيات هو الذي يصرح بكفره و ضلاله فيدعو لنبذ الدين و اقتراف المعصية ، بل يشمل المعنى كل قرين توحي رفقته و سلوكياته أواقواله الى الكفر.

]يقول أإنك لمن المصدقين * أإذا متنا و كنا ترابا و عظاما ءإنا لمدينون]اي مسؤولون و مجازون ، و هذا الاعتقاد هو الذي يسوق البشر للظلم والانحراف ، لأنه لا يعتقد بمسؤولية تجاه أقواله و أعماله.

[54]و من كمال النعم و تمام السرور معرفة الانسان بانه قد نجي من شر عظيم و مهلكة لم ينج منها الأخرون ، فما اعظم لذة من تحطمت به السفينة في عرض البحر و ابتلعت امواجه الهادرة كل من فيها سواه حيث تعلق بخشبة و قاوم الامواج ، و استبسل في السباحة حتى نجاه الله في اللحظة الاخيرة . انه سوف يزداد احساسا بالراحة كلما تذكر الحادثة ، و يكاد يطير فرحا عندما يتصور الامواج التي كانت تتلاحق على خشبته ، و كان ينادي اصحابه اليها فلم يستجيبوا له ، و شهد مهلكهم بغيهم . اليس كذلك ؟ هكذا يتم الله نعمته على المؤمن وهو يتذكر قرناء السوء الذين قاوم تضليلهم و ضغوطهم فذهبوا الى النار ، و نجي منها . وها هو يراهم يتقلبون فيها يائسين وهو في الجنة من المكرمين.

]قال[

لرفاقه المخلصين.

]هل أنتم مطلعون[

اي هل انتم تتكلفون الاستطلاع حتى نعرف مصيره ؟

[55]و لكنه لفرط شوقه اخذ يبحث عنه شخصيا دون انتظارهم.

]فاطلع فرءاه في سواء الجحيم[

يعني وسطها ، حيث يتركز العذاب و الحريق و تحوطه النار من كل جانب كما كان في الدنيا محاطا بالذنوب و المعصية ، و لعل التطلع هناك هو تكلف الذهاب الى ناحية والا فاهل الجنة لا يسمعون حسيس النار.

[56]و هناك يكتشف المؤمن مدى خطورة الصديق السيء.

]قال تالله إن كدت لتردين[

و التردي هو السقوط من شاهق ، و في هذا اشارة الى ان المخاطب في واد سحيق من النار.

] [57]و لولا نعمة ربي لكنت من المحضرين[

في العذاب ، و تتمثل النعمة الالهية هذه في الاسباب التي تؤدي بالانسان الى النجاة من الانحراف ، و من ثم من عواقبه ، كالعقل و الرسالة و المرشدين للحق ، ولا شك ان اعظم نعم الله على البشر هي نعمة الهداية.

[59 - 58]و يشير القرآن على لسان المؤمنين الى اخطر فكرة يحاول المنحرفون من خلالها اضلال الناس ، و التاثير على المؤمنين ، و هي فكرة الكفر بالآخرة حيث الجزاء الأوفى.

]أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى و ما نحن بمعذبين]على الاخطاء و الذنوب ؟!

[60]و لعل الله هو الذي يلقي في قلوب اوليائه من أهل الجنة ، ان يشرفوا علىالنار للاطلاع على أهلها ، لكي يشعروا عميقا بلذة الهداية و الطاعة و النعيم ، ذلك ان من طبيعة الانسان احساسه بالحقائق عن طريق معرفة نقائصها ، لهذا نجد المؤمن وقد اطلع على قرين السوء في العذاب ، بينما يتعمق وعيه بعظمة نعم الله عليه يقول:

]إن هذا لهو الفوز العظيم[

نعم ان طريق الحق مليء بالعقبات و المصاعب ، و لكنه الافضل مادام ينتهي الى الجنة ورضى الله.

[61]و كخلاصة لكل ما تقدم من ذكر الجنة و النار ، يؤكد القرآن بان الهدف الصحيح ، الذي يجب على الانسان العمل له ، هو الوصول الى الجنة ، لانها الهدف الأعظم الذي اذا حققه الفرد فقد فاز ، والا فهو لم يحقق شيئا ، قال الامام علي (ع: (

"ما خير بخير بعده النار ، وما شر بشر بعده الجنة ، و كل نعيم دون الجنة فهو محقور ، وكل بلاء دون النار عافية " (١)و يقول تعالى:

]لمثل هذا فليعمل العاملون[

و قد نستوحي من التدبر في الآيات الكريمة : ان الانسان يواجه في حياته نوعين من الضغوط.

الاول : الضغط القادم من المجتمع المعاصر ، و الذي يتجلى بصورة واضحة في(١) نهج الحكمة . 387 /

قرين السوء ، فمثلا اذا عاش المؤمن في مجتمع يستخف بالصلاة فلابد ان يتعرض لضغط هذا المجتمع باتجاه ترك الصلاة ذلك ان للمجتمع - اي مجتمع - قوة هائلة باتجاه التجانس معه ، و فرض قيمه الخاصة على افراده بالتربية و التثقيف او الترغيب و الترهيب ، و لكن ما هورأس الحربة في ضغط المجتمع على الفرد ؟ انه الصديق اذ يكون حلقة الوصل بينه و بين سائر ابناء المجتمع.

و هكذا ينبغي ان يصمد الانسان امام ضغوط اصدقائه و قرنائه ولو كان على حساب صداقتهم ، فهذا امير

المؤمنين عليه السلام يقول:

"ما ترك الحق لي من صديق "

[62]الثاني : الضغط القادم من الاجيال السابقة ، و يتجلى هذا الضغط بصورة مركزة في الاب ، ذلك ان الانسان لا يرى الاجيال السابقة ولا التاريخ الماضي ، ولكن ذلك يصله عبر أبيه.

و يبدو ان القرآن حتى الآية السابقة حدثنا عن الضغط الاول ، اما بقية الآيات من هذا الدرس فهي اشارةالى الضغط الآخر ، يقول تعالى:

]أذلك خير نزلا[

اي الجنة التي هي عاقبة المؤمنين المخلصين.

]أم شجرة الزقوم[

التي هي عاقبة المكذبين ؟!

و كأن القرآن بهذا التساؤل الذي جاء بعد عرض العاقبتين ، يخيرنا بين الجنةو النار ، بأثارة تفكيرنا نحو الاجابة على هذا التساؤل ، اما عن معنى شجرة الزقوم ففيه تفسيران:

الاول : ان قريشا لما سمعت هذه الآية ، قالت :ما نعرف هذه الشجرة ، فقال ابو جهل لجاريته : يا جارية ! زقمينا . فأتته الجارية بتمر وزبد ، فقال لاصحابه تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد ، فيزعم ان النار تنبت الشجر ، و النار تحرق الشجر فانزل الله سبحانه:
"إنا جعلناها فتنة للظالمين " . (١(

الثاني :وهو الاقرب ، ان الانسان ياكل في الدنيا من هذه الشجرة ، و لكنه لا يشعر انه يأكل منها ، الا في الآخرة حيث يكشف الله عن بصره ، و يرى الحقائق بواقعها ، فالكذب ، و أكل اموال الناس ، و شرب الخمر ، .. كل ذلك ورق في شجرة الزقوم التي يطعم منها أهل النار.

وفي سورة الواقعة التي تعالج جانبا من موضوع هذه السورة اشارة واضحة لهذا المعنى اذ يقول تعالى : "ثم انكم ايها الضالون المكذبون ، لاكلون من شجر من زقوم * فمالؤون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم " (٢) ثم يؤكد هذا المعنى في آخر السورة اذ يقول عز وجل مخاطبا المكذبين بالقرآن والضالين " : و تجعلون رزقكم انكم تكذبون " . (٣)[٦٣] ولا ريب ان الكذب واكل اموال الناس وسائر الشهوات التي يواجهها الانسان ، تجعله على مفترق الطريق ، بين الحق و الباطل ، و الجنة و النار ، و بالتالي فهو مبتلى و ممتحن امامها ، ولا شك ايضا ان هذه الامور بشعة كبشاعة شجرة الزقوم(١) المجمع / ج ٧ - ٨ / ص ٤٤٦.

(2)الواقعة / ٥١ - ٥٥.

(3)الواقعة / ٨٢.

التي هي التجلي الحقيقي لهذه المعاصي ، و لكن الانسان يتجاهل ذلك ، او يغفل عنه فينجرف مع شهواته ، ليزرع بذنوبه اشجار الزقوم فتكون طعامه في الآخرة.

]إنا جعلناها فتنة للظالمين[

اما المؤمن فهو لا يفتتن بها ، انما يرتفع بايمانه عن حضيض المعصية ليزرع لنفسه بعمل الصالحات الجنان الواسعة.

[64]و بعد الاشارة الى شجرة الزقوم و طبيعتها الفاتنة في الدنيا ، يصورها لنا القرآن بواقعها في الآخرة ، حيث الجزاء المتجانس و عمل الانسان.

]إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم[

وقد روي:

"ان الله تعالى يجوعهم - يعني اهل النار - حتى ينسوا عذاب النار من شدة الجوع ، فيصرخون الى مالك ، فيحملهم الى تلك الشجرة وفيهم ابو جهل ، فياكلون منها فتغلي بطونهم كغلي الحميم " (١)و في رواية انها شجرة عظيمة لاهل النار عامة ، و لها في كل منزلة من الجحيم غصن يأكل منه الذين يعذبون فيها.

] [65]طلعها كأنه رؤوس الشياطين[

و الطلع حمل النخلة في بدايته ، يخرج من بين الليف و الخضر ، و هو يشبه غمد(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٠٤.

الخنجر في أوله و أقربة السيوف قبل ان يتشقق عن شماريخ البسر و الرطب ، و ربما سمي طلعها لطلوعه بما يشبه طلوع الهلال ، أو لانه اول ما يطلع من الثمر.

[66]ولان اصحاب النار يشعرون بضراوة الجوع ولا يجدون ما يأكلون ، فانهم يكلون طلع الزقوم و ثمرها.

]فإنهم لأكلون منها فمالئون منها البطون[

كما ملآوا بطونهم بالحرام في الدنيا.

[67]و بعد الاكل من الزقوم يحسون باشد العطش ، فيطلبون الماء فيشربون السوائل الحارة ليطفؤوا حرارة النيران التي أكلوها ، و اذا بها تزيدهم عذابا الى عذابهم.

]ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم[

وفي الرواية:

"فيستسقون فيسقون شربة من الماء الحار الذي بلغ نهايته في الحرارة فاذا قربوها من وجوههم شوت وجوههم ، فذلك قوله : " يشوي الوجوه " فإذا وصل الى بطونهم صهر ما في بطونهم " (١)[٦٨] إنهم يتصورون الماء الذي يطلبونه سوف يخرجهم من هذا العذاب والاحتراق ولكنه ينتهي بهم الى ذات العذاب .

]ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم[

(1)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٠٤.

و لعل هذه الحالة من النهم الى الزقوم و الحميم في النار تجسيد لنهمهم في الدنيا باكل اموال الحرام ، و مداومة الشراب الحرام ، اعوذ بالله منهما.

[70 - 69]وفي النهاية يصرح السياق بالضغط التأريخي ، الذي يتسبب في اضلال الكثير من الناس.

]إنهم الفوا ءاباءهم ضالين[

و كان يفترض فيهم ان لا يتبعوهم بل يبحثوا عن الحق ، و توجهنا الآية الى ضرورة المسيرة الواعية في حياة الانسان ، حيث ينبغي له ان ينظر و يفكر فيها ، فيلتزم الحق عن وعي لا عن وراثه و عادة ، ثم ما يدري الفرد أو المجتمع ان مسيرته خاطئة و الله يقول : " فلينظر الانسان الى طعامه " ، أي غذائه الجسمي و الروحي ليتأكد من سلامته ، و لكن هؤلاء لم يتعبوا أنفسهم في البحث عن الحق ، انما اتبعوا الاباء و تأثروا بهم.

]فهم على ءاثارهم يهرعون[

و لم يقل القرآن يهرعون (بالفتح) ، لان حركة الانسان باتجاه التقليد ليست حركة ارادية بصورة كاملة ، انما هي مجموع دوافع ذاتية ، و ضغوط خارجية من الآخرين ، و الآية تبين الضغط الذي يمارسه الاباء على ابنائهم لكي يتبعوهم .

فعلى الانسان اذن ان يقطع السبب المباشر ، فهو إذا لم يتأثر بذروة الضغط التأريخي المتمثلة في الاباء فلن يتأثر بالجيل السابق ، و اذا لم يتأثر بذروة الضغط الاجتماعي المتمثل في الاقران فلن يتأثر بالمجتمع المعاصر ، و الترفع عن هذه الضغوط ، هو الذي يسمو بالانسان الى الخلوص التوحيدي.

انا كذلك نجزي المحسنين

هدى من الآيات

حينما يبين لنا القرآن حقيقة أو حكما ، لا يلبث ان يضرب لذلك امثلة عديدة ليس للايضاح و حسب ، انما لبيان الابعاد و الحدود ايضا ، ذلك لان النفس البشرية قادرة على تحوير الالفاظ و تفريغها عن معانيها الحقيقية ، و تحويلها الى الفاظ قشرية غير مؤثرة ، بل وقدتعطي معاني غريبة عن المعنى الحقيقي.

فلكي لا يأتي بعض المفسرين القشريين ، أو بعض من تسول لهم أنفسهم تبرير الافعال والانحرافات للناس ، و يفسروا القرآن على اهوائهم و آرائهم ، لم يترك ربنا كلمة في القرآن الحكيم الا و اوضحها بالامثلة التاريخية التي لا يمكن نكرانها ، أو تبديلها و تأويلها الى غير مضامينها.

و اذ ذكرنا الله في الدروس الماضية بعابدة المخلصين ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، كنا بحاجة الى الامثلة التأريخية التي من شأنها احاطتنا بصفاتهم و خطهمو الطريق الى هذه القمة السامقة ، فربما زعمنا اننا من المخلصين ، أو منينا أنفسنا بذلك ، و لكن القرآن يقطع طريق التمني ، حينما يضرب لنا أمثلة من حياة انبياء عظام كنوح و ابراهيم و اسحاق و يعقوب - عليهم السلام - ، و يبين لنا مواقفهم الربانية في تحدي الجبتو الطاغوت ، ليقول لنا : بان من لا يتحدى الجبت الداخلي ، فيصرع هوى نفسه ، لا يستطيع ان يتحدى الطواغيت و يصرعهم.

ولأن هذه السورة تعالج في جانب منها مرض الاستكبار ، الذي يتعالى المبتلى به على الحق كذبا و زورا ، و توضح كيف انه سينتهي بالانسان الى جهنم انها توضح = في مقابل الاستكبار - صفة الاحسان ، فبينما تعني الاولى المبالغة في حب الذات و التمحور حولها ، تعني الاخرى التنازل عنها و عما يملك الانسان من الطاقات و القدرات في سبيل الحق و الناس . ان الاحسان هو خروج الفرد عن ذاته ، و دخوله في رحاب المجتمع ، و كما يدخل الاستكبار الانسان النار ، و يجعله لعنة الاجيال ، فان الاحسان يدخل صاحبه الجنة ، و يخلد ذكره الحسنو مديحه على ألسن الناس في كل أفق و زمان.

و القرآن في هذا الدرس ، يؤكد بان المحسن ليس يجازى من قبل الله في الدنيا و الآخرة و حسب ، و انما يمشي ثناؤه كالطيب بين الناس ، وقد اكد ربنا هذه الحقيقة في أكثر من آيتين بالنسبة لنبيه ابراهيم (ع) ، مما يدل على اهمية دور الاحسان في رسالة الانبياء و نبوتهم (ع. (

بينات من الآيات

[71]بعد ان يبين القرآن في الآيتين الاخيرتين من الدرس السابق دور الضغط من قبل الآباء في حياة الاجيال ، يبين لنا هنا ان هذه مشكلة البشر منذ القديم.

]و لقد ضل قبلهم أكثر الأولين[

بذات العامل ، و هو الاتباع الخاطىء للاباء.

[72]و لكن الله بعث لهم الانبياء و المرسلين ، يحذرهم من عاقبة الضلال بانذار ، لعلهم يهتدون للحق.

]و لقد أرسلنا فيهم منذرين[

[73]لكنهم كذبوا النذر ، و حاربوا الانبياء ، فدمرهم الله ، و ابقى آثارهم واخبارهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم.

]فانظر كيف كان عاقبة المنذرين[

و هذه مسؤولية الانسان في قبال التأريخ ، ان يستفيد منه لحياته و مستقبله ، و حين يدعو الله نبيه للنظر فيه ، فلإن وعي التأريخ يعطي الرساليين ثقة بانفسهم وخطهم ، و بصيرة في التحرك.

و بالتدبر في هذه الآيات والآية التي تليها يمكننا القول بان القرآن يختصر الدورات الحضارية في هذا المقطع.

[74]إن الله ليس يهب الجنة للمخلصين وحسب ، بل و ينصرهم في الدنيا و ينجيهم من الهلكات.

]إلا عباد الله المخلصين[

و نستوحي من الآية : أن الذين ينجون من انواع العذاب الالهي و النقمات ، هم المخلصون و حسب ، حتى جاء في الاحاديث ان الصواعق لا تصيب المؤمنينالذاكرين ، و معنى ذلك اننا لو قسمنا الناس الى ثلاثة : الكفار ، و المخلصين ، و آخرين بينهم ، فان المخلصين و حدهم الناجون ، اما الكفار فيخلدون في النار ، و الذين خلطوا عملا صالحا و أخر سيئا يعذبون كل حسب عمله.

[75]و كمثال على نجاة المخلصين يذكرنا الله بنبيه نوح (ع (، و الذي آمنوا معه ، فقد دعى نوح ربه على قومه فارسل عليهم الطوفان ، فما نجى منه غير نوح و من آمن معه وركب السفينة ، ممن ادخلهم القرآن مع أهله في مقابل إخراجه كنعان منهم ، ليهدينا الى أن النسب الحقيقي بين الانسان و الآخرين هو تجانس القيم و العمل في الحياة بينه و بينهم ، اما الاعتبارات الاخرى فهي غير سليمة . قال ابو عبد الله (ع) : " ان الله قال لنوح " : انه ليس من أهلك " لانه كان مخالفا له و جعل من اتبعه من أهله " (١)و يبدأ القرآن بذكر نوح (ع) لانه كما يسميه المؤرخون الاب الثاني للبشرية بعد آدم)ع. (

]و لقد نادانا نوح فلنعم المجيبون [

و لكن ماذا اراد نوح (ع) من ربه عز وجل حين ناداه ؟

قال بعض المفسرين إنه اراد هلاك قومه حينما عصوه ، و استدلوا بقوله تعالى عن لسانه (ع) : " رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا " (٢) . و قال اخرون إنه اراد من الله ان ينقذه من الكفار بعد سنين من الدعوة و الاذى الذي يلحقه بسببها . و ربما تفسر الآية بانه عليه السلام أراد من ربه الهداية و تشريفه بالرسالة لانقاذ الناس ، فربما كان الانبياء (ع) يعرفون بانهم سوف يبعثون ، ولكن لا يتنافى ذلك مع(١) بح / ج ١١ / ص ٣٠٥.

(2)نوح / ٢٦.

عدم معرفتهم متى سيكون بعثهم ، و لهذا نجدهم في البدء يتعجبون أو يخافون ، فلم يكن النداء الذي انبعث من جانب الطور الايمن أمرا عاديا بالنسبة لموسى (ع (، و كذلك نبينا الاكرم (ص) ، حينما نزل عليه جبرائيل بالرسالة لاول مرة ، ذهب الى البيت و تدثر.

و حينما يدعو الانبياء ربهم بالهداية و البعثة ، يستجيب لهم و قد هيأوا أنفسهم لتحمل مسؤوليات هذا العمل العظيم ، و الله سبحانه اعطى نوحا عليه السلام اكثر مما كان يتوقعه و ربما هذا معنى قوله " فلنعم المجيبون. "

[76]و بعد ان استجاب الله لنوح بالرسالة و ايده على قومه المنكرين بالطوفان الذي علا الارض حتى غمر الجبال العالية ، انجى نوحا والذين آمنوا معه.

]و نجيناه و أهله من الكرب العظيم [

[77]و ربما أسمى الله الغرق بالكرب العظيم لانه من افضع صور الموت للانسان فكيف وهو مقدمة لعذاب النار الخالد ؟ ، و تركيز القرآن على أهل نوح (ع (عند التعرض لقصصه ، لان الله حفظ بهم النوع البشري عن الانقراض ، و اهم من ذلك جعل فيهم النبوة ، و الكتاب وهما الحبل الممتد بين الناس و ربهم.

]و جعلنا ذريته هم الباقين[

قال الامام الباقر (ع) في تفسيرها :

"الحق و النبوة و الكتاب و الايمان في عقبه ، و ليس كل من في الارض من بني آدم من ولد نوح ، قال الله في كتابه : " احمل فيها من كل زوجين اثنين و اهلك الا من سبق عليه القول منهم ومن آمن وما آمن معه الا قليل " وقال ايضا:

"ذرية من حملنا مع نوح " (١ . (و مضى نوح و بقي ذكره الطيب تتوالى الاجيال بالسلام عليه.

] [79 - 78]و تركنا عليه في الأخرين * سلام على نوح في العالمين]و كان من الممكن ان تجعل صيغة الكلمة : و تركنا عليه سلاما . الا ان الصيغة طورت لتكون كلمة السلام تامة حتى يجري على لسان كل قارىء للقرآن سلام خاص لنوح عليه السلام.

[80]لقد استجاب الرب لنوح لانه كان محسنا.

]إنا كذلك نجزي المحسنين[

و هذا الجزاء سنة إلهية ذلك ان من يحسن للناس يذكره الناس بالمدح و الخير ، فكيف و قد أخذ الله على نفسه ان يجزي المحسنين بذلك ؟

و الملاحظ ان الله و بعد ذكر هباته لنوح (ع) الذي جعله مثلا للعبد المخلص وهي ، استجابة دعائه ، و نجاته و اهله و المؤمنين معه ، و جعل البشرية من ولده و النبوة فيهم ، و اخلاده بالذكر الحسن على ألسن الناس ، ذكرنا بصفة الاحسان فيه ، و ذلك ليطلعنا على التفسير الحقيقي للاخلاص بأنه المنطلقات التوحيدية الخالصة ، التي تتحول الى سعي و عمل يتجاوز القيام بالواجب الى الزيادة و الاحسان.

[81]و الايمان بالله هو اعظم دافع للانسان نحو الاحسان ، و هكذا نعت ربنا نوحا (ع) بعد الاحسان بالايمان لأنه اصل كل خير و فضيلة فقال:

(1)الاسراء / ١٧.

(2)بح / ج ١١ / ص ٣١٠.

]إنا من عبادنا المؤمنين[

و المؤمن لا يتخوف من البذل و الانفاق اللآخرين في سبيل ربه ، لانه يعلم بان كل ما ينفقه سوف يعود عليه اضعافا مضاعفة و يزداد احسانا كلما تعمق ايمانه بان مستقبله في الدنيا و الآخرة رهين عمله و تضحياته.

ان السبيل الى الاحسان ، الذي هو الطريق الى المكاسب الجسيمة ، كالتي ظفر بها نوح (ع) ، هو الايمان بالله عز وجل و بجزائه الأوفى.

[82]ثم ان المنجي الحقيقي لنوح و من آمن معه لم تكن السفينة التي صنعوها ، فلو ان الكافرين ركبوا سفنا اكبر و افضل منها ، لم تكن لتنقذهم من الغرق في موج كالجبال ، و ماء منهمر كالانهر من السماء ، انما نجوا بايمانهم الذي تميزوا به عن غيرهم ، و انما أمرالرب نبيه و المؤمنين بصنع الفلك ، اثباتا لمسؤولية الانسان في الحياة و تأكيدا لها ، و الا فإنه قادر على انقاذهم بكلمة من عنده.

]ثم أغرقنا الأخرين[

و هم الكفار.

[83]ثم ياتي لنا القرآن بمثل من الآخرين ، الذين ترك فيهم سلاما على نبيه نوح (ع) ، و هم الذين جسدوا امتدادا لرسالته في البشرية عبر التأريخ ، من الانبياء و الرسل ، و الصالحين.

]و إن من شيعته لإبراهيم[

و الشيعة هم الذين يتبعون شخصا أو خطا ما ، فيقال لهم شيعة فلان.

و قال المفسرون : ان الضمير في شيعته يعود الى نوح (ع) ، فيكون المعنى ان ممن سار على دربه كان إبراهيم (ع. (

و قال اخرون : إنه يعود الى النبي محمد - صلى الله عليه و آله - و الواقع ان التشيع للحق و متابعة رسل الله واحد ، فسواء نسب الى نوح (ع) أو الى محمد)ص) أو الى اوصيائه الطاهرين فانه نهج واحد و صراط مستقيم.

[84]و القرآن يبين المعنى الحقيقي للتشيع ، الذي هو رفض الجبت الداخلي بالتوحيد الخالص ، و رفض الطاغوت الخارجي بمقاومة الانحراف الاجتماعي والسياسي و الثقافي و .. و .. في الواقع القائم و الذي هو صورة ظاهرية للجبت الداخلي ، ثم التسليم لله و التضحية والاستقامة في سبيله.

بلى . إن ابراهيم (ع) من شيعة نوح)ع) ، و لكن كيف وصل الى هذا المقام الرفيع ؟

يجيبنا القرآن على ذلك بـ:

]إذ جاء ربه بقلب سليم[

و هو الذي سلم من كل الامراض ، كالحسد و الحقد و الجبن و الخوف ، و التي يسميها القرآن بالاغلال ، اذ يحدثنا عن اهداف بعثة الرسول محمد (ص) فيقول " :و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم و

الأغلال التي كانت عليهم (1) " وهذه الامراض و الاغلالانما تتفرع من شجرة الشرك بالله ، و انما سماها القرآن بالاغلال و الأصر تارة و بالمرض تارة أخرى ، لان الاغلال والأصر كما المرض كلها تقعد الانسان وتكبل عقله و طاقاته الخيرة.

قال علي بن ابراهيم " اذ جاء ربه بقلب سليم: "

"القلب السليم من الشك (!) "

و قال:

"القلب السليم الذي يلقى الله و ليس فيه احد سواه " (١)وهذا التفسير يتناسب مع سياق الآيات الذي يحدثنا عن العباد المخلصين.

[85]و لن يصبح القلب ابراهيميا خالصا من الشرك ، الا اذا تعالى على العوامل الأساسية التي تؤثر سلبيا عليه ، بل وقاومه ، اذ لابد للاخلاص من حقيقة خارجية ، و هي محاربة الشرك ، و هكذا كان إبراهيم (ع) ، حيث حارب الانحراف الاجتماعي المتمثل في الخط الشركيلابيه و قومه ، و الانحراف السياسي الذي جسده الطاغية نمرود.

]إذ قال لأبيه و قومه ماذا تعبدون [

و لم يكن سؤاله استفساريا ، انما كان يستنكر الانحراف الاجتماعي القائم ، و هذا ما يجب على الانسان تجاه أبيه و مجتمعه ، فليس من السليم ان يستقبل منهما كل شيء ، و يفقد استقلاله امامهما ، انما يتقبل الجيد و يعترض على ما هو سلبي بالاسلوب المناسب.

و النبي إبراهيم (ع) مثل للثائر الرافض للخطأ الاجتماعي ، و لخطأ الآباء ، و الله(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٠٦.

(2)المصدر.

يأتي به حجة على الذين اشركوا بهما فحكى عنهم القرآن : " انهم ألفوا اباءهم ضالين * فهم على أثارهم يهرعون " (١) فابراهيم (ع) - على خلاف هؤلاء - تحمل مسؤوليته ، و اعمل عقله ولم يقدس الاشخاص ولا التراث على حساب القيم.

[86]واهتدى (ع) الى زيف الشركاء ، و ضلال الثقافة التي انتهت بالمجتمع الى هذه النهاية الموغلة في الانحراف.

]أئفكا ءالهة دون الله تريدون[

و الافك هو الكذب المبالغ فيه.

قال المفسرون انما قدم كلمة " أئفكا " وهي مفعول مطلق ، للعناية الخاصة بها و لبيان ان كل تبريراتهم لعبادة الآلهة خاطئة فليسوا هم الا كاذبين.

وهذا يمثل قمة التحدي ، من ابراهيم عليه السلام لذلك الضلال المنتشر بين قومه.

[87]ثم سأل قومه بعد بيان خطأ الشرك ، و هو يبين لهم الاله الحق:

]فما ظنكم برب العالمين[

و هكذا تكون حركة الرساليين قائمة على هدم الفكر و الواقع الباطل ، و بناء الفكر و الواقع الحق بدلها .

و يبدو ان ابراهيم (ع) وجههم - بهذه الكلمة - الى المنهج السليم للتخلص من ضغوط الشرك ، و التوجه الى الله . فمن تصور آيات الله و تذكر اسماءه و صفاته.

علم بانه لا يرضى لعباده الكفر و الشرك ، و أنه يعاقب عليه اشد العقاب ، و انه ينتصر للذين يقاومون المشركين.

و كذلك نظن ان كلمات المفسرين هنا في أبعاد الظن قد تكون جميعا من أبعاد الآية بالرغم من ان كل واحد منهم ذهب الى بعد منها و ظنه المراد الوحيد منها.

[89 - 88]ولان نبي الله ابراهيم (ع) جوبه بالرد ، و الاذى خطط لعمل واقعي يبلغ من خلاله الرسالة بشكل أعمق اثرا ، وما دام يعرف بان الاصنام باطل فما يضره ان يبادر هو بنفسه لتحطيمها ، و لو لم يكن المجتمع قد اقتنع بذلك.

]فنظر نظرة في النجوم * فقال إني سقيم[

و كان قد اختار يوم عيدهم فرصة سانحة للقيام بمهمته ، و خادعهم اذ اظهر لهم معرفته بالنجوم و ذلك اتباعا لمنهج التقاة و العمل السري و تغطية على ما سيقوم به في المستقبل ، و قد استفاد (ع) في ثورته من العادة الاجتماعية القاضية بالاعتقاد بالنجوم ، حيث كانقومه يتشاءمون او يتفاءلون من خلال نظرهم اليها . و قد نهى الاسلام عن الاعتقاد بما يقوله المنجمون الا ما كان يستند على دليل منطقي . و غاية معقولة . قال الامام علي (ع: (

"ايها الناس اياكم و تعلم النجوم الاما يهتدى به في بر او بحر ، فإنها تدعو الى الكهانة ، و المنجم كالكاهن ، و الكاهن كالساحر ، و الساحر كالكافر ، و الكافر الى النار " (١)و يبدو ان علم النجوم بذاته غير محرم الا ان جعل خرافات المنجمين في مقام رسالات الله و العمل بالنجوم من دونها هو المحرم ، فقد جاء في الحديث عن عبد(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٠٨.

الملك بن أعين قال : قلت لابي عبد الله : اني قد ابتليت بهذا العلم ، فاريد الحاجة فاذا نظرت الى الطالع و رأيت طالع الشر جلست و لم اذهب فيها ، و ا ذا رأيت طالع الخير ذهبت في الحاجة ؟

فقال لي : تقضي ؟

قلت : نعم ، قال : احرق كتبك (١(

و جاء حديث آخر مأثور عنه عليه السلام انه قال : بعد ان سئل عن النجوم:

"هو علم قلت منافعه ، و كثرت مضاره ، لانه لا يدفع به المقدور ، ولا يتقى به المحذور ، ان خبر المنجم بالبلاء لم ينجه التحرز من القضاء " (٢)و قال الامام الصادق (ع: (

"ما كان ابراهيم سقيما وما كذب ، انما عنى سقيما في دينه مرتادا " (٣)و حينما نقرأ الاحاديث الواردة في تفسير هذه الآية الكريمة ، نجدها تؤكد على رفع الشبهة القائلة بأن التقية حرام لانها تضطر العاملين للكذب ، بل انها من دين الله و يستدل الأئمة على ذلك بالقرآن الحكيم.

يقول أبو بصير : قال الامام ابو عبد الله (ع " : (التقية من دين الله ، فقلت له : من دين الله ؟ قال : اي والله من دين الله ، و لقد قال يوسف : " ايتها العير انكم لسارقون " والله ما كانوا سرقوا شيئا ، و لقد قال ابراهيم : " اني سقيم" والله ما

(1)المصدر / ص ٤٠٧.

(2)المصدر

(3)المصدر / ص ٤٠٦.

كان سقيما " (١(

و لعل نظر ابراهيم (ع) الى النجوم في ذلك المجتمع الزراعي الذي اعتقد بأنها ذات تأثير حاسم في حياته كان للايحاء إليهم بأنه يؤمن بها كما يؤمنون ، فيبعد عن نفسه شبهة الكيد باصنامهم فلا يأخذوه الى عيدهم عنوة و يفشلوا خطته.

و ربما قال سقيم تورية اذ انه من دون تحطيم الاصنام كان سقيما ، أو ليست الاصنام كانت تعبد من دون الله جهارا ، فكيف لا يكون مريض القلب مهموم الفؤاد ، دائم الكآبة و هو لما يقض على الاصنام.

و لعل هذا هو مراد الامام الصادق عليه السلام انه كان سقيما في دينه ، اذ لا ريب ان ابراهيم (ع) كان مخلصا طاهرا حنيفا وهو الذي قال عنه الرب : " إذ جاء ربه بقلب سليم. "

[90]و بالفعل نجح نبي الله في مهمته ، حيث اطمئن القوم الى كلامه و ذهبوا جميعا الى عيدهم.

]فتولوا عنه مدبرين[

وفي هذا التعبير افصاح عن مدى الاطمئنان من قبل القوم ، حيث وصفهم القرآن بالادبار ، و لو لم يكونوا كذلك لكانوا يلتفتون الى ورائهم فلا يصح وصفهم به . و الحركة الناجحة هي التي يتمكن افرادها من التغطية على تحركهم بحيث يسلبون النباهة و الحذر من العدو ليفاجؤوه بالضربة القاضية ، و في نفس الوقت لا

(1)المصدر

يتركون أثرا يدل على خطتهم .

[92 - 91]و قد عمد ابراهيم (ع) بعد ان اختار الوقت المناسب ، و الاسلوب الناجح ، لتوجيه ضربته للواقع الفاسد ، فتسلل الى موطن الاصنام سرا و هدمها.

]فراغ إلى ءالهتهم فقال ألا تأكلون * مالكم لا تنطقون]ان الذي لا تتوفر فيه ارادة الاكل و النطق كيف يكون بمستوى الربوبية التي تستدعي القدرة على الخلق ؟!

و في مطلع الآية نجد كلمة " راغ " التي عبر بها الله عن وثوب ابراهيم (ع) على الاصنام ، وهي من البلاغة بمكان رفيع ، اذ تفيد معنيين ، هما المكر و الشدة ، و هكذا كان ابراهيم (ع . (وراغ مستأسدا في الله يحطم رموز الباطل ، و مما يتضح من نصوص التأريخ ان آزر - أبو ابراهيم بالتربية - كان سادنا للاصنام و بيده مفاتيح بيتها ، فلما ذهب مع القوم للعيد سلم المفاتيح بيد ابراهيم فكانت كل الظروف مواتية لتنفيذ خطته ، و من نافلة القول انه يتبين من تاريخ البابليين بان القوى الحاكمة للجماهير في زمنهم هما طائفتان ، طائفة السدنة و الكهنة التي تمثل القوة الدينية ، و طائفة السلاطين التي تمثل القوة السياسية ، و كانتا تتعاونان على استغلال الناس و استعبادهم ، و لعل الاصنام كانت لديهم مجرد وسيلة للسيطرة على المحرومين.

] [93]فراغ عليهم ضربا باليمين[

و قد أراد ابراهيم (ع) من تحطيمهم ان يوجه ضربة للقوتين ، و للثقافة المتخلفة التي تحكم المجتمع و تسهل لهما السيطرة عليه ، و لعل التعبير باليمين للدلالة على شدة الضرب بلا تردد أو خشية.

[94]و هذا بلا شك يعتبر تحديا عنيفا للمجتمع ، جعل ابراهيم (ع) يقف أمة لوحده بما يختص به من اعتقاد و ثقافة و سلوك ، في مقابل مئات الآلاف من الناس ، و لا غرابة فان رسالة الله و التوكل عليه تحملان الفرد الواحد على التحدي ولو لأمة باجمعها دون ان يضعفاو يستوحش ، لان ارادة المؤمن اقوى من الجبل ، لان الجبل تحطمه الفؤوس بينما لا تنال من ارادة المؤمن شيئا ، وما دام المؤمن على الحق يجب ان لا يخشى الباطل ولو اتبعه الناس جميعا.

]فأقبلوا إليه يزفون[

لانه الوحيد الذي بقي في المدينة ، ولان بيده كانت مفاتيح بيت الاصنام.

والزف تعبير عن مشية معينة ، تشبه بداية مشية النعامة ، و لعلها توحي بضرب الارجل على الارض ، مع سرعة واهتمام.

[96 - 95]و لكنه بقي رابط الجأش ، وعازما على المواجهة.

]قال أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون]و الخالق هو المعبود الحقيقي الذي يجب على الانسان التسليم والانقياد له.

في البدء أخلص ابراهيم (ع) نفسه فاخلصه الله من تاثير الاجيال السابقة المتمثلة في عمه آزر ، ثم أخلصه من الخوف و التسليم للطاغوت بل للمجتمع ، فهو (ع) بدأ من الصفر حيث لا ناصر له الا ربه ، فضرب مثلا على الاخلاص ، بأنطلاقه في حركته من الايمان بالله ، والعمل بوحيه ، بعيدا عن أية دافع آخر .

[97]ولان ابراهيم (ع) تحدى الانحراف بهذا المستوى ، و الاسلوب الخطير ، عزموا على قتله بأبشع صورة ممكنة في نظرهم ، لكي لا يفكر الأخرون في السير علىنهجه ، و هذا هو ديدن الطغاة الى اليوم.

]قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم[

و كان نمرود وسائر القوى التي تهددها حركة ابراهيم (ع) قد اتفقوا على اشعال نار عظيمة ثم يلقونه فيها بالمنجنيق ، علما بان نارا اقل من التي اشعلوها بكثير ، كانت كافية لتحويله - في الظروف العادية - الى رماد ، و لكنهم ارادوا ان يورطوا جميع الناس في مواجهة النبي (ع) بجمعهم الحطب لها.

و نحن نجد حالة التعبئة العامة التي يعلنها الطغاة عندما تواجه سلطاتهم أخطارا حقيقية ، و يعملون المستحيل لاشراك الناس فيها بغية امرين:

اولا : إلهاء الناس عن حقيقة ما يجري.

ثانيا : توريط الناس في الجريمة حتى لا يميلوا ناحية المصلحين.

ففرعون دعا الناس الى الاجتماع في يوم الزينة ليشهدوا غلبة السحرة في ظنه ، و اصحاب الاخدود جلسوا على حافتيه يشهدون ما يفعلون بالمؤمنين.

[98]و لكن يد الله فوق أيديهم ، و ارادته غالبة ينصر بها عباده المؤمنين ، فقد احبط الله عملهم ، و

افشل مخططاتهم .

]فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين[

لقد كانوا يهدفون من وراء القضاء على ابراهيم ان تتم لهم السلطة والسيطرة ، باثبات قوتهم القمعية و صحة افكارهم ، و لكن الله اوصلهم الى نقيض تطلعاتهم . و كلما كان كيد الكفار و الطغاة اشد ، كلما كانوا أعمق فشلا و خزيا.

[99]اما ابراهيم (ع) فقد مضى في طريق الجهاد قدما حيث هاجر في سبيل الله ، و لعله كان قادرا على البقاء في تلك المدينة لانه تحدى طواغيتها و انتصر عليهم ، لكنه لم ير أن يعاشر الكفار ، بل اراد ان يبني مجتمع الايمان بعيدا عن البيئة المنحرفة.

]و قال إني ذاهب إلى ربي سيهدين[

يعني مهاجر في سبيل الله ، و من الطبيعي ان من يهاجر مجاهدا سوف يهديه ربه الى الحق و الخير ، و ربما تفسير هذه الآية الكريمة : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين " (١)[١٠٠] و كان هم ابراهيم و تطلعه الآخر ان يلتحق به في الدرب أخرون يؤمنون به و يحملون رسالته فقال :

]رب هب لي من الصالحين[

وقد حدد لنا نبي الله بهذه الكلمة ، نوعية الطموح الذي ينبغي للانسان ان يتطلع اليه ، و هو يبحث عن اولاد أو عن انصار و اتباع للرسالة ، وذلك بأن يبحث عن النوع لا عن الكم و حسب.

[101]و مما لا شك فيه ان للدعاء أثرا حاسما في النتائج التي يصل اليها الانسان ، فالذي يخلص نيته و يحسن عمله و يدعو الله سوف يعطيه ما تقر به عينه ، و هكذا فعل ربنا مع نبيه (ع. (

]فبشرناه بغلام حليم[

(1)العنكبوت / ٦٩.

أي عالم عاقل حكيم لا تهزه النوائب .

[102]و هنا أراد الله ان يبلو خليله ابراهيم ، و مدى تسليمه له.

]فلما بلغ معه السعي[

والبلوغ بمعنى الوصول للسعي او التمكن منه.

]قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى]و وضع ولده امام القرار الحاسم و الصعب ، و كان بامكانه (ع) - كسائر الناس الذين يلتفون على احكام الله للتهرب من مسؤوليتها - ان يتهرب هو ايضا ، بحجة ان الامر كان مجرد حلم رآه في المنام ، و لكنه يعلم ان الرؤيا لون من الوان الوحي عند الانبياء ، و يجب عليه العمل وفقه.

و الذي لا ريب فيه ان اسماعيل (ع) كان أعز ما يملكه ابراهيم (ع) في حياته بعد الايمان بالله ، فاراد ربنا ان يمتحن مستوى تضحيته في سبيله ، فوجده مسلما و هكذا كان ولده عليهما السلام.

]قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إنشاء الله من الصابرين]و يتضح لنا من هذه الآية ان الانبياء لا يتجاوزون الامتحانات الالهية بالاعجاز انما يتذوقون مرارتها وصعوباتها ، فهذا اسماعيل (ع) يصرح عن حاجته لمشيئة الله حتى يتجاوز اهواء نفسه ، و الى الصبر حتى يقاوم صعوبات الامتحان.

] [103]فلما أسلما[

لله تعالى ، فصدق الاب الرؤيا ، و استجاب الأبن الى والده.

]و تله للجبين[

يعني اضجعه على الارض ، و في الخبر " فلما عزم - ابراهيم (ع) - على الذبح قال الغلام : يا ابت اخمر وجهي (اي استره) ، و شد وثاقي " (١) و كان هدف اسماعيل (ع) من ذلك ان يمضي ابوه في تنفيذ امر الله ، فلا تثنيه عاطفة الابوة لو لاح له وجهه.

[105 - 104]و في تلك اللحظة جاءه النداء الإلهي:

]و ناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرءيا[

و تجاوزت الامتحان فكانت العاقبة في صالحه فهو لم يخسر دنياه ، اذ فدى الله ولده بالكبش ، و عمر آخرته حيث اطاع الله ، وهو عز وجل يؤكد بأن هذه عاقبة كل المحسنين المطيعين لاوامره سبحانه.

]إنا كذلك نجزي المحسنين[

الذين يخرجون من قيود الذات و الهوى ، و العلاقات السلبية و يتوجهون بكلهم الى ربهم عز وجل.

وفي تفسير هذه الآية قال الامام الصادق (ع: (

"ما بدا لله بداء كما بدا له في اسماعيل اذ أمر أباه بذبحه ثم فداه بذبح عظيم " (٢)(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٢٣.

(2)المصدر / ص ٤٢٠.

ان هذا لهو البلاء المبين

هدى من الآيات

في هذه المجموعة من الآيات يذكرنا الله عز وجل بالمعنى الحقيقي للاخلاص ، و هو ان يكون الانسان بعيدا عن العوامل و الضغوط المضادة للحق ، و يضرب لنا على هذه الفكرة أمثلة في حياة الانبياء ، كابراهيم و ولده اسماعيل ، و كاسحاق ، و موسى ، و هارون (عليهم السلام) و هكذا من حياة الانبياء الآخرين ، من بني اسرائيل الذين انتخبهم الله بعد ان عرضهم لاصعب الامتحانات و الفتن ، فوجدهم صالحين صادقين مخلصين.

و بالرغم من ان كل نبي تعرض لفتنة خاصة ، الا أنهم يشتركون في بلاء عام واجهوه جميعا بصلابة الايمان و المعرفة بالله ، و تحدي الاوضاع الاجتماعية و السياسية المنحرفة في مجتمعاتهم ، فضغط الاجتماع على الانسان و شعوره الداخلي الذي يسوقه نحو التكيف مع الآخرين ، من أهم و أخطر الضغوط التي يواجهها في الحياة ، و هذا ما جعل بعض العلماء يدعون لعبادة المجتمع ، او ما يسمى بالحتميةالاجتماعية ، و حتى الذين يقولون بالحتمية الطبقية ، أو الاقتصادية ، أو ما اشبه فانهم ليسوا بعيدين عن القول بهذه الحتمية ، و الفارق ان هؤلاء يركزون في نظرياتهم على جانب منها ، بينما يؤكد علماء الاجتماع امثال (دوريكام) على كافة أبعادها ، و نحن لا نسميها حتمية ، بمقدار ما نسميها عصرا و ضغطا من قبل المجتمع على الانسان.

فالمجتمع في بعض الاحيان يعصرك ، و يضغط عليك باتجاه يتناقض مع طاعة الله ، و الاهداف التي نتطلع اليها ، و واجبك تحديه بالايمان و التوكل ، و ان تعرف بان عنوان نبوة الانبياء و المرسلين ، و أبرز اعمالهم هو تحديهم للواقع الاجتماعي الفاسد ، و أن نجاحهم فيهذا التحدي هو سبب ارتقائهم ، و لهذا أيضا نجد القرآن الحكيم يؤكد على هذه الحقيقة في كثير من سوره و آياته.

بينات من الآيات

[106]النبي ابراهيم (ع) جاء لكي ينسف عادة جاهلية كانت شائعة ذلك اليوم وهي ذبح الابناء امام الاصنام تقربا لها ، و ما كانت هذه العادة مقتصرة على فلسطين وحدها ، ففي مصر ايضا كانوا ينتخبون ملكة الجمال من بين بناتهم ليلقوا بها مع بداية الربيع في النهرالذي كانوا يقدسونه لتذهب ضحية عقيدة جاهلية . تقول : بان إله البحار يريد ان يتزوج ، فلابد ان نختار له أجمل بناتنا لكي تهدأ المياه ولا يحدث فيضانا يخرب بيوتنا و يهلك مزارعنا.

و هذه العادات ليست بعيدة عن واقعنا المعاصر ، لانها مهما اختلفت في ظاهرها تلتقي في نقطة مركزية واحدة هي التضحية بالابناء من اجل الاهداف التافهة.

ان الله أمر ابراهيم (ع) بذبح ابنه ثم عوضه بالذبح العظيم ليقضي على هذهالعادة الجاهلية ، و يبدلها بسنة الهية حسنة ، جرت لدى البشرية الى هذا اليوم ، و هي ذبح الانعام في منى عند الحج وفي غيرها ، و حينما بدا لله ان يفدي نبيه بالكبش جعل الحادث يمر بوقائع اعجازية عجيبة ، فقد كانت السكين تلتوي كلما ادناها ابراهيم من رقبة ولده (عليهما السلام) و كانت تفت الصخرة لو ضربها ، و لكنها تعجز عن التأثير في جلد رقبة اسماعيل الرقيق بحدها . و لهذه القصة عبرتان أساسيتان:

الاولى : ان على الانسان التضحية بابنه و بافضل علاقاته من اجل الدين وفي سبيل الله . و الثانية : وان يرفض من جهة اخرى التضحية باولاده من اجل الالهة المزيفة ، حجرا كانت او بشرا كطواغيت اليوم ، الذين يريدون بلوغ مآربهم و شهواتهم الرخيصة على جسر من دماء شباب الامة و افلاذ اكبادها.

ان مقاومة ابراهيم (ع (للانحراف الاجتماعي كان أمرا صعبا ، و صار اعظم صعوبة حينما جعل الله الطريقة لمقاومته هو ذبح اعز الناس عليه و هو ابنه (ع) ، و قد وصف الله هذا الامتحان بقوله:

]إن هذا لهو البلاؤا المبين[

و انما سمي مبينا لأنه يكشف مستوى الايمان ، و يبين حقيقة الانسان.

[107]و بالفعل كشف لنا هذا الامتحان مدى اخلاص النبي ابراهيم و تسليمه لله .هو و ولده الذي فداهما الرب بذبح من عنده تنزل به جبريل الامين.

]و فديناه بذبح عظيم[

و بهذا الذبح سن عليه السلام سنة سار عليها المؤمنون الى اليوم ، فهم يذبحونالهدي بمنى وفي كافة انحاء العالم اقتداء به ، و لعله لذلك سمي عظيما ، و قالوا ان الذبح العظيم هو السبط الشهيد الامام الحسين بن علي)ع) الذي ذبح على النهر عطشانا بكربلاء فداء لدين الله ، و مقاومة للعادات الجاهلية الاموية.

[109 - 108]و كرامة لابراهيم الخليل في الدنيا قبل الآخرة ، جعل الله له ذكرا حسنا عند البشرية باختلاف مذاهبها و عقائدها ، و لخص ربنا هذه الكرامة في كلمة واحدة هي : السلام على ابراهيم.

]و تركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم[

و مما تجدر الاشارة اليه ان الاستحباب الشرعي في السلام على الانبياء و الصالحين يقتضي تقديم الصلاة على محمد و آله (صلوات الله عليهم) ثم يذكر الطرف المراد ذكره . فيقول الذي يريد الصلاة على

عيسى : على نبينا و آله و عليه افضل الصلاة و السلام ، إلا نبيالله ابراهيم فان المستحب ذكره اولا ثم الثناء على نبينا وآله ، فتكـون جملــة القــول : (على ابراهيم و على نبينا و آله الصلاة و السلام. (

[110]و لكن هذا الجزاء الذي يحصل عليه الانبياء ليس بسنة خاصة بهم ، انما ضمن العدالة الالهية التي تشمل البشرية كلها ، فلان ابراهيم كان محسنا استحق هذه الكرامة.

]كذلك نجزى المحسنين[

و نستوحي من هذه الآية فكرتين:

الاولى :ان الجزاء الحسن ليس قصرا على الانبياء وحدهم ، انما يلقاه كل محسن في كل زمان و مكان ، و ان الكرامة الحقيقية لا ينالها الانسان إلا بالكفاءة و السعي (و الاحسان) وان جهود المؤمن لن تضيع ، فربنا يحفظ لكل عمله و يجازيه عليه انفي حياته أو بعد الوفاة ، و ما هذا الجزاء الدنيوي الا دليل على الجزاء الاعظم في الآخرة.

الثانية : إن الاحسان الى الناس يجازيه الرب بالولاية عليهم ، فأحق الناس بالناس احبهم لهم و اكثرهم احسانا إليهم .

[111]و ربنا عز وجل يجازي من كان محسنا على احسانه و يقدره ، حتى ولو لم يكن مؤمنا ، لان الاحسان بذاته محمود عنده ، و قد قال سبحانه : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) فكيف اذا كان المحسن مؤمنا ؟ بالطبع سوف يجازى اكثر في الدنيا و الآخرة ، لان احسانه للناس ليس من أجل سمعة طيبة أو جزاء مادي عاجل ، بل يزيد في رصيده الاخروي ، فهذا ابراهيم (ع) و قد سن الأضحية لله فتنامى ثوابه بقدر ما افتدى به الآخرون ، اذن فالمؤمن يحصل على الجزاء بمقتضى سنتين ، سنة الاحسان ، و سنة الايمان ، لهذا يؤكد الله على احسان نبيه ابراهيم (ع) ثم يعود للتأكيد على ايمانه فيقول:

]إنه من عبادنا المؤمنين[

فجزاؤه مضاعف اذن.

[112]يزعم البعض ان الذي يخالف المجتمع الجاهلي ، سوف يعزل و يتجاوزه التيار ثم يكون ابتر ولا يبقى له اثر ، و لكن العكس تماما نجده في تأريخ الانبياء . فبالرغم من مخالفتهم جموع الكافرين فان الله سبحانه أهلك اعداءهم ، و بارك في ذريتهم ، و نشر ثناءهمعلى كل لسان و في كل زمن.

فهذا ابراهيم (ع) يحنف عن قومه لوحده حتى يكون لوحده امة قانتا لله ، و لكن انظر الى العاقبة فاين اولئك الذين خالفوه؟ اما هو فهذا امتداده المبارك في ذريتهو تابعيه.

]و بشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين[

فصلاح الوالدين ينعكس على الاجيال التي تنسل منهما ، عبر طائفة من السنن الالهية كالوراثة ، و التربية ، وتأييدات ربانية.

[113]ثم بارك الله لابراهيم ولاسحاق.

]و باركنا عليه و على إسحاق[

فالعرب من ابراهيم و هم اولاد اسماعيل ، و بنو اسرائيل من ولده اسحاق ، فهو ليس أب الانبياء و حسب انما هو أب لشعبين عظيمين ايضا ، ثم يؤكد ربنا الى جانب ذكره البركة التي اسبغها على ابراهيم و ولده اسحاق ، أن ذلك ليس مبررا لمن اراد من ولدهما ان يضفي علىنفسه صبغة القداسة ، فيدعي الافضلية لا لشيء الا أنه ينسل منهما ، لان قيمة الانسان الحقيقية تنبعث من عمله هو لا من

حسبه و نسبه.

]و من ذريتهما محسن[

لانه احسن . و ليس لانه ينتمي للمحسنين ، كما يوجد من بينهم المنحرفون الظالمون.

]و ظالم لنفسه مبين[

[115 - 114]و يضرب لنا القرآن مثلا من واقع المحسنين من هذه الذرية المباركة ، فيقول:

]و لقد مننا على موسى و هارون[

بالنبوة و هما من ذرية اسحاق.

]و نجيناهما وقومهما من الكرب العظيم[

و اذا كان الغرق صورة من الكرب لانه من غضب الله ، فان ظلم فرعون وجنوده صورة اخرى لا تقل فظاعة عنها.

]و نصرناهم[

[116]اضافة الى النجاة من الكرب على فرعون و جنوده.

]فكانوا هم الغالبين[

بلى .قد يتسلط الطغاة على البلاد ، و يفشل المؤمنون في كثير من المحاولات للاطاحة بهم ، و يقدمون التضحيات ، و لكن العاقبة تكون لهم ، و اذا كانت للباطل جولة فان للحق دولة . و مهما تكن الظروف معاكسة ، و الظاهر يوحي بغلبة الباطل إلا ان الحق واهله هم المنصورون.

[117]ولكي يحافظ موسى و هارون على مكتسبات النصر ، ويديرون شؤون بني اسرائيل انزل الله عليهما التوراة منهجا للحياة.

]و ءاتيناهما الكتاب المستبين[

و من صفات الرسالات الالهية أنها واضحة ، كالقرآن الذي يصفه الله بقوله " : و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " (١) و هذه الفكرة تنسف اساس المعقدينالذين اتخذوا منهج التكلف لآيات الله ، بتفسيرها تفسيرات معقدة ، أو من خلال الأشعار الجاهلية و أحاديث و اسباب النزول الضعيفة في سندها غالبا ، بل إن البعض منهم حاول تفسير القرآن من خلال الافكار الدخيلة ، حتى قال قائل منهم لابد لمن اراد تفسير القرآن ان يقرأ الفكر الماركسي اولا.

[118]هنا نعمتان متدرجتان تتواليان على المؤمنين احداهما توفير فرصة الهداية بانزال الوحي ، الثانية هداية الله لهم بعد تقبلهم للوحي و التزامهم بشرائعه.

و اذا كانت النعمة العامة تعم الناس جميعا اذ ان ربنا يبعث الى كل قرية نذيرا فان النعمة الثانية تخص المؤمنين فقط ، و لذلك خص ربنا موسى و هارون بالهداية قائلا:

]و هديناهما الصراط المستقيم[

[120 - 119]و يوصل الله سياق الحديث عن موسى و هارون بالسياق العام للسورة ، الذي يحدثنا عن

جزاء عباد الله المخلصين و المحسنين ، و ذلك من خلال الاشارة الى جزائهما عليهما السلام.

]و تركنا عليهما في الاخرين *سلام على موسى و هارون]ولا يمكن لاحد أن ينكر دور الارادة الالهية في تخليد ذكر هؤلاء الانبياء الذين مر على وفاتهم آلاف السنين ، فلولا ذكرهم الذي تضمنته رسالات الله ، هل كان احد في هذا العصر يعرف هذه التفاصيل عن حياتهم ؟ و اكبر دليل أننا لا نعرف عن حياة الانبياء الآخرين الذين لم تتعرض لذكرهم الرسالات شيئا مع ان عددهم (١٢٤٠٠٠) نبيا و رسولا و يؤكد القرآن في سورة هود ذلك بعد ان يذكر قصة نبي الله نوح و يقول:

"تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين " (١) ان احداث التاريخ كانت تتلاشى من ذاكرة البشر و كل جيل يأتي ينسى جزء منها حتى تنتهي تماما ، بالذات و ان البشرية و لفترة ليست بالبعيدة لم تكن قد وصلت الى التقدم العلمي الذي يمكنها من المحافظة على كل ذلك ، بالاضافة الى أن كثيرا من الاقوام كانوا يتعرضون للانقراض و الهلاك الجماعي فيموت معهم تاريخهم ، و علم الآثار القائم اليوم يطلع علينا كل حين بمعلومات عن اقوام لم تكن البشرية تعرف عنهم شيئا، و لكن الله يخلد ذكرى الانبياء العظام بفضله و يترك السلام عليهم يتوالى ليل نهار . و نعود للآية لنتسائل ماذا ترك ربنا على موسى و هارون ؟

اولا :ان الله حافظ على رسالتهما في الحياة ، اذ ابقى مشعل الهداية الذي تحملا الجهاد به و الدعوة اليه ، يتلقفه الصالحون من ورثتهما على طول التأريخ دون ان يسقط يوما.

ثانيا : جعل ذكرهما الحسن يطبق الخافقين ولا يزال الى الأبد.

[122 - 121]ولان الله ذكر هذه القصص توضيحا و تأكيدا للحقيقة المحورية في هذه السورة عاد ليؤكدها ، و تلك الحقيقة هي ان العاقبة للمحسنين.

]إنا كذلك نجزى المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين]ولابد ان نلاحظ بان هذه الآية تأتي بعد ذكر مجموعة حقائق من حياة كل نبي فمن حياة نوح (ع) ذكر النجاة ، و من حياة إبراهيم ذكر الذرية الصالحة ، و من حياة موسى ذكر النصر و الهداية ، و اشركهم في الذكر الحسن الذي لخصه في السلام(١) هود ٤٩ .

عليهم ، و معنى ذلك ان جزاء المحسنين لا ينحصر في الذكر الحسن ، بل يشمل كل هذه الامور و ما سيأتي ذكره في القصص الاخرى . و قد يكون تلخيص القرآن لحياة هؤلاء ليس من باب الحصر إنما أراد ان يشير لنا في هذه السورة اشارات مختصرة ، اما التفاصيل فيمكننا التعرف عليها من خلال مراجعتنا للسور الاخرى.

] [123]و إن إلياس لمن المرسلين [

و يبدو انه من انبياء بني اسرائيل ، قيل إنه عاش في منطقة بعلبك بلبنان ، و انما سميت بذلك لان اهلها في ذلك الزمان كانوا يعبدون إلها لهم يسمى بعلا .يقول صاحب المنجد : (بعل : اسم أطلق على عدة آلهة سامية اشهرها معبود فينيقي ، هو إله الخصب و التناسل) و بعلبك محافظة البقاع يدل اسمها الحالي على اسمها الفينيقي : بعل البقاع (١)[١٢٤] و يلخص القرآن رسالة الياس في ثلاثة امور هي:

الاول : الدعوة الى تقوى الله عز وجل.

]إذ قال لقومه ألا تتقون[

و هذه دعوة جميع الانبياء لاقوامهم ، لان مشكلة الانسان الحقيقية هي ابتعاده عن ربه و ضعف ايمانه به ، ولا سبيل للبشرية الى معالجة انحرافاتها و مشاكلها إلا بالايمان و التقوى.

[125]الثاني : و لكي يتصل الانسان بربه و يكون متقيا ، يجب ان يتغلب على مشكلة الشرك لهذا نجد الياس في الوقت الذي يدعو قومه لتقوى الله يأمرهم بنبذ(١) المنجد كتاب الاعلام / ص ١٣٦ / الطبعة ٢٦.

الآلهة المزيفة.

]اتدعون بعلا و تذرون أحسن الخالقين[

و الخلق هنا ليس بمعنى الانشاء من لا شيء ، انما يعني الصناعة و التغيير التي يستطيع الانسان على شيء منها ، و لكن الله افضل الخالقين ، فهو الاولى بالعبادة و يبدو ان ذكر صفة أحسن الخالقين هنا لان القوم كانوا ينسبون النسل لالإههم بعل ، فامرهم النبي الياس بتقوى الله من ذلك و رفض هذه الخرافات التي تقف دون تقدمهم و تكاملهم.

[126]ثالثا : محاربة الاتباع الخاطىء للآباء .. و يبدو ان التقاليد كانت عميقة الجذور في مجتمع الياس (ع) و السبب أن الله اذ لخص دعوته اشار الى الاباء مما يدل على نوع المعاناة التي كان يعيشها.

]الله ربكم و رب ءابائكم الأولين [

اراد من ذلك بيان دور الاباء في الضغط على الابناء ليشركوا بالله او يكفروا به ، و هل يغير الواقع و الحقيقة كفر الناس ؟ كلا .. فالله هو رب الاباء و ان كفروا أو اشركوا به و يجب على الابناء ان يتجاوزوا خطأهم ، و يتركوا هذه الانداد و يتوجهوا الى ربهم الحق.

[127]ثم يعرض لنا السياق النتيجة التي صار اليها قوم الياس (ع) ، فقد كذبوا رسولهم وأصروا على انحرافهم.

]فكذبوه فإنهم لمحضرون[

امام العدالة الالهية لينالوا جزاءهم المتمثل في عذاب الله.

[128]و تستثني الآيات من العذاب القوم المخلصين ، و هم الذين تمحضوا في الطاعة.

]إلا عباد الله المخلصين[

أما الذين يلحق بايمانهم بعض الشك ، و بأعمالهم بعض السلوكيات المنحرفة فانهم يحضرون للحساب والجزاء كلا بنسبة شكه و انحرافه.

[132 -131 - 130 - 129]كان ذلك جزاء المكذبين ، اما الرسول الذي صدق برسالته ، و بلغها لهم ، و تحمل من اجلها العناء و التضحيات ، فان جزاءه على الله الكرامة.

]و تركنا عليه في الآخرين * سلام على إل ياسين *إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين]و قد تجسد احسان الياس في رسالته التي حملها لقومه ، و اذا كانوا قد قابلوه بالرد و التكذيب ، فان الله لا يضيع لديه عمل محسن أبدا ، و تأكيد القرآن على صفة الايمان في النماذج التي يضربها من حياة الانبياء دون صفة النبوة والرسالة ، حتى لا يتصور متصور انهاذا صار محسنا فقد لا يجني ثمرة لاحسانه باعتباره ليس بنبي ، فالعبودية و الايمان صفتان ممكنتان لكل شخص اذا اراد و سعى.

[133]و يسوق لنا القرآن مثلا آخر على نجاة المخلصين من حياة النبي لوط (ع) و هومن اهل بابل بعثه الله في غير قومه.

]و إن لوطا لمن المرسلين[

وقد جاء ليعالج الوضع الفاسد الذي يعيشه قومه ، و الذي من ابرز مظاهره٢٧٨

الفساد الخلقي ، و ذلك برسالة ربه ، لكنهم رفضوه و رفضوا رسالته فكان مصيرهم كسائر الاقوام الذين يكذبون الانبياء ان دمرهم الله.

[136 - 135 - 134]و مع ان حياة لوط (ع) تشتمل على الكثير من الدروس و العبر ، إلا ان القرآن في هذه السورة يدعونا للتفكير في لحظة نجاته و من آمن معه من أهله ، و دمار الآخرين الذين كذبوا به . لان هذا الجانب يلتقي مع السياق العام لهذه الآيات.

]إذ نجيناه و أهله أجمعين * إلا عجوزا في الغابرين]و قد قيل انها زوجته ، و قصة هلاكها هي : ان الله امر لوطا و من معه حينما يخرجون من القرى المؤتفكة ان لا يلتفتوا وراءهم ، لان ذلك يعبر عن الشفقة على المهلكين ، و التشبث بالمال و حب الوطن من دون الله ، فالتفتت زوجته و أهلكت معهم.

]ثم دمرنا الأخرين[

بان قلب جبرئيل (ع) عليهم الارض عاليها سافلها و اهلكهم جميعا.

[138 - 137]و اذا كان هؤلاء الاقوام قد انقرضوا بأجسامهم و حضاراتهم فقد بقيت منهم العبرة و السعيد من اتعظ بتجارب غيره.

]و إنكم لتمرون عليهم مصبحين * و باليل أفلا تعقلون]اكان هذا المرور على بقايا الآثار ، أو من خلال آيات القرآن الحكيم ، فقد قالابو الربيع الشامي :سألت ابا عبد الله (الى قوله) فقلت : فقوله عز وجل " و انكم لتمرون عليهم مصبحين " قال:

"تمرون عليهم في القرآن اذا قرأتم القرآن ، فقرأ ما قص الله عليكم من خبرهم " (١)و مشكلة الناس الذين يكررون تجارب الآخرين الخاطئة فيصيبهم ما اصابهم ، ليس قلة التجارب و العبر ، انما قلة الاعتبار ، فالآثار و القصص التاريخية كفيلة باستثارة عقل الانسان و اعطائه البصيرة في الحياة ، و لكنه يعطل عقله عن التفكير فيها ، و في بعض النصوصالتأريخية ان العرب كانوا يمرون بقوافلهم اثناء تجارتهم الى الشام على قرى لوط إلا انهم لم يستفيدوا من هذه الموعظة التي لا تحتاج إلا الى القليل من التفكير ليقرأها الانسان.

و هذه التذكرة من القرآن الحكيم بضرورة الاعتبار من التأريخ ، تؤكدها الايات عند ذكرها لقصص الماضين ، و ذلك لكي يعلم من يقرأ القرآن ، بان هذه القصص ليست للتسلية و جمع المعلومات انما هي للهداية و الموعظة و الاعتبار.

(1)نور الثقلين / ٤ / ص ٤٣٢

سبحان الله عما يصفون

هدى من الآيات

بعث الله نبيه يونس بن متى الى مدينة نينوى بالموصل ، فبلغ الرسالة و ارشدهم للحق بعد ان بين لهم انحرافهم ، و لكنهم لم يستمعوا الى دعوته ، فما صابرهم كثيرا و دعى عليهم فغضب الله عز وجل عليه ، لكن حساب الخطأ على الانبياء يكون بمستوى المسؤولية التي يتحملها النبي . فالرب يعتبر تركهم الأولى معصية كما اسمى تناول آدم من الشجرة عصيانا ، بل في قصة احد الانبياء الذي حاربه قومه فاختفى في جذع شجرة ، و لما دلهم الشيطان عليه قطعوا جذعها بالمنشار ، فاصابه من حدها فقال " آه " ـ فأوحى الله اليه إن عدتلها مرة اخرى محوت اسمك من ديوان الانبياء ، ولا ريب ان لحظة الوقوع في الخطأ لرفع الله عنهم العصمة ليتصرفوا بطبيعتهم البشرية المجردة ، و لعله لحكمة معينة هي اظهر

بشريتهم (ع. (

و هكذا غضب الله على نبيه يونس بسبب تركه للاولى ، و سرعة الدعاء على قومه ، الامر الذي جعله مستحقا عند الله الاعتقال ، فسجنه في بطن الحوت فيظلمات ثلاث ، في قصة خلاصتها أنه وصل الى البحر هاربا من قومه ، و ركب سفينة مليئة بالمسافرين ، و في عرض البحر حيث طغى ماؤه و هاج موجه ، و تخوف الجميع من غرقها ، فقال ربان السفينة : ان عبدا آبقا موجودا في سفينتنا ، و كانت عادتهم الاقتراع في مثل هذه الظروف ومن يظهر اسمه في القرعة هو الذي يلقى في البحر ليخف وزن السفينة ، و كانت القرعة و لثلاث مرات تتجه الى يونس بن متى فرموه في عرض البحر ، فتلقفه الحوت الذي ابتلعه و بقي في بطنه.

و لم ينقذ يونس)ع) من هذا المأزق الا بتضرعه لله و اعترافه بخطئه " سبحانك اني كنت من الظالمين " (١) ، اذ أمر الله الحوت ان يقذفه على الساحل و خرج من بطنه و قد اهترأ جلده ، فأنبت الله له شجرة اليقطين ذات الاوراق الكبيرة ، فشوفي و خرج ليمارسمسؤولية التبليغ من جديد.

و تهدينا هذه القصة كما القصص الماضية ، الى الحقيقة التي سبق وان ذكر بها السياق القرآني ، و هي ان العباد المخلصين بشر و ليسوا اولادا لله سبحانه ، ولا آلهة ، و ذلك خلافا لما يصفهم به المشركون ، كما انهم لم يوصفوا بتلك الصفات المثلى الا بما سعوا واحسنوا ، و قد اعترضتهم - كما يحصل ذلك لاي انسان آخر - الصعاب و المشاكل ، ولو كانوا كما يصفهم المشركون لتجاوزوها ، و الحال انهم لولا رحمة الله لكانوا من الهالكين.

بلى ان ربنا سبحانه ترك عليهم سلاما دائما على كل لسان لما امتلكوا من صفات جعلتهم أئمة وقادة.

و لعل هذا التأكيد على السلام عليهم لكي يتخذوا قادة ، و لكي يعرف الناس حدود اكرامهم للانبياء فلا يغلوا فيهم حتى مقام الربوبية ، ولا ينزلونهم الى مستوى(١) الانبياء / ٨٧.

العلماء و المفكرين ، و اخيرا لكي يفسر القرآن سبب اكرام الناس للانبياء فلا يحرفه الضالون عن سبيل التوحيد.

بينات من الآيات

] [140 - 139]و إن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون[

والآبق هو الهارب ، و المشحون الممتلىء.

[141]و لما أبحرت السفينة و خاف اهلها من الغرق اقترحوا ان يقترعوا ، ليلقوا واحدا من ركابها في البحر تخفيفا لوزنها.

]فساهم[

النبي يونس بعد ان وافقهم.

]فكان من المدحضين[

و المدحض هو الذي لاحظ له ، و قد خسر القرعة ثلاث مرات.

[142]فلما كان الامر كذلك ألقي في البحر.

]فالتقمه الحوت وهو مليم[

و المليم الذي يأتي من التصرفات ما يستحق عليه اللوم.

[144 - 143]ولكن يونس ادرك خطأه و اعترف به ، و اهتدى الى طريق التوبة و رضى الله وهو الاستغفار و التسبيح - و هكذا يجب علينا نحن حينما نقع فيالمعصية - و بهذا تجاوز النبي (ع) محنته ليخلف للبشرية درسا في معالجة الخطأ . ولو لا أنه اصلح خطأه لأحاط به.

]فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون]و ذلك بان يكون قبره في بطنه .

[145]و لكن الله اخرجه من بطن الحوت بعد توبته.

]فنبذناه بالعراء وهو سقيم[

اي مريض و السقم شدة المرض ، اما العراء فهي الصحراء.

] [146]و انبتنا عليه شجرة من يقطين[

لانه ربما كان يحتاج الى الظل كعلاج الى سقمه ، قال الامام علي (ع: (

"و أمر الله الحوت ان يلفظه فلفظه على ساحل البحر ، وقد ذهب جلده و لحمه ، و انبت الله عليه شجرة من يقطين وهي الدبا ، فاظلته من الشمس ، ثم أمر الشجرة فتنحت عنه و وقعت الشمس عليه فجزع ؟ فأوحى الله اليه : يا يونس لم لم ترحم مائة الف او يزيدون وانتتجزع من تألم ساعة ؟ فقال : يا رب عفوك ، عفوك ، فرد الله عليه بدنه ، و رجع الى قومه و آمنوا به " (١)و يبدو ان الشجرة لم تكن تظله و حسب ، و انما كان يتداوى بها عن مرضه ، لان ثمر هذه الشجرة - وهو القرع - بارد طبعه كما يقولون ينفع الجسم الملتهب.

(1)نور الثقلين / ج / 4ص ٤٣٦.

[147]و هكذا نهض يونس من مرضه ليمارس عمله الجهادي من جديد بوحي من الله عز وجل ، الذي بعثه ليعيد التجربة مع قومه.

]و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون[

و لم يحدد القرآن عدد هؤلاء بالضبط ، لان المجموعة البشرية المتواجدة في منطقة ما ، تزيد و تنقص لعوامل مختلفة من بينها الولادة و الموت ، و من بينها الهجرة من المجتمع و اليه.

[148]و حينما عاد يونس الى قومه هذه المرة نجح في تغييرهم.

]فامنوا[

و صاروا مثلا للامة التي استفادت من تجربتها السلبية في ارتقائها و تقدمها ، فقد حدد قوم يونس و هم يرون العذاب على الابواب المسؤول عن هذا الواقع ، فلم يبرروا لانفسهم ولم يعاندوا ، انما تحملوا المسؤولية وتواضعوا للحق فرفعهم الله و ارسل عليهم الخير و البركة . و ليس بالضرورة ان يكون العذاب غماما ولا خسفا من غضب الله ، فقد يكون هو التمزق و الفقر و التخلف و المشاكل النفسية و الاجتماعية ، و كلها موجودة الآن في واقع الامة الاسلامية ، و واجبها ان تغير واقعها ليغير الله ما هي عليه من التخلف الى التحضر والازدهار . ولا يكون ذلك الا بالايمان ، فهذه امة يونس يحكي الله عنها اذ آمنت قائلا:

]فمتعناهم الى حين[

فلم تبق هذه المتعة و البركة طويلا ، لانهم لم يحافظوا على عاملها الأساسي وهو الايمان فهم ظلوا في متعتهم الى حين وجود الايمان بينهم.

[149]و بعد ان يختم ربنا قصص الانبياء التي أكد فيها على عبوديتهم له نفيا لادعاء المشركين بانهم آلهة ، و ذلك من خلال الآية الكريمة : " انه من عبادنا المؤمنين " ، التي تمثل عاملا مشتركا بين القصص كلها ، ينفي من الجانب الآخر مجموعة من التصورات التي اختلقها المشركون حول الملائكة و الجن ، و أهمها زعمهم بانها نسب لله عز وجل كوسيلة لتأليهها . و نجد في السياق امرا من الله الى رسوله بأستفتاء المشركين في ذلك.

]فاستفتهم ألربك البنات و لهم البنون[

و الاستفتاء هو اخذ الفتيا و الرأي .

[150]و لو سألهم الرسول لقالوا بلى ، و لكن على اي دليل يستند قولهم ، هل شاهدوا خلق الملائكة ؟

]أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون[

الذي يرى شيئا بعينه يمكنه ان يدعى صدق ما رآه ، و يكون ادعاؤه منطقيا ، بينما لم يشهد هؤلاء خلق الملائكة حتى يعرفوا ماهيتها ، و هذه الآية تنسف فكرة الجاهلية من الأساس حول الملائكة ، حيث تهدينا الى انها مجرد ظن لا دليل عليه.

[152 - 151]و مع ان ظاهر الآيتين الماضيتين حول الملائكة ، انهما تعالجان فكرة انوثة الملائكة ، الا ان هدف القرآن من الحديث هو نسف الاعتقاد بألوهيتها ، ذلك ان بعضا من المشركين تصوروها تولدت من الله فهي آلهة ايضا ، و انما دخل السياق لهذا الموضوع من زاوية الحديث عن طبيعة الملائكة وماهيتها ، ليبين لنا بان تصورات الجاهليين خاطئة ليس في تحديد دور الملائكة و حسب و انما يجهلون حتى ماهيتها ، و كل ما هنالك من افكار لديهم حولها فانها مجرد ظنون لا دليل منطقيعليها.

]ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله و إنهم لكاذبون]ان الاعتقاد بولادةالله الذي نشأ اصلا من اجل الهروب من ثقل المسؤولية ، ولكي يشبع الانسان غروره و كبره و تطلعه الى مقام الربوبية - ان هذا الاعتقاد - بروه ادعياء الحكمة و الفلسفة فوضعوا له نظريات الحلول و الاتحاد ، و وحدة الوجود ، و مهما حاولوا تبريرها فهي افك داخلي في نفوسهم ، و كذب فظيع على ألسنتهم.

ان المشركين يعلمون بكذب دعواهم فاجتمع في هذا الادعاء القبح الفاعلي الى جانب القبح الفعلي.

[153]و يتساءل القرآن من جديد:

]أصطفى البنات على البنين[

[154]ان استصدار هذا الحكم على الله سبحانه ، لا ينطبق مع أبسط قواعد الحكم المنطقية.

]مالكم كيف تحكمون[

[157 - 156 - 155]و الانسان حينما يريد الحكم على قضية ما إما ان يرجع الى ضميره ، أو الى حجة اخرى كالعقل و العلم ، وهؤلاء لا يراجعون ضميرهم بالتذكر ولا يرجعون الى حجة قاطعة اخرى.

]افلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين [

إذا بلغ الانسان حدا - و بالاعتماد على البراهين و الشواهد القاطعة - ان اعتقدحتى ولو بهذه الفكرة

الباطلة في واقعها . فانه معذور عند الله ، و لكنه تعالى أبى ان يجعل الحق باطلا لا ريب فيه ، ولا الباطل حقا لا ريب فيه ، و ذلك بما زرع في الانسان من ضمير ، و بما وهبه من عقل ، و انزل عليه من كتب ، و بعث له من رسل ، و جعلها جميعا فرقانا له في الحياة في كل امورها و قضاياها.

]فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين[

اذا كانت مزاعمكم هذه تعتمد على دليل فإين هو الدليل ؟؟

[158]وفي نهاية الدرس يعرج القرآن على فكرة باطلة اخرى لينسفها نسفا و هي تأليه الجن.

]و جعلوا بينه و بين الجنة نسبا[

فعبدوا الجن ، و عبدوا السحرة و الكهنة التي تدعي الاتصال بها ، أو تتصل بها فعلا.

]و لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون[

ولو كانت الجن آلهة كما يتصور المشركون ، لما أحضروا للعذاب كسائر العصاة من الخلائق و ذلك يدل بوضوح على انهم مخلوقون و ليسوا بآلهة . و ذكر الله لحضور الجنة للعذاب يضرب افكار المشركين في الصميم ، ذلك ان للشرك بصورة عامة جذر مشترك ، هو محاولة التخلص منالمسؤولية ، عبر الاعتقاد باشياء و قوى أنها تخلــص الانسان من عذاب الله ، و اذا كانت الجنة لا تخلص نفسها فكيف تنقذ البشر.

[159]و تعالى الله و تنزه عن هذه الافكار المنحرفة.

]سبحان الله عما يصفون[

[160]وفي الوقت الذي ينسف القرآن فكرة تأليه الجن ، ينسف من جانب الاعتقاد السائد لدى البعض من ان الجن يذهبون الى النار جميعا ، و ذلك حينما يستثنى من الحضور في العذاب المؤمنين المخلصين منهم.

]إلا عباد الله المخلصين[

كما تتضمن الآية تأكيد في كلمتها الاولى على عبودية الجن لا ألوهيتهم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

هدى من الآيات

في الدرس الاخير يلخص ربنا عبر هذه السورة ، و من أظهرها أن عباد الله المخلصين هم الذين أخلصهم ربهم ، و أخلصوا أنفسهم له ، فلم تؤثر فيهم العوامل التي جرت على غيرهم.

في الآيات الأولى من هذا الدرس ينفي القرآن الحكيم التعلق الشركي بالملائكة عبر التأكيد على عبوديتهم لله ، و تسليمهم لأوامره التي ينتظرونها ، تتنزل من عنده إليهم ، ثم ينسف فكرة الجبر مكذبا الذين يدعون بانهم مضطرون للشرك بالشياطين ، إذ لا جبر في الدنياعلى الانسان ، انما هو الذي يختار طريقه ، و أفكاره ، و اعتقاداته بكامل حريته ، و هذه الحرية هي التي تحمله المسؤولية الكاملة تجاه تصرفاته ، و الأوامر التي يوحيها الله لرسله بأن لا يبالغوا في تبليغهم الرسالة للكفار و المشركين تلتقي مع فكرة الاختيار ، فالكفار و المشركون هم المسؤولون عن اختيارهم ، و ليس من واجب المبلغ للرسالة أن يفرض عليهم اختيارا معينا.

و تنتهي السورة بما صار ختاما لأحاديث الصالحين وهي الآيات الثلاث الاخيرة و التي مطلعها تنزيه الله سبحانه ، ثم الثناء على رسله ، و اخيرا تخصيصه بالحمد.

بينات من الآيات

[162 = 161]ان افكار الشرك بألوانه المختلفة خاطئة ، و الانسان غير مجبور على الاعتقاد بها ، و لكنه لكي يرفع عن نفسه المسؤولية يزعم بانها مفروضة عليه ، و لا خيار له إلا قبولها بسبب الضغط أو الإغراء ، و القرآن ينقض فكرة الجبر هذه ، فيقول:

]فإنكم وما تعبدون * مآ أنتم عليه بفاتنين[

و كلمة " عليه " فيما يبدو تدل على الجبر ، فكأن القرآن يقول : انكم لا تجبرون احدا على اتباعكم فيما تعبدون لا بالإغراء ولا بالضغط ، لأن كلمة الفتنة تتسع لمعنى البلاء ، و الضغط ، و الإكراه ، كما تعني الإغراء و التزيين ، و عموما فإن الفتنة هنا بمعنى الجبر.

و اذا نظرنا في أحوال الذين يعبدون الآلهة من دون الله - من اتباع السلاطين ، و الاحزاب ، و عبدة الأثرياء ، و الوجهاء ، و ادعياء الدين - لرأيناهم يبررون جميعا شركهم بأنهم مجبورون ، وأنه لا سبيل لمقاومة الطاغوت ، ولا الهروب من شبكات الأحزاب ، ولا مقاومة تجويع المترفين ، و تضليل الوجهاء ، و أدعياء الدين.

كلا .. ربنا الذي خلق خلقه أعطى لخلقه الحرية و القدرة على الرفض ، و لكن الشيطان يسول العبودية ، و يزينها له.

[163]فالآلهــة المزعومون ليسوا بقادرين على جبر الناس مهما حاولوا ، بلى.

انهم يضغطون عليهم ، و لكن يبقى القرار الحاسم بيد الإنسان ، وانما يستجيب لهم من تتواجد فيه مقومات الشرك و الكفر.

]إلا من هو صال الجحيم[

و ذلك دليل حرية الانسان ، و انه غير مضطر للإنحراف ، و ان عليه الجزاء شخصيا ، لأن الذي يتجاوب مع فتنة المشركين يصلى النار بنفسه ولا يغنون عنه شيئا ، و هذا أعظم شاهد على مسؤولية الإنسان ، كما هو أفضل علاج لداء التسويف و التبرير ، فلو علم المبررون ، وأولوا الاعذار الواهية أنهم يذاقون العذاب فعلا برغم تبريرهم و أعذارهم ، فان ذلك يقتضي ارتداعهم.

[166 - 165 - 164]و يعرج السياق مرة اخرى لينقل لنا رد الملائكة (عليهم السلام) على اباطيل المشركين حولهم في آيات ثلاث:

]وما منا إلا له مقام معلوم[

و المقام هنا قد يعني المنزلة ، فالملائكة يتفاضلون فيها ، و أعظمهم الروح ، و قد يعني الدور ، فلكل ملك دور يختلف عن الآخرين ، إذ منهم من هو مختص بقبض الارواح ، و منهم من وكل بالسحاب و المطر و .. و .. و مقام الملائكة و دورهم معلوم عند الله و عند الملائكة ، و كونهم الموكلون بشؤون الحياة و إدارتها لا يرفعهم إلى مقام الربوبية أبدا ، كما لا يقفزون إلى دور آخر للقيام مثلا بالشفاعة لهذا ، و قضاء حاجة ذاك الا بامر الله.

]و أنا لنحن الصادقون[

كالجند .ينتظر الجميع أوامر ربه لينفذوها ، و لا يحيدون عنها قيد أنملة ، و لعلأهم ما يصطف له الملائكة هو عبادة الله ، و ذروتها التسبيح و التنزيه.

]و إنا لنحن المسبحون[

ينزهونه - عز وجل - عن كل مالا يتناسب و مقام الربوبية ، عن الوهن و الجهل ، و عن الشركاء التي زعم الجاهلون بأن الملائكة منهم.

[169 - 168 - 167]و من الناس من يتهرب من المسؤولية ببعض التمنيات ، و تعليق قيامه بالواجب ببعض الشروط المستقبلية ، فاذا قيل لهم : لماذا لا تصلوا ؟ قالوا : سوف نفعل ذلك اذا ذهبنا الى الحج ، او اذا كبرنا .. و بعضهم يلقي بالمسؤولية على الله سبحانه ، ويقول لأن الله لم يوفقني فاني لم اهتد الى الصلاح ، و لو أن الله بعث الينا رسولا فسوف نكون اهدى من غيرنا.

]و إن كانوا ليقولون[

قولا مجردا ، لا يتجاوز لقلقة اللسان.

]لو أن عندنا ذكرا من الأولين[

نهتدي به ، و نسير في الحياة على ضوئه.

]لكنا عباد الله المخلصين[

لكن هل يمكن للانسان ان يدرك هذه المنزلة الرفيعة بمجرد التمنيات ؟ كلا .. إذ لابد لبلوغها من السعي ، لأنه وحده الذي يحول الآمال الى واقع.

[170]ولان هؤلاء يعيشون مجرد التمنيات ، و انما قالوا ذلك لتبرير انحرافاتهم فقد جاءهم القرآن ، و كان يفترض فيهم أن يتبعوه ليصلوا الى سماء الإخلاص.

]فكفروا به[

و تبينت حقيقتهم بأن كلامهم مجرد أمنيات غير جادة ، و هذه طبيعة كل الذين يسوفون التوبة ، و يعلقون إصلاح أنفسهم على شروط غير متحققة ، و يعيشون في حلم المستقبل دائما ، و هذا التسويف يرديهم الى الهاوية.

]فسوف يعلمون[

فهم يقولون : سوف نعمل ، فيقول لهم القرآن : بل سوف تعلمون أن إضاعة فرصة العمر الوحيدة لم تكن في مصلحتكم أبدا.

و في طيات هذا التعبير تهديد مبطن بالعذاب ، وقد يكون عدم التصريح بنوعيته و كيفيته أبلغ و أرهب في النفوس ، حيث تتفاجأ بألوان من العذاب لم تتوقعها أو تحسب لها حسابا.

[172 - 171]ان تشبث فئام من الناس بمختلف التبريرات كالأفكار الجبرية ، و الانتظار الساذج للفرار من مسؤولية الإيمان بالرسالة يجب أن لا يوهن الرساليين أو يسلبهم الثقة بنصر الله لهم ، لأنه سبحانه أراد الإنتصار لمبادئه و لمن يؤمن و يلتزم بها ، ولو كانظاهر الحياة هو تسلط الطغاة المنحرفين ، فان الله غالب على أمره ، وما سيطرتهم إلا محدودة.

]ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون]فليس كلام الله عن نصرهم شيئا جديدا ، انما هو قديم سبقت بواقعيته أحداث التأريخ ، فما من رسالة إلا وأظهرها الله ، نعم . قد يقدم أصحابها شيئا منالتضحيات ، أو يطول بهم الإنتظار برهة من الزمن . لكن العاقبة تكون في صالحهم و صالح خطهم في الحياة ، و يلاحظ توالي التأكيدات اللفظية على ذلك في هذه الآية وفي التي تليها أيضا.

[173]و هذا النصر لا يختص بالأنبياء شخصيا ، انما ينتصر كل من يمثل جبهة الحق ، و يحمل مشعل

الرسالة الإلهية على امتداد التأريخ وفي كل أفق.

]و إن جندنا لهم الغالبون[

و جند الله هم المؤمنون.

[174]و لكن متى ينصر الله عباده المؤمنين ؟

ينصرهم حينما ينفصلون و يتميزون عن الكفار و المنافقين . ماديا و معنويا ، لهذا جاء الأمر الإلهي للرسول بذلك.

]فتول عنهم حتى حين[

و الحين هنا يعني الوقت الذي يأتي فيه الامر للرسول و المؤمنين بالهجوم عليهم و قتالهم ، في ظل رعاية الله و نصره.

[175]وفي الأثناء التي ينفصل المؤمنون المجاهدون عن الكافرين و المنافقين بالهجرة - مثلا - ينبغي لهم أن يراقبوهم ، و يكونوا شهودا على الواقع ، و كل حركة تنشد التغيير لابد لها من مراقبة الواقع ، و دراسة العدو.

]و أبصرهم فسوف يبصرون[

انهم - بدورهم - سوف يرون العذاب و يلاقونه من عند الله أو بأيديالمؤمنين.

و في الآية معنى التأكيد على العاقبة لرسل الله و جنده ، فكأنها أمام أعين الجميع يبصرها الصالحون فيفرحون بها ، و يبصرها الكفار فيزدادون بها غيضا و حنقا.

[176]و عذاب الله لا يأتي للانسان حسب تمنياته ، حتى يحتج الكافرون على كذب الرسالة بأنهم تحدوا الله ، فلم يرد عليهم ، كلا .. انما يرسل ربنا العذاب حسب حكمته سبحانه.

]أفبعذابنا يستعجلون[

و ماذا يستعجلون من عذاب الله ، إنه الدمار الشامل ، و الهزيمة الماحقة ، و النار المحيطة ، و الهوان الأليم.

[177]ان هذا التحدي التام من قبل الكافرين لرب العزة إنما هو بسبب جهلهم بقدرته ، و طبيعة العذاب الذي ينزله على الملحدين.

]فإذا نزل بساحتهم[

الغضب الإلهي متجسدا في العذاب الدنيوي ، يعقبه عذاب الخلد في الآخرة.

]فساء صباح المنذرين[

و غضب الله أكثر ما ينزل في الصباح ، و الكفار في كامل قوتهم و يقظتهم ، و ذلك ليشعروا بحقارتهم ، و ليذوقوا العذاب بأقصى ما يمكن للإنسان ، ذلك زيادة في السوء لهم ، لأنهم ليس لم يستجيبوا للنذر و كذبوها فحسب ، انما بارزوا الله تحديا و محاربة ، و القرآنيكرر الاشارة الى الصباح كزمن للعذاب ، قال تعالى : " انموعدهم الصبح أليس الصبح بقريب " (١(

[178]و يرجع السياق مرة ثانية للتأكيد للرسول على ضرورة تركه للكفار و هجرهم ، و انتظار الفرج

الإلهي.

]و تول عنهم حتى حين[

اي حين يحين موعد الإنتقام الإلهي منهم ، بتحطيم كبريائهم ، و نصر رسوله عليهم.

[179]و يبين السياق ان عاقبة النصر لرسوله ، و الهزيمة للكفار واقعة لا ريب فيها حتى لكأنها امام بصر الجميع.

]و أبصر فسوف يبصرون[

حينما نتلو القرآن نجد آيات كثيرة منه تؤكد على الرسول بأن لا يقتل نفسه بتحميلها بالغ الهم من اجل الذين يرفضون الرسالة ، و أن مسؤوليته تنتهي بتبليغ رسالته ، و هذا الأمر يهم المؤمنين الذين يسيرون في خط الرسول (ص (ايضا ، فواجبهم هو أن يكيفوا أنفسهم وسلوكهم في الحياة حسب تعليمات ربهم أثناء الدعوة إليه ، فإن آمن الناس التحقوا بهم ، و إن كفروا فهم و شانهم ، و ليس مطلوبا أن يبالغوا أكثر من اللزوم في هدايتهم ، لأن ذلك قد يصرفهم عن بعض الواجبات ، و يؤخر مسيرتهم باعتبارهم سوف يصرفون جهودا مكررة بالأولىلهم ان يبذلوها في أعمال و خطط أخرى تقدم العمل خطوة إلى الأمام.

[180]و ختاما لهذه السورة التي عالج سياقها موضوع الشرك ، و بعض الأفكار(١) هود / ٨١.

الخاطئة ، و التصورات التي اعتقد بها المشركون نجد تنزيها لله عز وجل بأكرم الألفاظ و أجلها عنده تعالى وهي لفظة " سبحان. "

ان دعوة القرآن للمؤمنين بان لا يبالغوا في وعظ المشركين لا تعني أن يرضوا بهم و بما يدعون و يعملون ، انما يجب عليهم التسبيح تنزيها لله و ذلك لكي لا يتأثروا بشركهم ، لأن من طبيعة البشر تأثره بأفكار الآخرين ولو جزئيا ، فاذا لم يكونوا قادرين على ان يتخذوا موقفا عمليا أو قوليا فليسبحوا ربهم في قلوبهم تسبيحا كثيرا.

]سبحان ربك رب العزة عما يصفون[

الناس على اختلاف اديانهم و مذاهبهم الفكرية يصف كل جماعة منهم ربه بوصف لا يليق و مقام الربوبية ، و لكن عباد الله المخلصين هم الذين يصفونه بما يليق به عبر التسبيح.

و قد اختلف المفسرون و الفقهاء في تحديد أفضل كلمات الذكر ، فمنهم من قال : انه " الحمد لله " و قال أخرون : انه " لا اله الا الله " و جماعة ثالثة قالوا : " الله اكبر " هو اعظمها ، و الذي - يبدو لي -ان كلمة " سبحان الله " هي أعظمها و أثقلها وزنا عند الله ، لأن طبيعة الانسان طبيعة مرتكزة في الجهل بمعناه الشامل ، و بالتالي في الابتعاد عن الله ، و هذا ما يدعوه الى تصور الخالق حسب طبيعته ، فاذا به يصوره محدودا ، عاجزا ، جاهلا ، مركبا - مثلا - انطلاقا من نظرته الى نفسه و الأشياء من حوله ، ثم ان روعة جمال الطبيعة ، و تزيين الشهوات التي تدعو النفس اليها ، و سيطرة الجبارين و المترفين كل ذلك قد يبعد المؤمن عن ربه ، و يجعله يشرك به شركا خفيا ، مما يجعله يحتاج الى تكرار التسبيح.

و كلمة المخلصين " سبحان الله " التي تلهج بها ألسنتهم هي اعتراف بالعجز عن معرفة كنه الله ، الا المعرفة التي تخرجه عن حد التعطيل و التشبيه و التي دعى اليها أئمة الهدى ، و هذا يبعدهم عن العقائد الضالة.

قال الامام الصادق - عليه السلام: -

"ان الله تبارك و تعالى خلق اسما بالحروف غير منعوت ، و باللفظ غير منطق ، و بالشخص غير مجسد ،

و بالتشبيه غير موصوف ، و باللون غير مصبوغ ، منفي عنه الأقطار ، مبعد عنه الحدود ، محجوب عنه حس كل متوهم ، مستتر غير مستور ، فجعله كلمة تامة على اربعة أجزاء معا ، ليس منها واحد قبل الآخر ، فاظهر منها ثلاثة أسماء لفاقة الخلق اليها ، و حجب واحدا منها وهو الإسم الآخر المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة التي اظهرت ، فالظاهر هو (الله ، و تبارك ، و سبحان) لكل اسم من هذه أربعة أركان فذلك اثنى عشر ركنا " (١(

و سئل الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - ما تفسير سبحان الله ؟ قال:

"هو تعظيم جلال الله عز وجل ، و تنزيهه عما قال فيه كل مشرك ، فاذا قال العبد صلى عليه كل ملك " (٢)[١٨١] وكما للمؤمن علاقة بالله شعارها التسبيح ، و محتواها العبودية والطاعة ، فإن له برسله علاقة أيضا و لكن شعارها السلام ، و واقعها الحب والإقتداء ضمن المسيرة الواحدة.

(1)بح / ج ٤ / ص ١٦٦.

(2)المصدر / ج ٩٣ / ص ١٧٧.

]و سلام على المرسلين[

و وجود علاقة السلام بينك و بين المرسلين دليل على المسيرة الواحدة ، و التوافق في الحياة ، و قبل ان يسلم الإنسان على الرسل يجب ان ينظف قلبه ليرتفع إيمانه الى هذا المقام العظيم ، و الذي لا يطهر نفسه و عقله و سلوكه ، و بالتالي يسير على خطى الأنبياء ، فأنهم بريؤون منه ، لأنه حينئذ يحارب فكرهم بفكره المنحرف ، و قيادتهم بطاعته للطاغوت ، و خطهم بالإنتماء الى الخطوط المضادة لرسالات الله.

[182]وإذا كانت انطلاقة الانسان بالتسبيح الحقيقي لله ، و مسيرته و حركته مستوحاة من رسالات الأنبياء ، و التأسي بهم ، فان العاقبة ستكون حسنة ، تدفع الإنسان نحو الشكر و الحمد على ما سيلقاه من هدى و بركة و جنان نتيجة ذلك ، ذلك ان نهاية المسيرة في سبيلالله هي الطمأنينة و الرضى ، وقد اشار لها تعالى اذ قال : " و لسوف يعطيك ربك فترضى " (١) وقال ايضا : " يا ايتها النفس المطمئنة * (ولا تطمئن النفس الا بذكر الله) أرجعي الى ربك راضية مرضية (2) "و عموما فان المؤمن بطبيعته الرسالية يكون راضيا بقدر الله وقضائه ، ايمانا منه بأن ما يختاره له الله بحكمته أصلح مما يتطلع اليه ، فهو يحمده في الشدة و الرخاء.

]و الحمد لله رب العالمين[

و في هذه الآية إشارة الى أساس علاقة الإنسان بالآخرين من البشر ، فهي لا تشبه علاقته مع الله ولا مع الانبياء ، و لكنها علاقة الأحساس الواحد بالعبودية لله.

وقد وردت الروايات مؤكدة على استحباب قراءة هذه الآيات الثلاث في نهاية(١) الضحى / ٥.

(2)الفجر / ٢٧ - ٢٨.

كل مجلس يجلسه العبد او يتحدث فيه.

عن الاصبغ بن نباته ، عن أمير المؤمنين (ع) عن رسول الله (ص) انه قال:

"من أراد ان يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه في مجلسه : سبحان ربك

رب العزة عما يصفون * و سلام على المرسلين * و الحمد لله رب العالمين " (١)(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٤١.

سورة ص

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي جعفر الباقر (ع) قال:

"من قرأ سورة "ص " في ليلة الجمعة اعطي من خير الدنيا و الآخرة ما لم يعط أحد من الناس إلا نبي مرسل أو ملك مقرب ، و ادخله الله الجنة و كل من أحب من أهل بيته ، حتى خادمه الذي يخدمه ، و إن لم يكن له في حد عياله ولا في حد من يشفع فيه"

تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٤١

الاطار العام

الشرك بالله إطار لكل الضلالات و الجرائم ، و كافة الذنوب و الاخطاء ، و تكاد سور القــرآن جميعا تعالج هذا الداء الذي هو جذر كل داء ، إلا أن عوامل الشرك عديدة ، و المعالجات القرآنية مختلفة بحسبها.

و أننا نستلهم من خلال التدبر في دروس هذه السورة الكريمة (سورة ص) انها تعالج الحالة الشركية التي تخلقها السلطة ، و الثروة ، و الشهرة في نفس الانسان فاذا به تأخذه العزة بالأثم ، و ينطلق في سبيل الشقاق عن الحق ، و عبادة آلهة القوة و الغنى.

في افتتاحية هذه السورة نقرأ : أن الذين تفرقوا في عزة و شقاق ، و سرعان ما ينذرهم الرب بمصير الذين أهلكهم من قبل ، و يذكرنا بمحور ضلالتهم ، حيث أنهم تعجبوا من حذف الآلهة ، و الأمر بعبادة إله واحد ، كما أنهم استهانوا بالرسولانطلاقا من مقاييسهم المادية.

و يعالج القرآن هذه الحالة ببيان حقارة ما يملكون (من قوة و من غنى) إذا قيس بملك السموات و الارض ، و بخزائن رحمة الرب العزيز.

أما خاتمة السورة فتذكرنا بقصة ابليس الذي رفض السجود لأبينا آدم (ع) اعتزازا بعنصره الناري ، و كيف أن هذه العزة الآثمة كانت وراء هلاكه و هلاك تابعيه الى يوم القيامة ، حيث يحشرون في نار جهنم حشرا.

و بين تلك الفاتحة و هذه الخاتمة يسرد السياق نمطين من القصص:

الأول :قصص المكذبين الهالكين يشير اليها مجرد اشارة ، بينما يفصل القول في النمط الثاني الذي وهب الله لهم الرب ملكا واسعا ، وثروة عريضة ، و لكنهم لم يغتروا و لم يشاققوا الله بها كداود و سليمان ، ثم إبراهيم و اسحاق و يعقوب ، و يبين انهم فازوا بنعيم الدنيا و حسن ثواب الآخرة ، بالإضافة الى الذكر الحسن عبر التاريخ ، و في مقابل هؤلاء يذكرنا السياق بمصير المكذبين الذين اقحموا في نار جهنم ليتخاصموا مع بعضهم ، و بالذات يتخاصم التابعون مع المتبوعين.

و من خلال قصص الانبياء و تقديرهم ، و بيان الحكومات العادلة التي اقاموها في الأرض ، و بالذات قوله - عز وجل - لداود)ع) : " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض. "

ومن خلال بيان هلاك ابليس بسبب رفضه السجود لآدم (ع) ، و بيان هلاك المستضعفين بسبب تسليمهم للمستكبرين نستطيع - من خلال كل ذلك - أن نعرف أن مراد السورة بيان زيف السلطات القائمة على أساس القوة و الثروة ، و سائر القيم المادية الأخرى ، و ضرورة إقامة حكومة العدل الإلهية القائمة على أساس أمر

الله و خلافته ، و أن أساس الولايات الباطلة العزة و الشقاق ، بينما أساس الولاية الربانية الحق.

بل الذين كفروا في عزة و شقاق

هدى من الآيات

من أهم العوامل التي تدعو الناس الى الكفر بالرسالة ، و محاربتها و بالتالي الانحراف عن الخط المســتقيم ، هو تقديس الواقع القائم أو ما يسمى بالتقليد ، حيث يعتقد المجتمع بأن ما لم يكن لا ينبغي أن يكون ، فالواقع يجب أن يبقى . و يقوي هذا العامل أمران ؛ الاول أنه واقع قائم بينما الرسالة فكرة جديدة لما تتحول الى واقع ، و الثاني أن بعضا من أفراد المجتمع و خاصة الوجهاء و أصحاب المصالح ، يدافعون عن الواقع القائــم و يحاربــون الرسالة ، لانهم يخشون على مصالحهم من أي تبدل أو تحول.

و قد يكون عامل البقاء على الحالة الراهنة ، نابعا من اعتزاز الانسان المبالغ بواقعه و المتمثل في الاصرار و العناد الاعمى على المحافظة عليه ، و هو ما يعبر عنه السياق القرآني مرة بكلمة عزة ، و مرة أخرى بما قاله الكفار لبعضهم إذ تآمروا على العناد و الصبر على الباطل.

و لعلاج هذه الحالة ينبغي بيان الضعف للانسان ، و أن الذي يملكه الآن لا يعد شيئا إذا قورن بما يغنمه لو تقبل الرسالة و اصلح اوضاعه ، و بالتالي دعوته الى التغير نحو حياة أفضل . و هذا من أهم أساليب الانبياء في التغيير ، قال نوح (ع) وهو يشير الى أساليبهفي الدعوة : " فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * و يمددكم باموال و بنين ويجعل لكم جنات و يجعل لكم أنهارا " (١) ، و في موقع آخر من القرآن نجد تجلي صريح لهذا الامر أيضا . يقول تعالى مشجعا الناس على الايمان برسالته:
"ولو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الارض ، و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون " (٢(

بينات من الآيات

] [1]ص[

حرف يفيد الابتداء به التنبيه ، و هو يشير الى القرآن الكريم ، و من أبعاده أنه رمز بين الله و أوليائه فهم يختصون بفهمه ، و عن الصادق (ع)ٍأنه من أسماء الله تعالى (٣) ، و في خبر آخر (ص) اسم نهر ينبع من ركن العرش . قال الامام الكاظم (ع) : " إن أولصلاة صلاها رسول الله (ص) انما صلاها في السماء بين يدي الله تبارك و تعالى قدام عرشه جل جلاله ، وذلك أنه لما أسري به و صار عند عرشه تبارك و تعالى قال : يا محمد أدن من صاد فاغسل مساجدك و طهرها و صل لربك ، فدنى رسول الله (ص) الى حيث أمره الله تبارك و تعالى فتوضى و أسبغ وضوءه " . قلت (يعني الراوي) : جعلت فداك وما صاد الذي أمره أن يغتسل منه ؟ فقال : " عين تنفجر من ركن من اركان العرش ، يقال له ماء الحيوان و هو ما قال(١) نوح / ١٠ - ١٢.

(2)الاعراف / ٩٦.

(3)رواه ابن عباس نور الثقلين / ج ٤ / ص . 442

الله عز وجل : " ص و القرآن ذي الذكر " (١)ثم يقسم ربنا بالقرآن العظيم ، مشيرا الى أهم ما تشتمل عليه آياته الكريمة وهو الذكر.

]و القرءان ذي الذكر[

و قد سمى الله كتابه فيه بالذكر عشرات مرات ، وهنا يسميه " ذي الذكر " فما هو معنى الذكر ؟

لقد خلق الله الانسان مستقيما بفطرته ، التي أودعها الايمان بكلياته الكبرى ، بالله و اليوم الآخر ، و بضرورة الصدق و الوفاء و الامانة و .. و .. و لكن عوامل مختلفة من بينها ضغط الشهوات و المجتمع تدعوه الى الانحراف . و يأتي القرآن ليذكره بما ينساه أو يغفل عنه بسبب تلك العوامل ليعود الى رشده المتمثل في (الطريق المستقيم) الذي هو الحالة الطبيعية للانسان ، على خلاف الانحراف الذي يجسد الشذوذ في الحياة . فالقرآن يستثير العقل من خلال التفكير ، و فسر البعض الآية بالذكر الطيب و السمعة الحسنة . و يبدو ان التفسير الأول أقرب.

[2]و مع عظمة القرآن و قدرته الهائلة في التغيير و التأثير على الانسان ، لكن الكفار لا يتأثرون به ، لان التذكرة و حدها لا تنفع إذا كان جهاز استقبالها وهو العقل قد احتجب بالأهواء و الغباء الذي هو من أهم الحجب التي تمنع البشر من الانتفاع بالتذكرة ، وتدعوه الى الأصرار على الأنحراف.

(1)المصدر

]بل الذين كفروا في عزة و شقاق[

أما أنت أيها الرسول فعلى الحق ، من هنا قال بعض المفسرين أن المقسم به محذوف تقديره " و القرآن ذي الذكر " (إنك تحمل للناس ذكرا) ، و يدل على هذا الحذف التصريح به في مثيله من سورة يس إذ قال ربنا : " يس و القرآن الحكيم *انك لمن المرسلين " (١) و انما صار الحذف هنا لدلالة الآية الثانية على المحذوف المقسم به.

و هذه الآية تبين العامل في رفض الكافرين للتذكرة الا وهو العزة و الشقاق ، و العزة هو تصور الانسان نفسه أنه وصل من القوة و المنعة مالا يحتاج معه الى الحق ، أو الى ربه ، فيبقى يصر على انحرافه بل و يعتز بالخطأ . يقول ربنا في آية كريمة : " وإذا قيلله اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم و لبئس المهاد " (٢) ، و رفض هؤلاء للحق ليس نابعا من قوة المنطق لانهم يرفضونه بدون أي مبرر معقول ، و لكنه نابع من منطق القوة التي يخضع لها أكثر الناس و إنما لم يستجب كفار قريش للرسول إعتزازا بقوتهم ؟ بلى. إن من أعقد مشاكل الانسان أنه لا يعترف بخطئه حين يتبين له الحق غرورا و خشية بأن يجلب له ذلك المهانة فتراه يعتز بباطله الذي كان عليه.

أما الشقاق فهو الشذوذ فمع أن الكون كله قائم على الخضوع لله و حتى جسد الانسان يخضع لآلاف القوانين التي تخضع هي بدورها لمشيئة الرب . ترى الكفار و من يلتقي معهم من المذنبين و العصاة يشقون عصا الطاعة ولا ينسجمون مع الحق الذي تقوم عليه الحياة.

[3]و الانسان المؤمن يجب أن لا يضعف ولا يشكك في خطه حينما يرى(١) يس / ١ - ٢.

(2)البقرة / ٢٠٦.

الاغلبية منشقة عنه ، لان المقياس هو الحق و ليس الناس . و لو أنه درس الحياة لاطمئن الى خطه ، لانه حينئذ سيجد الكون بما فيه من خلق و سنن يسيران معه ، و كذلك لو قرأ التأريخ لاهتدى الى نفس الحقيقة ، و حتى المجاميع التي يعاصرها سوف تخضع لله شاءت أم أبت ، وإذا لم تختر ذلك عن وعي و ارادة حرة ، فسوف تجبر عليه بارادة الله و بسننه التي أجراها على الخلق أجمعين.

و لكي نؤمن بهذه الحقيقة يدعونا ربنا الى النظر في التأريخ ، فهو مليء بالشواهد الدامغة عليها ،

فأولئك الذين رفضوا رسالات الله ، و لم يخضعوا لها و لرسله أهلكهم و لم تغن عنهم قوتهم شيئا.

]كم أهلكنا من قبلهم من قرن[

القــرن الناس للذين يعيشون مقارنين مع بعضهم زمانا و مكانا ، و كم أداة استفهام تدل هنا على الكثرة . و الله إذ ادخل هذه الاداة في التعبير أراد أن يهدينا الى أن هذه السنة لم تتجل مرة واحدة و حسب فالتأريخ كله شواهد عليها و كانت هذه السنة الالهية جديرةبأن تتعظ بها الامم إلا أنها تكتشف خطأها متأخرا حين لا تنفع التوبة.

]فنادوا ولات حين مناص[

قالوا :لات كان في الأصل لا (لنفي الجنس أو المشبهة بليس) ثم أضيفت اليها التاء لتأكيد النفي كما تضاف الى ثم و رب لذات الغاية.

و المناص المنجا و الغوث يقال ناصه ينوصه اذا أغاثه.

هكذا يصور القرآن و ضعهم حين ينادون بالأستغاثة و التوبة و التألم و لقد اطلقالقرآن لكي يذهب بنا الخيال الى كل تلك المفردات لندائهم الميأوس.

و لكن ذهب وقت الفوت . أو ليست الفرصة فاتتهم الى الأبد ؟!

و تلك عاقبة الأعتماد على القوة ، و الاعتزاز بغير الحق ، فهذه الامم اعتمدت على منطق القوة في الحياة ، و رفضت الخضوع الى المنطق و الحق ، و غفلت أن للحق قوة لا تحد هي قوة الله عز وجل ، و قد أبى الله تشريعيا و تكوينيا أن ينتصر الباطل على الحق و أن تكونالعاقبة إلا في صالح الرسالات و حملتها.

[4]و للتمثــيل على عزة الكافرين وشقاقهم ، و صدودهم عن الذكر و الموعظة ، يحدثنا عن واقع المشركين و موقفهم من رسالة الاسلام.

]و عجبوا أن جاءهم منذر منهم[

لأنهم كانوا يتصورون الرسول يختلف عن الناس ، فكفروا به إذ لم يتفق مع مقاييسهم التي تريد الرسول قويا و ذا مال كثير لا أن يكون من وسطهم الاجتماعي ، و طبقتهم المالية و هذا التصور ناتج عن اعتزازهم بالقوة و المال لا بالحق ، فهما عندهم القيمة الاساسية فيالحياة . ولان منطقهم أضعف من أن ينال من قيم الرسالة استشكلوا على الرسول ، ليس في أخلاقه فهو باعترافهم جميعا كان في الذروة ، و لكن على وضعه المادي و الاجتماعي . ولم يكن هذا التبرير كافيا لرفضهم قيادته و زعامته فقد جاءهم بالحق و الآيات ، ولابد لهم من تبرير آخر ليتهربوا من المنطق الحق المتمثل في رسالته ، فصاروا من العجب الى الكفر.

]و قال الكافرون هذا ساحر كذاب[

و اختاروا كلمة ساحر لان السحر أقرب الاشياء للحق ظاهرا ، و إن كان واقعاأبعدها ، و كانت هذه التسمية للهروب من ضغط المعجزة.

و الواقع : إن ذات إتهام المشركين للرسالة بأنها سحر شاهد على صدقها ، إذ انه دليل على ان الرسالة كانت ذات جاذبية تشبه في قوتها جاذبية السحر عندهم ، كما انها كانت خارقة ذات ايات عجزت قواهم البشرية عن الاتيان بمثلها ، مما دعاهم للافتراء عليها بانها سحر.

فاذا عرفنا مدى الفرق بين السحر و الرسالة في ان الساحر لا يفلح ، و انه لا يبني حضارة ، وان كلامه لا يكون موافقا للعقل و الفطرة ، بينما الرسول يعكس ذلك كله ، عرفنا كيف كان اتهامه بالسحر دليل صدقه

.

[5]و يهدينا القرآن مرة أخرى الى شذوذ الكافرين (شقاقهم) و عزتهم ، بالاشارة الى اعتراضهم على دعوة النبي التوحيدية ، فمع أن الوحدة حق يهتدي إليه الانسان بفطرته و تتطلع اليه الامم المتحضرة ، و لكنهم يرفضونها اعتزازا بواقع التمزق القائم عندهم.

]أجعل الألهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب[

و من الآية نستوحي بأن التوحيد ليس هداية للناس للحق و حسب ، بل هو العلاج الحقيقي للفرقة ، ذلك أن منشأ التفرقة في أية أمة هو الشرك الكلي أو الجزئي فهذا الفريق انما ينشق عن البقية لانه يؤمن بفكرة و قيادة ما فالرايات القبلية ، و العصبيات العشائرية ، والحدود الجغرافية ، و المصالح القومية ، و الأختلاف العنصري و الطائفي ، و ما أشبه كل اولئك عوامل اختلاف الناس و شقاقهم ، واذا أمعنت النظر رأيت كل واحد منها ينتهي الى تقديس شيء من دون الله ، و انما الآلهة رموز تلك المقدسات . أرأيت الناس حين يقدسون العلمالوطني يعبدون قطعة قماش

أم حدود الوطن ؟ كذلك حين كان الجاهليون يعبدون الأصنام التي كانت ترمز الى عصبياتهم العشائرية فانما كانوا يعبدون قيم العشيرة.

و هذا نستنتجه من التدبر في الآيتين (٢ + ٥) ففي الوقت الذي يذكر القرآن الشقاق في مجتمع الجاهلية في الآية الثانية ، يشير هنا الى تعدد الآلهة فيه ، وفي نصوص التأريخ نجد أنه كان في الكعبة وحدها (٣٦٠) صنما لكل قبيلة صنمها المختص بها ، و لكي يجمع النبي الناس و يوحدهم طرح رسالته التوحيدية كبديل عن الافكار الشركية ، و كسر الاصنام لانها كانت رمزا للتفرقة (الشقاق) و العزة.

و لعل أحدنا يستنكر على الكفار و المشركين رفضهم لتلك الرسالة التوحيدية ، و لكننا نجد اليوم و بعد (١٤ (قرنا ، أناسا يسخرون ممن يطرح في - الساحة الاسلامية - كسر الحدود المصطنعة التي أوجدها الاستعمار بيننا ، و هي لا تعدو أن تكون بدائل عن الاصنام التي علقها الجاهليون في الكعبة و ليس رفض هكذا دعوة يأتي بسبب ان الرافضين لا يجدونها حقه ، و انما لاعتزازهم بالواقع الفاسد ، حيث تقوم دولة على كل قطعة أرض و يرتفع علم و يتسلط حاكم مغرور.

[6]ولا شك أن اول من يسعى للابقاء على الواقع القديم برموزه الصنمية هم أصحاب الوجاهة الاجتماعية ، و الصدارة السياسية ، و الثروات المسروقة لانهم انما يستعبدون الناس ، و يمتصون جهود المجتمع من خلال هذا الواقع الفاسد ، فاي محاولة للتغيير تعني تقويض مصالحهم و هكذا تراهم يهبون للدفاع عنه ، و محاربة الفكر الجديد ، بشتى الاساليب و من ابرزها اثارة العزة بذلك الواقع .

]و انطلق الملأ منهم[

و هم المستكبرون في المجتمع ، و الذين يقودون المعارضة ولا زالوا ضد الانبياءو الحركات التغييرية ، و همهم الاكبر الابقاء على التخلف فاذا بهم يدفعون عجلته بهذا الاتجاه.

]أن آمشوا[

و يوحون للناس بان مسيرتهم تقدمية و صحيحة بالتضليل و التجهيل . و لكن لان فطرة الانسان تخالف الباطل ، و لان الباطل تقف ضده كل عناصر الوجود و سننه فان قبوله صعب نفسيا و عمليا على البشر ، لهذا اكد الملأ على ضرورة الصبر.

]و اصبروا على ءالهتكم[

كما أن من أساليب الطغاة في جر الناس الى معارضة المصلحين ، أنهم يحاولون اقناعهم بأنهم

يستهدفون مصالحهم و مقدساتهم ، فاذا نهضت طلائع المجتمع للثورة ، و قامت ببعض الاعمال الجهادية قالوا للناس : " بأن هذه الاعمال لا تستهدف السلطة و حدها انما تستهدف أمن المواطن و استقراره ايضا ، و بالتالي فمسؤولية القضاء على المخربين (في زعمهم) هي مسؤولية الجميع " و يؤكدون:

]إن هذا لشيء يراد[

و هناك تفسيرات عديدة لهذه الكلمة نذكرها تباعا:

ألف :وهو الذي يبدو أقربها أن الملأ أرادوا من هذه الكلمة أن الاستمرار على عبادة الآلهة شيء مطلوب و حميد ، اعتزازا بالباطل و الاثم ذلك ان من سلبيات النفس البشرية أنه يصعب عليها فردا و أمة التراجع عن الخطأ حتى لو تبين له.

باء : أن الملأ ارادوا بهذه الكلمة تشويه شخصية الرسول)ص) ، فكأنهم قالوا بأن هدفه من الرسالة و الانذار هو المنافع الشخصية التي يريدها لنفسه . و هذه منطبيعة الطغاة ، أنهم يتهمون المصلحين بذلك .

جيم : أن هذا المقطع من الآية هو كلام الله سبحانه و هو رد على قول الكافرين في مقابل دعوة التوحيد " إن هذا لشيء عجاب. "

[7]و يوصل السياق بيانه لاساليب الملأ في التضليل عن الحق.

]ما سمعنا بهذا في الملة الأخرة[

إن الشرعية و القدسية في نظرهم تكون للدعوة التي تنتمي الى الواقع و تتجانس معه ، لا التي تنطوي على الحق و العلم ، و ما دامت الاجيال الغابرة تنفي صحة هذا الفكر فهو خطأ إذن . و هذا ضرب من الرجعية لا مجتمعا يعتمد هذه المقاييس لن يبدع و لن يتقدم خطوة إلىالامام.

ثم حكموا على الرسالة الالهية بالباطل فقالوا:

]إن هذا إلا اختلاق[

اي جديدة الحدوث متقطعة الجذور عن التأريخ ، و دعوتهم هذه ضد الدين خطأ من زاويتين:

- 1أنهم اعتمدوا في تقييمهم للرسالة على النظرة الشيئية لا المنطقية ، فمن البديهي أن تكون النتيجة ضلالتهم!

- 2أنهم لم يبحثوا عن شرعية الرسالة و جذورها من خلال نظرة شاملة لتأريخ البشرية ، و لو فعلوا ذلك لم يعتبــروها اختلاقا ، لانها تلتقي مع (124000) دعوة في التاريخ جاء بها الانبياء و المرسلون منذ قبل ، و لكنهم قيموها من واقع جيل واحدفقط.

و جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر عليه السلام في نزول الآية قال:

"أقبل أبو جهل بن هشام و معه قوم من قريش فدخلوا على ابي طالب فقالوا : إن ابن أخيك قد آذانا و آذى آلهتنا فادعه و مره فليكف عن آلهتنا و نكف عن الله ، قال : فبعث ابو طالب الى رسول الله فدعاه فلما دخل النبي لم ير في البيت ولا مشركا ، فقال : السلامعلى من اتبع الهدى ، ثم جلس فخبره أبو طالب بما جاؤوا له فقال : أوهل لهم في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب و يطأون أعناقهم ؟ فقال : أبو جهل : نعم . وما هذه الكلمة ؟ قال : تقولون : لا إله إلا الله.

قال : فوضعوا أصابعهم في آذانهم ، و خرجوا هربا و هم يقولون : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق ، فأنزل الله في قولهم : " ص و القرآن ذي الذكر الى قوله إلا اختلاق " (١)[٨] ثم صرحوا بما

تنطوي عليه نفوسهم تجاه الحق ، و قالوا لو انزلت الرسالة علينا لآمنا بها فنحن اولى بالنبوة منه لان عندنا المال و الرجال والوجاهة ، و نحن اصلح لقيادة المجتمع منه ، و ليس من المعقول أن ينزل الذكر على هذا الفقير اليتيم و الضعيف ، و اننسلم لقيادته ، و غاب عن ذهنهم أن الصفات المطلوبة في الرسول القائد ليست التي يتصورونها انما القيادة لصاحب العلم و التقوى و الاخلاق ثم ان الله هو الذي يعين الرسول لا الناس ولا الوجهاء.

]أءنزل عليه الذكر من بيننا[

و ينسف الله كل اعذارهم للكفر بالحق مبينا الاسباب المركزية الداعية إليه(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٤٢

و هي:

الاول : أنهم لم يستفيدوا من ذكر الله ، سواء الذي يتجلى في كتابه ، أو في تاريخ القرون الماضية ، أو على لسان الآخرين.

]بل هم في شك من ذكرى[

و الذي يشك في الآخرة ينعكس شكه على جزئيات الايمان و كلياته .

الثانـي : عـدم خوفهم من العذاب ، لانهم لم يتذوقوه ، و لم يستفيدوا من تجربة الذين وقعوا فيه قبلهم .

]بل لما يذوقوا عذاب[

و يستفاد من (لما) أن عذابهم مرتقب.

[11 - 10 - 9]و السبب الثالث : غرور المال و القوة اللذان أحاطا بهم ، فصاروا ينظرون الى جميع الأمور من خلالهما ، فاذا بهم لا يرون حاجة للرسالة في أنفسهم . و يحطم ربنا كبرياءهم هذا عن طريق مقارنة ما بحوزتهم بما عند الله من الملك و القوة.

]أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب[

كلا ..و من خزائن الله الرسالة التي ينزلها على من يشاء من عباده المخلصين . ثم أن الذي عندهم مهدد بأن يسلبه الله بعزته ، بل هو هبة من الله لهم و ليس ملكا ذاتيا . ثم لندع مقايسة ما يملكه هؤلاء بما عند الله ، و لننظر ماذا يملكون من ظاهر الحياة الذي هوجزء ضئيل من ملكه تعالى:

]أم لهم ملك السموات و الأرض وما بينهما[

و ربنا يذكر هؤلاء بحقارة ما يملكون و عظمة ما يملكه الله ، لانهم - كما تقدمت الاشارة - يعتمدون على منطق القوة ، فاراد الله أن يوضح لهم بأنه الغالب في قوة المنطق و في منطق القوة أيضا.

إن هذا الانسان الذي يتمالكه الغرور فيتحدى ربه أَضعف ما يكون عن تحمل أدنى تحد فالسلطان المتكبر يقتله الله بجرثوم تعجز أحدث الاجهزة عن اكتشافه ، و قد يسلب منه كل ما يملك بين عشية و ضحاها و مما يذكر في التاريخ أن الناس ثاروا على خلفة من الخلفاء العباسيين ففقأوا عينه ، و جردوه من ملابسه و صادروا كل ما تملكه من اموال المسلمين ، حتى وقف يتسول على باب المسجد من الناس.

و ربنا من فوق عرشه يتحدى المتكبرين ؛ يقول : أجمعوا قواكم المادية و البشرية و العلمية ، و ابحثوا

عن كل سبب من اسباب القدرة ، فان مصيركم لن يكون إلا كمصير الاقوام السابقة ، حيث كذبت الرسل و تحدت الحق فدمرها الله .

]فليرتقوا في الاسباب * جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب]فمهما اعتمدوا على اسباب القوة (العدد و العدة و الخبرة) فان المؤسسات العسكرية تنهار بفعل الارادة الالهية المباشرة أو المتجلية على أيدي المؤمنين . و جند مبتدأ ، و ما أداة للتقليل أراد بها الله تحقير قوتهم ، و هنالك اشارة للمكان البعيد الذي قد يستخدم للتحقير أيضا ، فيكون المعنى كقولنا أن هنالك جندا ما مهزومون من الاحزاب ، و في الروايات كان المقصود في التأويل من الاية هم المشركون في مكة و قد تحزبوا لحرب الاسلام ، فبشر الله نبيه بهزيمتهم و غلبته عليهم.

[12]و من أجل ان يستقيم الرسول في طريق الدعوة للحق ، و يقاوم تحدياتالكافرين ، يذكره بمعاناة الانبياء مع الاقوام السابقة ، و أن هؤلاء سوف يهزمون كما حدث لأولئك.

]كذبت قبلهم[

فتكذيبهم ليس جديدا ، ثم يذكر بمجرد الاشارة ، مجموعة من الاقوام:

]قوم نوح و عاد و فرعون ذو الأوتاد[

و إنما سمي فرعون بذي الاوتاد لانه كان اذا غضب على احد و تد رجليه و يديه و رأسه على الارض أو في خشبتين متقاطعتين على شكل الصليب ، أو في جذوع النخل ، و قيل أن سبب التسمية كثرة جنوده و جيوشه السائرة فكانوا إذا نصبوا الخيام في معسكراتهم ، و اثناء استراحتهم في الطريق صارت كثيرة جدا و هكذا أوتادها . (١)[١٣] كل تلك الاقوام كذبوا رسلهم ، وأيضا:

]و ثمود و قوم لوط و أصحاب لأيكة [

و هم قوم شعيب (ع. (

]أولئك الأحزاب[

فأين ذهب اولئك سوف يذهب هؤلاء أيضا.

[14]فهم أحزاب يختلفون مع بعضهم في طبيعة الحياة ، و المكان و القوة(١) المجمع / ج ٧ / ص ٤٦٨.

و الضعف ولكنهم يجمعهم أمران هما : التكذيب بالحق و الرسل ، و العقاب الالهي الذي لحق بهم بسببه .

]إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب[

و قد تكون هذه الآيات تمثيل للحقيقة التي طرحتها الآية (٣) عن هلاك القرون السابقة.

[15]و الدمار الذي لحق بتلك الاقوام لم يكن أمرا طارئا ، انما ينسجم مع الحق الحاكم في الحياة ، و المتمثل في إرادة الله و السنن التي وضعها في الكون . و الحق هو الحق ، و الحياة هي هي بأساسياتها ، فلن يشذ عن هذه النتيجة كل من يمشي في ركاب المكذبين و خطهم في أي زمان و مكان.

]وما ينظر هؤلاء[

سواء كفار قريش أو طواغيت اليوم الذين يتحكمون في مصائر الشعوب ، و يحاربون الله و الاسلام ما

ينتظر هؤلاء جميعا ؛[إلا صيحة واحدة مالها من فواق[

و ليس بالضرورة أن تكون الصيحة من جبرائيل أو أحد الملائكة الغلاظ عليهم السلام ، بل قد تكون الصيحة رصاصة يطلقها المجاهدون على المستكبرين ، و قد تكون ثورة شعبية جذرية تأكل الأخضر و اليابس من كيانهم.

و فواق بمعنى الرجوع ، و منه فواق الناقة إذا رجع لبنها الى الضرع بين الحلبتين ، و افاقة المريض من المرض إذا رجع الى صحته ، و هؤلاء حينما ينزل بهم العذاب لا تقبل رجعتهم للحق . وهذه الكلمة نجد تفسيرها في قوله تعالى في الآية الثالثة" ولات حين مناص. "

إذن فاعتماد الانسان على قوة المال و الجند و اعتزازه بهما في مقابل الحق أمر خطير يجره الى الهلاك ، بشذوذه عن الحق في الحياة.

يا داود : إنا جعلناك خليفة

هدى من الآيات

إن فتنة القوة في الحياة فتنة كبيرة و خطيرة ، و من تخلص من غرورها فانه يتغلب على سائر الفتن بصورة أسهل ، ذلك أن الانسان يقتحم الصعاب و يركب الاهوال و المخاطر من أجل السلطة ، فاذا تنازل عنها أو بلغها و لم يسخرها إلا في سبيل الخير ، فإنه آنذاك ينتصرعلى أهوائه ، و على الضغوط التي تحيط به.

وفي الوقت الذي حدثتنا هذه السورة عمن صرعتهم هذه الفتنة ، فراحوا يعتزون بقوتهم و يتحدون ربهم و يعتزون بآلهتهم التي تمثل رموز سلطتهم ، و يخالفون ولاية الله باسمها وهم الملأ من الكفار ، يضرب لنا هذا الدرس القرآني مثلا حيا من واقع داود (ع) الذي تجاوز هذه الفتنة . فبالرغم من أنه امتلك القوة الظاهرية في الارض ، كما سخرت له الطيور و الجبال و الحديد ، إلا أنه لم يغتر بقوته بل صار يتقرب إلى الله اللحظة بعد اللحظة من خلال تسبيحه المستمر وآنئذ جعله الله خليفة في الارضتشريعيا و واقعيا.

و نستوحي من اعطاء الله السلطة و ولاية الامر لنبيه داود (ع) بعد استقامته على الحق ، أنه تعالى لا يعطي ولايته الى كل سلطان ، انما للذين يمتلكون ناصية الملك ولا تمتلكهم.

بينات من الآيات

[16]عادة ما يستعجل الكفار عذاب الله ، و يتحدون الانبياء قائلين : إذا كانت دعوتكم صادقة فاسألوا ربكم أن يصب علينا العذاب . و السياق القرآني في هذه السورة يترك الاجابة على تحدي الكافرين ، و يوجهنا الى دراسة التاريخ ، لانه تعالى أجرى الحياة وفق سننحددها و اختارها بعلمه و حكمته ، و لن يغير الله سننه كلما تحداها الجاهلون فهو يدير شؤون الخليقة حسب الحكمة لا حسب ردود الفعل تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا ، بلى قد يغير الله سنة ما في ظروف خاصة لأن ربنا لا يعجزه شيء و أمره فوق السنن و القوانين ، و لكنهمع ذلك يتصرف بعلم و حكمة.

]و قالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب[

و القط الحظ و النصيب فهؤلاء يسألون الله أن يوافيهم بما يستحقون من العذاب لكي يكتشفوا أنهم فعلا على الباطل . و لكن الله لا يستجيب لهذه الدعوة دائما و ذلك لامور.

الاول : أنه عز وجل رحيم بعباده ، فلو قادهم الجهل يوما الى الكفر و التحدي لا يأخذهم بالعذاب ، و ذلك أن الانسان قد يجهل حينا ثم يكتشف خطأه و يعود الى ربه.

الثاني : لان ذلك يخالف حكمة الحياة ، فالله خلقها للامتحان و ذلك يقتضي أن لا يكون العذاب مباشرة بعد الذنب ، و لو فعل الله ذلك لما عصاه أحد ، و لكن الطاعة التي يريدها الله هي التي تكون بدافع المعرفة به ، و الخوف من مستقبل المعصية ، و التطلع الى نتائجالطاعة . يقول تعالى : " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (١) و قال : " ولو يؤاخذ الله

الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة و لكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" (٢) و قال الامام الصادق (ع: (

"لما رأى ابراهيم ملكوت السماوات و الارض ، التفت فرأى رجلا يزني فدعا عليه فمات ، ثم رأى آخر فدعا عليه فمات ، ثم رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا ، فأوحى الله اليه يا إبراهيم إن دعوتك مستجابة فلا تدع على عبادي ، فإني لو شئت لم أخلقهم ، إني خلقت خلقيعلى ثلاثة أصناف ، صنف يعبدني لا يشرك بي شيئا فأثيبه ، و صنف يعبد غيري فليس يفوتني ، و صنف يعبد غيري فأخرج من صلبه من يعبدني " (٣)الثالث : لكي تتم الحجة على الناس ، فهم مع الفرصة التي يمنحها الرب لهم في الدنيا يسألونه الرجعة بعد الموت ليستأنفوا العمل قال الله تعالى : " حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت " (٤)و قال بعض المفسرين : ان معنى قط النصيب و انهم ارادوا نصيبهم من الجنة(١) يونس / ٩٩.

(2)النحل / ٦١.

(3)نور الثقلين / ج ١ / ص ٧٣٢.

(4)المؤمنون / ٩٩ - ١٠٠.

)لا من العذاب) استهزأء و سخرية و انهم كذبوا بذلك بثالث الأصول الدينية) المعاد) بعد أن كذبوا بأولها (التوحيد) عندما قالوا : " اجعل الآلهة إلها واحدا) ، و كذبوا بالثاني (النبوة) عندما قالوا : " أأنزل عليه الذكر من بيننا. "

و سواء هذا أو ذاك ، فان الله لم يستجب لأهوائهم ، بل ضرب مثلا من واقع داود الذي عجل الله له جزاءه في الدنيا) و قطه) دون أن ينقص من أجره في الآخرة شيء.

[17]و هكذا ينبغي للرساليين أن لا يهتموا بكلام من هذا النوع ، و إن كان ذلك صعبا بالذات إذا كان يمس بمقدساتهم ، لهذا يوصي الله نبيه بالصبر.

]اصبر على ما يقولون[

ثم يوجهنا السياق الى مثل من التاريخ ، و بالتحديد من حياة داود (ع) يناقض غرور هؤلاء الكافرين بالسلطة و الذي جرهم لتحدي الله عز وجل.

]و اذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب[

و حين يذكر النبي اخوته السابقين من الانبياء ، يستأنس بهم و بصبرهم في الضراء و السراء ، و بتعاليهم على مؤثرات الحياة الدنيا و حين يذكر النبي لنا صبر الأنبياء و ذكرهم و انهم الأوابون الى الله في كل حال حتى عندما تزدحم على أبوابهم زخارف الدنيا ، فانهيسن أمامنا سنة سالكة ، و طريقا معبدا علينا الاستقامة عليه ، و الصبر على كل أذى فيه.

دعنا إذا نذكر داود ، فهو القوي ذو الأيدي ، و اليد : القوة ، و داود يملك أسباب القوة و عواملها فهو قوي من جهة فعبر عنه القرآن بذي الايدي ، و اليد كناية عن القوةو القدرة ، وهو من جهة أخرى مؤمن وعلامة ايمانه التوبة و من الصعب على البشر أن يجمع بين هاتين الصفتين ، لأن صاحب القوة عادة ما تستهويه زخارف الحياة و يركض وراءها ، حتى ولو خالفت الحق.

و كما يحتاج المؤمن للقوة حتى ينفذ خططه في الحياة و يبلغ أهدافه و تطلعاته ، فانه يحتاج الى الايمان ، و ذلك لكي يعود تائبا الى ربه بدافع الايمان كلما جرته القوة الى ساحل الغرور و المعصية.

[19 - 18]و تحدثنا الآيات عن جانب من القوة التي بلغها داود في حكمه ، فقد أخضع له الحياة بشقيها الجامد و المتحرك ، و هكذا تخضع الحياة الى كل من يتبع الحق ، لانه بالاضافة الى قوة الغيب التي تعينه حينذاك ، يهتدي به الى الاسباب و القوانين التي يمكنهتسخيرها ، فلقد سقطت الحجب بينه و بين حقائق الخليقة ، فاذا بها تستجيب له.

[إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي و الاشراق[

و كل شيء يسبح الله بصورة مستمرة ، و لكن لا نفقه تسبيحه كما يقول تعالى " : تسبح له السماوات السبع و الارض ومن فيهن و إن من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا " (١) و قد جعل الله الجبال تسبح عندما يسبح داود (ع) ولعلنا نستوحي من الآية أنه أعطي الطاقات الموجودة فيها، كالاحجار الكريمة والوقود.

]و الطير محشورة كل له أواب[

يعني مجموعة له يستفيد منها كيفما يشاء . و ربما كان الانسان قديما يستغرب لو سمع بهذه الآيات ، أما وقد تقدمت البشرية في العلم ، فهي تعتمد الآن الجبال في(١) الاسراء / ٤٤

كثير من الشؤون ، كما أن هناك محاولات - نجح الكثير منها - للاستفادة من الطيور في مجالات الحياة المختلفة ، و توجد الآن تجارب جادة للاستعانة بها في الشؤون الطبية و العسكرية ، و من قصة سليمان التي مرت في سورة سبأ يتبين أنه كان (ع (يبعثها للاستكشاف.

[20]و بالاضافة الى هذه القوى المادية والامكانات التي تدخل كعنصر فعال في سيطرة داود و سلطانه ، كان الله يزيده قوة و تمكنا يوما بعد يوم ، و لو كان ظالما لما زاده مرور الأيام إلا ضعفا و وهنا.

] =و شددنا ملكه[

بمختلف أسباب القوة هذامن الناحية المادية . أما من الناحية التشريعية و الادارية فقد أعطي ما يقوي حكمه و سلطانه أيضا. قال تعالى:

]وءاتيناه الحكمة و فصل الخطاب[

و الحكمة تعني أن يحيط الأنسان علما بالخليقة و بنفسه و يعرف : كيف يتصرف فيها تصرفا سليما . أما فصل الخطاب فهو الكلام الذي يفهم الطرف الآخر الحقيقة بما يقطع دابر الشك ، و يزيل حجاب الجهل فداود (ع) إذا يصيب الحق بحكمه و يبينه أفضل البيان بخطابه ، و هذان الأمران من أهم ما يلزم المدير المسؤول سواء في موقع خطير كالولاية ، أو أقل من ذلك كالاسرة و المؤسسة و التنظيم . و النصوص الاسلامية تؤكد على ضرورة اختيار الاسلوب الأنسب كما تؤكد على المحتوى يقول تعالى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة " (١(

(1)النحل / ١٢٥.

قصة الخصمين مع داود (ع: (

[21]و يعود بنا السياق ليضرب لنا مثلا من حياة داود (ع) تتجسد فيه أوبته الى الله عز وجل ، و ذلك في قصة حدثت له . فبينما كان قائما يصلي في محرابه اذ اقتحم الجدار عليه شخصان ، و لم ياتياه من الطريق الطبيعي و هو الباب.

]و هل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب[

و صيغة السؤال هنا تستثير في الانسان حب الاطلاع و تشد مسامعه للسائل حيث يستفهمه عن شيء لا يعرفه لا سيما و المسؤول عنها قصة طريفة هي التسلق على سور المحراب ، بهدف التقاضي عند صاحبه فهل سمعت أعجب نبأ منها ؟

[22]و تتصل فصول القصة ببعضها في اسلوب معجز من التعبير و العرض ، و تسلط الآيات الضوء على النقاط و المواقف الهامة منها ، و التي تنسجم مع اهداف و قوعها في هذا السياق القرآني ، حيث الحديث عن السلطة و عن الملك الأواب.

بالطبع لما دخل هذان الخصمان على داود ، و بهذه الطريقة أخذته الخشية.

]إذ دخلوا على داود ففزع منهم[

لماذا فزع داود مع ان الخوف من الناس ليس مناسبا للأنبياء ؟

ربما أراد ربنا أن يذكر هذه النقطة في مقابل بيانه لسعة ملك داود ليقول للبشر مهما بلغتم من القدرة فأنتم بالتالي بشر و لن تصبحوا آلهة و البشر بطبيعته يخاف ، و يجهل و .. و .. فلماذا يغتر الانسان إذن ، و يعتز بما يملك ؟ فهذا داود الملك المسخر له الطيــور و الجبــال ، و النبي الكريم عند ربه يفزع حين يتسور عليه المحراب رجلان.

إن داود (ع) أوجس خيفة في نفسه و لعله ظهرت على ملامحه علائم الخوف و الوجل.

]قالوا لا تخف[

و عرضوا عليه أمرهم قالوا:

]خصمان بغى بعضنا على بعض[

أي جار و اعتدى.

]فأحكم بيننا[

أرادا منه أن يقضي بينهما ، و لكنهما اشترطا أن يكون حكمه:

]بالحق[

و اضافوا شرطا آخر فقالوا:

]ولا تشطط و اهدنا إلى سواء الصراط[

فليس المهم أن يقضي الحاكم بالحق و حسب ، انما لابد أن يكون وصوله الى الحق بطريق سليم ، كأن يعتمد على الاصول الشرعية لاستنتاج الحكم ، حتى يهدي المتخاصمين للحق اولا ، و ليخرجوا من عنده راضين مقتنعين بالقضاء ثانيا.

[23]و بعد أن اكملوا عرض جملة شروطهم ، بدأ صاحب النعجة الواحدة يعرض الموضوع على داود (ع) انتظارا للحكم و فقها .قال:

]إن هذا أخي له تسع و تسعون نعجة و لي نعجة و احدة]وربما كان يطمع أن يتمها مئة ، أو لانها أنثى

فأراد أن تلد له.

]فقال أكفلنيها[

أضمها الى نعاجي و أتحمل مسؤوليتها ، و استمال قلبي بحديثه الذي اشتمل على المدح و الاطراء.

]و عزني في الخطاب[

أي غلبني بحججه و حيله فقبلت ذلك.

[24]و بعد أن انهى المدعي كلامه بادر داود و أصدر الحكم ضد الطرف الثاني ، من دون الاستماع الى دفاعه و دون ان يطالب بالبينة.

]قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه[

و مضى السياق يستوحي عبرة جانبية للقصة متمثلة في خطر الشراكة بين الأطراف ، و أن الضمان الوحيد لتجنب هذا الخطر هو الإيمان.

]و إن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض[

و يستثني من قاعدة الظلم و الاعتداء التي هي ديدن أكثرية الشركاء:

]إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات و قليل ما هم]و الذي يدفع اولئك للاعتداء هي أهواؤهم و شهواتهم ، المتمثلة في مجموعة من(١) و النعجة هي انثى الضأن و النواعج من النساء البيضاوات ، و قد اوردنا الشطر الثاني من التعريف لاتصاله بتفسير لهذه الآية يتبناه البعض من المفسرين.

الصفات السلبية ، كالحسد و الطمع ، و حب الدنيا . و .. و .. أما المؤمنون فإنهم يتغلبون على كل ذلك بالايمان الذي يحصنهم ، و بالعمل الصالح الذي يثبت الإيمان و يعودهم على فعل الخير . و لكن القليل هم المؤمنون الذين يصرعون شهواتهم.

معنى الفتنة:

و بهذا الاستطراد أنهى داود)ع) القضية لصالح صاحب النعجة الواحدة ، أما بقية الآية فهو اضافة من عند الله عز وجل تتضمن نقدا لتصرفه عليه السلام و بيانا للخطأ الذي بدر منه و أخيرا موقفه من موعظة الله له.

]و ظن داود أنما فتناه[

ماذا كانت فتنة الله لداود التي انتبه اليها و تصورها فورا ، اذ انها جاءت في صورة نزاع بين اثنين كانا في الواقع ملكين اراد الله أن يعلم من خلال قضيتهما طريقة القضاء لداود ؟

في هذه الآية قولان:

الاول : أن الذين تسوروا هم الملائكة و كان الهدف امتحان داود (ع) فهو لم يعرف بأنهم ملائكة ، ثم أنهم لم يريدوا من سؤلاتهم هذه أن يحكم لهم داود في النعاج بالمعنى الظاهر و المتعارف لانهم أساسا لا يملكون نعاجا ، و لم تحدث لهم قضية من هذا النوع ، أنما أرادوا صرفه الى قضية اجتماعية و لكنه لم يتوجه الى مقصدهم في البداية ، ثم أدرك ذلك فتاب الى ربه توبة نصوحا.

و القضية الإجتماعية هي أنه كانت لديه (٩٩) إمرأة بين حرة و أمة ، فعشقزوجة جميلة لرجل من بني اسرائيل يقال له (أوريا) فأراد أن يتزوجها لتتم له مائة زوجة ، فقدمه في أحد الحروب ليقتل و يتم له الأمر فقتل ، و تزوجها داود . فأرادت الملائكة أن تبين له خطأه هذا . في الرواية : " فكتب داود عليه السلام الى صاحبه الذي بعثه أن ضع التابوت بينك و بين عدوك ، و قدم أوريا بن حيان بين يدي التابوت فقدمه و قتل ، فلما قتل اوريا دخل عليه الملكان و قعدا و لم يكن تزوج أمرأة اوريا و كانت في عدتها ، و داود في محرابه يوم عبادته ، فدخل الملكان من سقف البيت و قعدا بين يديه ، ففزع داود منهما فقالا : " لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط " ولداود حينئذ تسعة و تسعون أمراة ما بين مهيرة الى جارية ، فقال أحدهما لداود : " ان هذا أخي له تسع و تسعون نعجة و لي نعجة واحدة فقال اكفلنيهاوعزني في الخطاب " أي ظلمني و قهرني فقال داود كما حكى الله عز وجل : " لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه " الى قوله : " و خر راكعا و أناب " قال : فضحك المستعدى عليه من الملائكة و قال :حكم الرجل على نفسه ؛ فقال داود : أتضحك و قد عصيت ؟ لقد هممت أن أهشم فاك قال : فعرجا و قال الملك المستعدى عليه : لو علم داود انه أحق أن يهشم فاه منى ؛ ففهم داود الامر و ذكر الخطيئة فبقى أربعين يوما ساجدا يبكي ليله و نهاره ولا يقوم إلا وقت الصلاة حتى انخرق جبينه و سال الدم من عينيه " (١(

و هكذا نجد الملوك يفتشون عن هذه الثقافة عند ادعياء الدين لينشروها ، و يبراوا أنفسهم من الظلامات التي يرتكبونها .

و قد نقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير انه حضر في بعض المجالس ، و حضر فيه بعض أكابر الملوك ، و كان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد و القصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك ، و يمضي الفخر الرازي في بيان فساد هذا الرأي و اسكات(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٤٩.

ذلك الملك.

و هذا القول مردود عليه في اكثر الروايات نظرا لمتنه الذي يمس بكرامة الانبياء و تقواهم فعن الشيخ الصدوق رحمه الله ، باسناده الى أبي عبد الله)ع) ، أنه قال لعلقمة:

"إن رضا الناس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوا داود (ع) الى أنه تبع الطير حتى نظر الى امرأة (أوريا (فهواها ، و أنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها " (١)و قال الامام أمير المؤمنين (ع: (

"لا أؤتى برجل يزعم أن داود تزوج إمرأة أوريا إلا جلدته حدين ، حدا للنبوة و حدا للاسلام " (٢)و نجد هذا الرأي مكتوبا في التوراة الموجودة في ايدي الناس ، و هذا دليل على أنها محرفة ، وإلا كيف تنسب الى حاكم بل نبي من أنبياء الله هذه التهمة الرخيصة ، و هو يؤتمن على رسالة الله و عباده ؟

و الأشكل في الأمر أن هذا الرأي تسرب الى كثير من تفاسيرنا ، و حينما نقتبس افكارنا في تفسير القرآن من التوراة المحرفة ، و ننسب للانبياء هذا الظلم و الانحراف ، بل هذا الشذوذ ، عندها لا نرى ضيرا إذا حكمنا رجل كالمتوكل العباسي ، أو معاوية ابن أبي سفيانو ولده يزيد ، لأنه إذا كانت ثقافتنا مشوبة بهذه الافكار الباطلة ، فانها سوف تدعونا لإتباع السلاطين و الملوك الظلمة على أنهم خلفاء لله(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٤٦.

(2)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٤٦ نقلا عن المجمع.

و أمناء على الرسالة.

الثاني :الفتنة التي تعرض لها داود ، هو مبادرته لاصدار الحكم من دون سؤال صاحب النعجة الواحدة عن البينة ، ولا الاستماع الى رأي المدعي عليه ، إذ لا يجوز للقاضي - من الناحية الشرعية و المنطقية - أن يصدر حكما في قضية ما قبل التحقيق فيها ، و النظر في سائر الحيثيات التي تتصل بها.

يقــول الامام الرضا (ع) بعد أن ضرب يده على جبهته ، وهو يرد على الرأي الأول و يبين الرأي الثاني : " إنا لله و إنا اليه راجعون لقد نسبتم نبيا من أنبياء الله عليهم السلام الى التهاون بصلاته ، حتى خرج في أثر الطير ، ثم بالفاحشة ثم بالقتل ؟ فقال:
يا ابن رسول الله فما كانت خطيئته ؟ فقال :و يحك ان داود عليه السلام انما ظن انه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه ، فبعث الله عز وجل اليه الملكين فسورا المحراب فقال : " خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط و اهدنا الى سواء الصراط ان هذاأخي له تسع و تسعون نعجة ولي نعجة و احدة فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب " فعجل داود عليه السلام على المدعي عليه ، فقال : " لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه " ولم يسئل المدعي البينة على ذلك و لم يقبل على المدعي عليه ، فيقول له : ما تقول ؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ماذهبتم اليه الا تسمع الله عز وجل يقول : " يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق الى آخر الآية " فقال (أي الراوي) : يابن رسول الله فما قصته مع أوريا ؟ قال الرضا (ع) : إن المرأة في أيام داود (ع)كانت اذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبدا ، فأول من أباح الله عز وجل له أن يتزوج بأمرأة قتل بعلها داود (ع) ، فتزوج بأمرأة أوريا لما قتل و انقضت عدتها فذلك الذي شق على الناس من قبل أوريا " (١)(١) المصدر / ص ٤٤٦.

]فاستغفر ربه و خر راكعا و أناب[

إنه لم يترك فرصة لوساوس الشيطان و تسويفاته ، إنما بادر مباشرة ، إلى الإستغفار و التوبة ، و أي باب للتوبة أوسع من الصلاة و الدعاء . ألم يقل الله تبارك و تعالى : " قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم " (١) و قال في الصلاة : " و استعينوا بالصبر و الصلاة و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين [25](2) " و حينما و فر (ع) شروط التوبة في نفسه ، من صدق الندم ، و إصلاح ما فسد ، و الضراعة إلى الرب بقلب منكسر ، استجاب الله له.

]فغفرنا له ذلك[

التوبة تزيل خطأ الإنسان ، و تمحو آثاره الرجعية ، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع ، بل و تقدمه خطوات إلى التوبة تزيد الإنسان حصانة ، و تقيه خطر الهلاك بالذنوب و الأخطاء . و ليس أضر على الإنسان من ذنب يعتز به ، و خطأ يصر عليه مستكبرا.

و أهم معطيات التوبة أنها ترفع الإنسان درجات عند ربه ، و تورثه المنازل الرفيعة في الجنة.

]و إن له عندنا لزلفى و حسن مآب[

و هذا خلاف لتصورات الانسان السلبية من أن التوبة تسبب له الذلة ، و أن العزة بالاثم هي الافضل ، لانها في نظره السبيل للرفعة.

(1)الفرقان / ٧٧.

(2)البقرة / ٤٥.

و القرآن انما يضرب لنا مثال الاعتراف بالخطأ و التوبة منه ، من واقع النبي داود العالم الذي بلغ و ولده سليمان ذروة السلطة ، لان التوبة تصعب على الانسان حينما يكون في موقع متقدم من المجتمع ، كما لو كان والدا بالنسبة لاسرته أو كان عالما أمام تابعيه ، وتصل الصعوبة ذروتها إذا كان حاكما و عالما في مستوى داود و لعل هذا من حكم تعرض الأنبياء للفتنة . و ان الله يكلهم الى أنفسهم ، و يرفع عنهم عصمته لحظات معدودة فيرتكبون الهفوات ، ثم يتوبون الى الله ليكونوا قدوات صالحة للبشرية في حقل التوبة - و هو أعظم حقل- كما هم قدوات في سائر الحقول . ولابد لنا و نحن نخوض الصراع أن نتذكر هؤلاء العظماء كما أمرنا الله حتى لا يتكبر أحدنا على النقد و الاستماع الى آراء الناس في تصرفاته و بالتالي لكي لا يتعالى أحدنا على المجتمع باسم انه يمثل طليعته المتقدمة.

[26]أهم شروط الحاكم الذي يتصرف في دماء الناس و أموالهم ، تمحوره حول الحق ، و لكن كيف يعرف صدق الحاكم الذي يدعي انه يحكم بالحق ؟ إنما عندما يخالف هواءه و يتراجع عن قرار اتخذه اذا عرف انه كان خاطئا ، و يعترف أمام الناس بذلك و يتوب إلى الله ، و يصلحمنهجه.

من هنا نجد السياق القرآني يذكرنا بان الرب استخلف عبده داود في الأرض بعد أن ابتلاه و عرف انه يخالف هواه و يتراجع عن الخطأ اذا عرفه.

]يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض[

ان الأرض و ما فيها من بشر و احياء و تراب أمانة الله في عنقك ، و عنق كل حاكم ولا تصان هذه الامانة إلا بتحكيم الحق ، أما لو تحكم الباطل فسوف تفسد الأرض و من عليها من الأحياء و الناس قال تعالى يصف الذي يتبع الباطل في حكمه : " و إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها و يهلك الحرث و النسل و الله لا

يحب الفساد " (١) . و لهذا عقب القرآن مبينا أهم و ظائف الحاكم و ما يتصل به من مؤسسات تشريعية و قضائية و تنفيذية قائلا:

]فاحكم بين الناس بالحق[

و لكي يلتزم الحاكم بالحق يجب أن يتجاوز أهواءه و شهواته ، حتى لا تنعكس علاقاته الاجتماعية ، و لا ضغوط الناس و اغراءاتهم على آرائه في الحكم.

]ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[

ومن أجل أن نعرف معنى من معاني هذه الآية الكريمة تكفينا نظرة واحدة لواقع المسلمين ، الذين صاروا ضحية لأهواء الحاكمين في الأمة ، أو ليس أبعدوا الاسلام عن الحكم لانه يتناقض مع أهوائهم ، و لانهم لا يجدون فيه مبررا لنزواتهم و تصرفاتهم المنحرفة ؟؟ و هذاهو الضلال.

و من هذه الآية الكريمة استوحى الحديث الشريف ولاية الفقيه فقال الامام الصادق (ع: (

"فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه ، حافظا لدينه ، مخالفا على هواه مطيعا لأمر مولاه فعلى العوام أن يقلدوه "و يضيف الامام (ع: (

"فأما من ركب من القبائح و الفواحش مراكب فسقة فقهاء العامة فلا تقبلوا منهم عنا شيئا ولا كرامة " الى أن يقول : " و هم أضر على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد عليه اللعنة على الحسين بن علي (ع) و أصحابه ، فأنهم يسلبونهم(١ (البقرة / ٢٠٥.

الارواح و الاموال(1) "

ثم يهدد ربنا اولئك الذين يبتعدون عن الحق و السبيل المستقيم بسبب أهوائهم فيقول:

]إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب]و قال يوم الحساب و لم يقل القيامة ، لان الذي ينسى أنه محاسب أمام الله على كل حركاته و سكناته ، و على أهوائه بالخصوص ، يفقد اتزانه و ضوابطه في الحياة فيخالف الحق و يتبع الهوى من دون حساب.

أخطاء الأنبياء:

و كلمة أخيرة : لماذا نجد في القرآن تشهيرا بالأنبياء و أخطائهم كقوله تعالى عن آدم (ع) " و عصى آدم فغوى " (٢) أو عن النبي يونس (ع) : " سبحانك إني كنت من الظالمين " (٣) و عن داود " " فاستغفر ربه و خر راكعا و اناب) "
(4و عن النبي الأكرم (ص) : " ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر(5) " الجواب : هناك حكم كثيرة ، من أبرزها معرفة الناس أن الانبياء ليسوا بآلهة فلا يرفعونهم الى مقام الرب . هكذا جاء في كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله في(١) بح / ج ٢ / ص ٨٨.

(2)طه / ١٢١.

(3)الانبياء / ٨٧.

(4)ص / ٣٤.

(5)الفتح / ٢.

حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه:

"و أما هفوات الانبياء عليهم السلام و ما بينه الله في كتابه ، فان ذلك من أدل الدلائل على حكمة الله عز وجل الباهرة و قدرته القاهرة و عزته الظاهرة ، لانه علم ان براهين الانبياء عليهم السلام تكبر في صدور أممهم و أن بعضهم من يتخذ بعضهم الها كالذيكان من النصارى في ابن مريم ، فذكرها دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي انفرد به عز وجل ، ألم تسمع الى قوله في صفة عيسى حيث قال فيه و في أمه : " كانا يأكلان الطعام " يعني أن من أكل الطعام كان له ثقل ، و كل من كان له ثقل فهو بعيد مما ادعته النصارى لابن مريم. "

أم نجعل المتقين كالفجار

هدى من الآيات

عندما طالب الكفار بتعجيل حسابهم و الأسراع في إعطائهم نصيبهم (من الثواب أو العقاب) قال ربنا لرسوله الكريم : " اصبر على ما يقولون و اذكر عبدنا داود " و من خلال قصة داود (ع) ذكرنا كيف عجل الله له الجزاء في الدنيا متمثلا في الملك و الذكر الحسن ، مما هدانا به الى ان العمل الصالح جزاءه الأوفى (في الدنيا أو العقبى) و ها هو السياق يبلغ بنا الى الجواب الفصل لسؤال اولئك الذين انكروا النشور ويقول : ان قصة داود تدل على ان الحق هو محور الخليقة ، فداود بلغ ما بلغ لأن الله يحكم بالحق (و من الحقجزاء المحسن بالحسن) و ليس هذا سوى مثل لكل تقديرات الرب ، و منهج تدبيره للخليقة (حيث انها قائمة جميعا على قاعدة الحق) و هذا بالتالي يهدينا الى ان المتقين ليسوا كالفجار لأن تساويهما يتنافى و الحق الذي قامت به السموات والأرض . و هكذا لابد من الجزاءالأوفى في الآخرة.

هذا من جانب و من جانب آخر يتنافى مبدأ الحق و خلافة الفجار في الأرض .

لان هكذا خلافة لا تبلغ اهم اهداف الحياة وهو تطبيق الحق ، و بهذه الآيات ينفي ربنا نفيا قاطعا كل الاكاذيب و الأفكار الباطلة التي حاول محرفوا التوراة أو من اقتبس منهم الصاقها في نبيه داود (ع) حين اتهموه في تقواه و نزاهته .ثم يدعونا الله للتدبر في القرآن مما نجد مثيلا لهذا الامر في سورة المائدة في موضوع الخلافة ، لاننا حينما نعرض تصوراتنا و افكارنا على كتاب الله ، فسوف تتبين لنا ان خلافة الضالمين لا تنسجم و مجمل بصائره و هداه.

ثم يحدثنا القرآن عن جانب من حياة سليمان بن داود عليهما السلام ، و الذي تجاوز هو الآخر فتنة السلطة ، فلم تخرجه زينتها من خط الطاعة و الانابة ، بل كان يزداد خضوعا لربه تعالى ، لانه يعتبر كل شيء نعمة الهية تستوجب الشكر . و بذلك ضرب مثلا للسلطان الصالحكما فعل والده من قبل.

بينات من الآيات

[27]في الآيات السابقة بين ربنا صفات الخليفة الذي يجعله في الأرض (حيث ذكرتنا الآيات بعشرين صفة حسنة في خليفة داود) و من أبرزها حكمه بين الناس بالحق.

]و ما خلقنا السماء و الارض وما بينهما باطلا[

كيف يتخذ الباطل الرب الذي لا يجعل خليفة في الأرض الا الصالحين و الذين يمتحنهم اشد الامتحان حتى يحكموا بالحق.

ان آيات الحكمة البالغة تتجلى في أصغر شيء خلقه الله ، في النحلة و النملة ، في الشعر و الوبر ، في الخلية الواحدة ، في الذرة الواحدة ، في البروتون و الالكترون . فكيف لا تتجلى الحكمة في مجمل خلق السماوات و الأرض ؟! ام كيف يخلقهما اللهباطلا بلا حكمة بلا هدف بلا تقدير ؟! سبحان الله و تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

]ذلك ظن الذين كفروا[

لانهم قيموا الحياة بافكار الكفر المسبقة لم يهتدوا الى الحق . و مع ذلك لم يصلوا في نفيه الى حد قطعي (العلم) لانهم أينما نظروا وإلى أي شيء منها وجدوا فيه آثار القدرة و الحكمة.

]فويل للذين كفروا من النار[

لأن الله خلق السماوات و الارض بالحق ، فانه لن يدع الكفار سدى بل لابد ان يجازيهم باعمالهم التي تجاوزت كل حد معقول في مخالفة الحق بل لهم الويل و الثبور.

[28]و تبيانا لهذه الحقيقة يهدينا الرب الى ان سنة الحق القائمة في كل شيء مخلوق تأبى تساوي المتقين الذين يتجنبون العذاب ، و أسبابه و عوامله . و الفجار الذين لا يبالون اي واد يقتحمون ، و اي ضلالة يتيهون فيها ، و اي جريمة يرتكبونها.

]أم نجعل الذين ءامنوا و عملوا الصالحات[

و بذلك كسبوا الحسنات.

]كالمفسدين في الارض[

و يبدو ان تخصيص المفسدين بالذكر ينسجم و قصة داود (ع) المتمثلة في شروط خليفة الله في الأرض.

و ان الخليفة الشرعي ليس كل من ملك الامور بالقوة ، انما الذي يملكها بالحق.

و لهذا لابد من التفريق بين حاكم و حاكم ، خلافا لما ذكره البعض من أن الحاكم الشرعي هو الذي حكم بالسيف ، سواء كان مصلحا أم مفسدا ، و الواقع انهم أرادوا تبرير مواقفهم من بعض أحداث التأريخ و رجاله ، فهم يؤمنون بأن عليا (ع) و معاوية سواء بينما يرفض ذلك منطق القرآن.

هل الامام علي (ع) الذي يطوي نهاره صائما و ليله قائما عابدا ، و يتقاسم قوته مع الفقراء ، بل و يؤثرهم على نفسه و عياله (مسكينا و يتيما و أسيرا) و يعدل في الرعية يستوي هو و الذي يغتصب حقوق الآخرين ، و يسفك دماء الناس ، و يتلاعب بمقدرات الأمة ؟! كلا..

إن السلطة سلاح ذو حين ، فهي إذا تسلمها المؤمنون تصبح و سيلة للاصلاح و الاعمار ، أما لو كان العكس فانها ، تمسي معولا يهدم المنجزات و يحطم الطاقات . و ربنا في هذه الآية لم يقابل " الذين آمنوا " بجماعة معينة " كالفجار " مثلا ، انماقابلهم بالمفسدين في الارض ، ليبين لنا بأن كل سلطة غير

سلطة المؤمنين هي مفسدة في الارض.

]أم نجعل المتقين كالفجار[

إن ذلك لا يصح ولا يكون ما دام الحق هو أساس الحياة و مقياسها . الا أن تتبدل هذه المعادلة ، و هذا ليس الآ في ظن الكافرين.

[29]و الحق يتجلى في السماء و الأرض و ما بينهما . و آيات القرآن هي التجلي الآخر للحق ، و من تدبر في القرآن وجد انه الكتاب الناطق بما يجد في آيات الخليقة ، فاذا ادى قلبا واعيا و تبصر انه كتاب انزله خالق السماء و الأرض ، لأنه ليس سوى صورة صافية للخليقة.

]كتاب أنزلناه إليك مبارك[

و حدد الله لهذا الكتاب غايات سامية فقال:

] - 1ليدبروا ءاياته[

فالقرآن انزل لكي يعطي للانسان المؤمن البصيرة و الرؤية السليمة في الحياة . و هذا لا يمكن بالمطالعة السطحية ، بل لابد من تفكر عميق في الآيات.

- 2و الهدف الآخر بعد ادراك البصيرة أن تنعكس على حياة الانسان فيتذكر بها و يصحح من خلالها في التفكير ، و في العمل منهجه.

]و ليتذكر أولوا الألباب[

لان العاقل هو الذي يعرف قيمة القرآن ، و أهميته ، و هو الذي يتعرف على بصائره .ولاشك أن الذي يحكم عقله في الحياة هو الذي يستفيد من القرآن ، أما الآخر الذي تحكمه شهواته فلن يتذكر به أبدا.

و نتسائل : ما هي صلة هذه الآية بالسياق ؟ و نجيب اولا : بأن إستنباط منهج الخلافة الاسلامية من القرآن صعب مستصعب لا يحتمله الا من امتحن الله قلبه بالايمان ، و عرف انه لا يمكن ان يعترف بالقرآن بسلطة تجانب قيمة الحق ، و منهج التوحيد . أوليست السلطة السياسية تجسد قيم المجتمع . فكيف تستطيع سلطة فاسدة تطبيق قيم القرآن الاصلاحية ؟!

و هكذا أشار السياق الى ضرورة التدبر و التذكر لتبصر هذه الحقيقة التي تتراكم عليها حجب الشهوات و الضغوط.

ثانيا :بأن منهج القرآن في توعية الانسان باليوم الآخر منهج فريد ، ولا يبلغ فهمه غير الذين يتدبرون في آيات الكتاب و يتذكرون بها.

[30]و ينقلنا السياق الى قصة سليمان (ع) بعد ان استوحى عبر قصة داود (ع) و تلتقي القصتان في أنهما مثل لتجاوز الانسان فتنة السلطة و القوة.

]و وهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب[

فميزة سليمان و عظمته الحقيقية ليست في انتمائه الى رجل عظيم كداود (ع) ولا في سلطانه انما في عبوديته لله سبحانه . ولو لم يكن من أهل الايمان لما امتدحه في كتابه . فبه استطاع أن يتجاوز اكبر فتن الحياة ، و هي فتنة السلطة فقد ملك (ع) ما لم يملكه أحد من الناس و لن يملكه من بعده ، و لكنه لم يغتر بزينة الدنيا ، انما تجاوزها و توجه لله ، يتعبد و يضع نفسه في موقع المذنب ثم يتوب وهو

المعصوم من الذنوب و انما يعظم ربه عز وجل . و كيف يتكبر هؤلاء على ربهم وهم يعلمون بأن ما عندهم من فضله ، و أن طريق الاستزادة هو المزيد من التذلل له و التضرع اليه ؟!

[31]و تجسيدا لأوية سليمان وتعبده لله ، يعرض لنا القرآن صورة من حياته (ع. (

]إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد[

و هي الخيول المروضة من أجودها ، و كانت يستعرضها سليمان كلما أراد الجهاد.

[32]و في ذات يوم استعرضها و ربما لكثرتها بقي معها طويلا حتى غابت الشمس)أو كادت) وفاتته فضيلة صلاة العصر ، ولم يكن حينها وهو يعد العدةللجهاد مشغولا بأمر من أمور الدنيا ، و مع ذلك استغفر ربه و عده تقصيرا يستوجب التوبة.

]فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب [و كونه سلطانا لم يمنعه من الاعتراف بالخطأ ، و لو كان بمقدار ترك الاولى بسبب عمل خير آخر يحبه الله.

فالمعنى شغلني الجهاد عن الصلاة ، و الاثنان واجبان ، الا أن الصلاة أفضل ، و هل يجاهد المؤمنون إلا لاقامتها ؟

[33]و لما توجه سليمان (ع) الى فوات الوقت ، استراح عن الجهاد فقضى صلاته ، ثم عاد ثانية ، فقال :

]ردوها علي[

يعني جياد الخيل ، لكي يستمر في تفقد الجيش.

]فطفق مسحا بالسوق والأعناق[

و كان المسح على اعناق الخيل و سيقانها عند أهل الخبرة طريقا لمعرفة الجيد منها ، و كان سليمان (ع) بعد إجراء هذه يقسمها على أفراد جيشه مما يدل على اهتمامه به.

قال ابن عباس سألت عليا (ع) عن هذه الآية ، فقال : ما بلغك فيها يا بن عباس ؟ قلت : سمعت كعبا يقول : اشتغل سليمان بعرض الافراس حتى فاتتهالصلاة ، فقال ردوها علي يعني الافراس و كانت أربعة عشر فأمر بضرب سوقها و اعناقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه اربع عشر يوما ، لانه ظلم الخيل بقتلها . فقال علي (ع: (

"كذب كعب لكن اشتغل سليمان بعرض الافراس ذات يوم لانه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب (الى ان قال) و إن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم لانهم معصومون مطهرون " (١)[٣٤] ثم أن القرآن يحدثنا عن الفتنة التي تعرض لها سليمان عليه السلام . فقد تمنى على الله ان يكون له ولد يرثه كما ورث داود (ع (لكن الله لم يستجب له إنما اسقط على كرسيه جسدا ميتا اجهضته امرأته.

]و لقد فتنا سليمان و ألقينا على كرسيه جسدا[

كناية عن الابن الميت ، و كان يتمنى أن يجلس على كرسيه ولد يحكم بعده ، فتأثر بعض الشيء لذلك ، و لكنه فكر في نفسه و رجع الى ربه.

]ثم أناب[

[35]و قد اعتبر موقفه هذا - وهو النبي - زللا ، وأن هذه فتنة عليه أن يتجاوزها بالدعاء و الاستعانة بالله ، لانه علم أن عدم تحقيق الله لامنياته يدل على أن ذلك ليس من المصلحة أبدا.

]قال رب اغفر لي[

أن تمنيت عليك مالا يتفق مع حكمتك لان علمي قاصر عن ادراك ذلك ثم(١) المجمع / ج ٧ / ٨ / ص ٤٧٥.

طلب من الله شيئا آخر غير من خلاله أمنيته ، قال:

]و هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب]و في هذه الآية الكريمة تتبين آداب الدعاء عند الانبياء عليهم السلام.

ففي البداية يجب أن يعرف العبد بأن ما سيطلبه من الله ليس حقا له على الله استوجبه بعمله أوعبادته ، انما هو هبة يعطيها له الرب من عنده تفضلا إن شاء أو يمنعها ، و بالاضافة الى تناسب هذا الادب و مقام الربوبية ، فإنه يعطي المؤمن مناعة ضد ردود الفعل المحتملة لو لم يستجب له.

ثم أن الطلب يجب ان يكون عظيما و كبيرا ، و ينبغي للانسان ان يطلب من ربه وهو القادر العزيز الكريم مطالب جسيمة ، فيخرج من نظرته البشرية المحدودة التي تفرض عليه آمالا محدودة ، و يدعوالله انطلاقا من معرفته بصفاته و اسمائه الحسنى . فهذا سليمان (ع) يدعو الله أن يهبه ملكا عظيما لا ينبغي لاحد من بعده.

و يستوحى من السياق ان سليمان (ع) طلب من الله بديلا عن الأولاد الذين حرم منهم ، بان يختصه برحمة الهية خاصة لتمضي الاجيال تذكره ، به أو ليس الانسان يستمر بعقبه و بما اختص به . فسأل الله من الملك ما لم يعط أحدا ولا ينبغي لأحد ، و فعلا خصه الله بتسخيرالجن و الريح و الطير له ، كما تقرر الآيات التالية ، و بالأسم الأعظم حسبما نقرأ في آيات أخرى (1)و لكن ليس الملك لذات الملك و للذة الحياة الدنيا ، انما أراد من خلال الملك و السلطان أن يقيم حكومة الله في الارض ، ليقضي على واقع الشرك السياسي(١) نجد تأييدا لهذه الفكرة في الحديث رقم ٥٦ من تفسير نور الثقلين /ج ٤ / ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

و الاجتماعي و غيرهما ، و ينصر المؤمنين و يهدي المستضعفين الى الحق ، و أي طموح اعظم من هذا الطموح ؟!

إن سليمان كان يعرف انه نبي و يسير على الحق ، لهذا سأل الله الملك و القوة لتحقيق اهداف رسالته . و من يطلع على حياته يجدها جهادا من أجل اعلاء كلمة الله ، و لعل الاشارة الى الجياد في هذه السورة المباركة تهدينا الى هذه الحقيقة . و في سورة النمل حيث انتهت القصة باسلام بلقيس و قومها صورة من حياته المليئة بالجهاد.

الثالث من آداب الدعاء أن ينتهي بالثناء و الحمد لله و ذلك بذكر اسمائه الحسنى و في مقدمها اسم " الوهاب " الذي ذكره اكثر الانبياء في دعواتهم ، قال تعالى : " و لله الاسماء الحسنى فادعوه بها و ذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوايعملون " (١(

[36]و قد استجاب الله لدعوة نبيه ، بتمييز ملكه بما لا يتكرر مستقبلا.

]فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب[

فهي تجري كيفما يريد ، و أينما يريد.

وجاء في تفسير علي بن ابراهيم حديث ماثور عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال:

"خرج سليمان بن داود من بيت المقدس و معه ثلاثمائة الف كرسي عن يمينه عليها الانس ، و ثلاثمائة الف كرسي عن يساره عليها الجن ، و أمر الطير فأظلتهم ، (1)الاعراف / ١٨٠.

و امر الريح فحملتهم حتى ورد ايوان كسرى في المدائن ، ثم رجع فبات باصطخر ، فاضطجع ثم غدا فانتهى الى مدينة بركاوان ، ثم أمر الرياح فحملتهم حتى كادت اقدامهم يصيبها الماء ، و سليمان على عمود منها ، فقال بعضهم لبعض : هل رأيتم ملكا قط اعظم من هذا او سمعتم به؟ فقالوا : ما رأينا ولا سمعنا بمثله ، فناداهم ملك من السماء ثواب تسبيحة واحدة في الله اعظم مما رأيتم " (١)[٣٧] والى جانب الريح أخضعت له الشياطين و كانت مهمتهم البناء والاعمار و كانوا يستخرجون المعادن من البحار.

]و الشياطين كل بناء و غواص[

و ليس بالضرورة أن يكون المقصود من الغوص المعنى المتعارف فقط ، و هو النزول الى قعر البحر للصيد و استخراج الطاقات الكامنة فيه ، بل تنسحب الكلمة كما كلمة البناء على المعنى المتقدم أيضا.

[38]و كان سليمان يوزع المهام على الشياطين ، فيعملون كيفما يريد ، و من يتمرد فانه يجازى بالسجن.

]و ءاخرين مقرنين في الأصفاد[

و يبدو من الآية أن الشياطين كانوا يصفدون جماعات جماعات فيقرن بعضهم بعضا ، و يحتمل أنهم كانوا يعتقلون كل فرد مع قرنائه في المعصية و المخالفة . المهم أن سليمان بهذه السيطرة و الهيمنة على الجن نسف الأفكار الجاهلية حول ألوهيتها.

(1)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٥٩.

[39]و في نهاية الدرس يشير ربنا الى ملك سليمان فيقول:

]هذا عطاؤنا[

و يفوضه فيه بتصرف كيفما بدا له.

]فامنن أو أمسك بغير حساب[

أي اعط للناس مما تملك أو امنعهم ، ولا أحد يحاسبك و هذا اعلى مراتب التفويض.

[40]و يختتم الدرس بحقيقة هامة ، هي أن أهم مما يملكه الانسان في الدنيا ، قربه من الله و ثوابه عنده.

]و إن له عندنا لزلفى و حسن مئاب [

و كلمة أخيرة:

من أبعاد رسالة القرآن الكريم تصحيح رؤى البشر تجاه الرسل و رسالاتهم ، ذلك أن الشيطان يثير الوساوس في مصدر الأصلاح ، و ينبوع الفضائل (الرسل و رسالاتهم) فاذا به يلصق التهم بالأنبياء لأسقاط شخصياتهم في اعين الناس ، و يحرف قيم الدين و قد يجعلها بتأويلها سببا للضلالة.

و الله سبحانه يبعث بين الحين و الآخر رسالة و رسولا لتجديد ما درس من معالم دينه الحق لكي لا تزول فرصة الهداية للناس.

و هكذا حرفت اهواء بني اسرائيل التوراة و الأنجيل ، و أولت النصوص حول القيم ، و لفقت التهم حول الانبياء عليهم السلام . و انزل الله كتابه المجيد تبيانالكل شيء و تنزيها لمقام الرسل عليهم السلام . و هكذا نجد في القرآن بيانا لقصص الانبياء - خصوصا تلك التي نقلت على غير وجهها - ثم تفسيرا حسنا لموارد الغموض من حياتهم عليهم السلام.

و مما يؤسف له : ان طائفة من المفسرين راحوا ينقلون الأحاديث الأسرائيلية و يخوضون في اعراض الانبياء خوضا و بالتالي ينقضون ما عقده القرآن ، و يخالفون ما أراده ، و يسيرون تماما بعكس اتجاهه . بينما كان ينبغي أن يلتزموا بادب القرآن في الحديث عن الرسل ، الذي يتجلى في سورة الصافات و ص باحلى صورها.

إني مسني الشيطان بنصب و عذاب

هدى من الآيات

في مواضع أخرى من القرآن تعرضت الآيات لقصة أيوب (ع) بمناسبة الحديث عن الصبر ،)الجانب المعروف من حياته (ع)) ، حتى لقد شاع المثل " صبر أيوب " ، أما في هذه السورة فان القصة تأتي في سياق الحديث عن العلاقة السليمة بالسلطة و الثروة و العافية، هذه النعم التي ينبغي أن لا تستعبد البشر ، فلا يستبد به الغرور اذا رزق منها شيئا ، ولا يقتله اليأس اذا زويت عنه.

و ما تلتقي فيه قصة سليمان و أيوب عليهما السلام ، أنهما يهديانا الى تجسيد للنفس الربانية التي لا تبطر بالنعمة و الملك كنفس سليمان ، و لا تيأس إذا فقدت متع الدنيا كنفس أيوب عليهما السلام . و بالرغم من ان هذين المثلين من حياة شخصيتين الا أنهما - في الواقع - شخصية واحدة ، حيث المؤمن هو الذي يتعالى على زينة الدنيا متطلعا الى رضوان ربه ، فيشكر حينما يظفر بها ، و يصبر حينما تفوته.

لقد كان أيوب ذا مال و أهل كثير و سمعة طيبة بين الناس ، و هو يسخر كل ذلك من أجل عمل الصالحات ، فاذا به يفقد ماله و أهله ، و يصاب في جسده بمرض استقذره الناس بسببه ، و أبعدوه عن قريتهم خوفا من العدوى ، فتركه كل من حوله ، و لم تبق معه الا زوجته الوفيةرحمة بنت يوسف بن يعقوب عليهم السلام ، و التي ضربت مثلا في الصبر مع زوجها و الوفاء له ، إذ كانت تعمل في البيوت و تخدم الناس لتأتي له بالطعام و الشراب.

الا أنه عليه السلام بقي صابرا شاكرا لله على النعمة ، و ما زاده الأبتلاء الا صبرا ، و رجاء للفضل في الدنيا و الآخرة .و هكذا يكون المتقون كما و صفهم سيدهم علي (ع) فقال:

"نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء " (١)و لعل السبب في ثبات شخصية المتقين و استقامتها أنهم يستمدون مقوماتها من الرسالة الالهية الثابتة لا من الظروف و العوامل المادية المتغيرة .

أما زوجة أيوب)ع) الوفية - و التي لم تكن بعصمة الانبياء مع مكانتها و إيمانها = فقد جاء لها ابليس متمثلا في هيئة البشر ، و قال لها إنني طبيب ماهر و استطيع أن أداوي زوجك و لكن بشرط واحد ، هو أن يقول لي بعد شفائه أنني شافيته ، فقبلت حبا في زوجها النبي، فجاءت مسرعة و أخبرت أيوب بالامر فغضب عليها ، و حلف يمينا أن يضربها مئة جلدة.

و هكذا اتم ايوب امتحانه و دعا ربه فاستجاب له ، و خفف عن زوجته حين أمره بأن يأخذ ضغثا و يضربها به و اعاد عليه أهله و ماله و مكانته و ابقى ذكره لنا(١) نهج البلاغة / خ ١٩٣ / ص ٣٠٣.

منارا و هدى.

بينات من الآيات

[41]يمكن للشيطان أن يمس الانسان بالسوء في جانبي الحياة " المعنوي و المادي " و لكن ذلك لا يكون بالجبر و الاكراه ، لان البشر حر و مختار ، انما يضغط عليه و قد يمسه من ذلك شيء من التعب و الألم . و إذا تحدى الانسان ذلك و استقام رغم المشقة فانه ينتصر على إبليس لانه كما وصفه القرآن : "

ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * انما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون " (!) . و في موضع آخر تنقل لنا الآيات تصريحا عن الشيطان نفسه . تقول الآية : " و قال الشيطانلما قضي الأمر إن الله و عدكم وعد الحق و وعدتكم فأخلفتكم و ما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم و ما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم " (٢)إن كون الانسان من المؤمنين لا يعني أنه لا يتعرض الى وساوس ابليس و ضغوطه ، وحتى الانبياء تعرضوا لضغوطه و محاولاته الدائمة للأغواء ، الا أنهم لم يستجيبوا له و لو ألحق بهم الاذى و المشقة . و هكذا كانوا قدوة للبشرية.

قال بعض المفسرين (كالرازي في تفسيره الكبير : (إن أنبياء الله أرفع من أن يمسهم الشيطان بالنصب و العذاب ، فلا يصح إذن أن ندعي بأن الحال وصل بأيوب (ع) الى حد استقذره الناس لمرضه . و الحقيقة أن هذا الامر جائز في مجال الامتحان لانهم عليهم السلام بعثواقدوات للبشرية ، و ليس صحيحا أن نبعد النظرة

(1)النحل : ١٠٠ - ١٠١.

(2)ابراهيم ٢٢.

الواقعية عن حياتهم ، فنأول الآيات في ذلك الى غير مضامينها . فننفي تعرض يوسف للسجن ، و موسى للاهانة ، و نبينا للاذى ، حتى قال عن نفسه:

"ما أوذي نبي مثلما أوذيت "

مع أن ذلك هو من صميم حياتهم و عنوانا عريضا في تأريخهم الرسالي ، باعتبارهم أنبياء!

و لو راجعنا آيات القرآن و الاحاديث لوجدناها تؤكد على أن الانبياء هم الاولى بالبلاء ، بل أنهم لم يصلوا الى هذا المقام الرفيع الا من خلاله . و قد روي عن الرسول (ص) و قد سئل : أي الناس أشد بلاء ؟ أنه قال:

"الانبياء ثم الصالحون الامثل ثم الامثل فالأمثل من الناس " (١)نعم إن الشيطان لا يتسلط على عقول الصالحين و قلوبهم ، أما الجوانب المادية من حياتهم فهو قادر على سلبهم إياها لو أراد الله امتحانهم فيها ، كما ابتلى في ذلك نبيه أيوب (ع. (

قال الامام الصادق (ع: (

"ان الله عز وجل يبتلي المؤمن بكل بلية ، و يميته بكل ميتة ، ولا يبتليه بذهاب عقله ، أما ترى أيوب كيف سلط ابليس علىماله و ولده و أهله ، و على كل شيء منه و لم يسلط على عقله ، ترك له ليوحد الله به " (٢)و القرآن في هذه السورة يدعو النبي الاكرم (ص) ، و كل مؤمن يسير في خطه الى(١) بح / ج ١٢ / ص ٣٥٥.

(2)المصدر / ص ٣٤١.

تذكر الاصوات من تاريخ الرسل و الرسالات ، و أن تكون حاضرة في ذهنه أبدا ليستعين بذكرها على مواجهة مصاعب الحياة و مشاكلها من أجل الاستقامة في طريق ذات الشوكة.

]و اذكر عبدنا أيوب[

الذي كان في نعيم من الدنيا ، ثم انتقل منه الى الفقر و المرض ، لكنه استقام بعبوديته لله و لم يكفر ،

لانه كأي مؤمن مخلص ينظر للحياة بنور الله ، فهو لا يضره إن فقد كل نعيمها و بقي له الايمان ، كما لا يجد لها طعما لوجمعت له لذاتها و لكنه فقد جذوة الايمان من قلبه و عمله . و قد تجلت عبودية أيوب (ع) في الغنى بشكره ، و في الفقر بصبره و استقامته.

]إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب و عذاب[

أي اذكر من حياة أيوب هذا الموقف العظيم حين دعا ربه في الضراء ، و هذا الموقف عظيم لان من الصعب على الانسان وهو تتوارد عليه الضغوط و المشاكل من كل جانب أن يخلص توجهه الى ربه الاحد ، فهو حينما يجد مس الفقر و الجوع ربما يعتقد بأن الغني أو الحاكم هو الذي ينقذه من هذه الورطة ، و حينما يحوطه المرض غالبا ما يتصور بأن علاجه عند الطبيب لا بسببه ، و هكذا يقع في الشرك ، لكن أيوب تجاوز كل ذلك و حافظ على ايمانه و توحيده الخالص.

[42]و لم يكن البلاء الذي تعرض له أيوب بسبب ذنب عمله ، فهو معصوم مطهر عن المعصية ، و ما أراد الله من ابتلائه:

"الا رحمة ليعظم له الثواب ، و جعله عبرة للصابرين ، و ذكرى للعابدين فيكل بلاء نزل ، ليأنسوا به بالصبر و رجاء الثواب " (١)فلما أتم الله الابتلاء و اظهر صدق نبيه و معدنه رفعه عنه ، و عوضه عما فقده بما هو خير منه ليعرفنا ربنا بأن العاقبة للمتقين الصابرين.

]اركض برجلك هذا مغتسل بارد و شراب[

قال الامام الرضا (ع: (

"فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله تعالى عنه كل ما كان به من البلاء " (٢)[٤٣] و بالاضافة الى إشفائه من الامراض و العلل التي لحقت بجسمه ، رد الله عليه ما فقد من الاهل سواء الابناء أو الاقرباء .

]و وهبنا له أهله و مثلهم معهم[

أي تضاعفوا فاذا كانوا عشرين صاروا أربعين ، و قد حملت هذه الآية على عدة تفاسير:

الاول : أن أهله ماتوا فأحياهم الله ، و أضاف اليهم مثلهم.

الثاني : أن الله عوضه عمن مات من أهله ببنين و بنات آخرين.

الثالث : أن أهله تفرقوا عنه لما أصابه من بلاء ، فجمعهم الله له و عطف قلوبهم عليه.

(1)المصدر / ص ٣٦٠.

(2)المصدر / ص ٣٦٦.

و لكن الروايات اكثر ما تؤكد على الرأي الاول ، و منها قول الامام الصادق (ع) في تفسير الآية:

"فرد عليه أهله الذين ماتوا قبل البلاء ، و رد عليه أهله الذين ماتوا بعد ما أصابهم البلاء ، كلهم أحياهم الله تعالى له فعاشوا معه " (١)و بعد هذا البيان يصف الله رفعه البلاء عن نبيه بأنه ذو فائدتين:

الاولى : تعود على أيوب ذاته ، و قد أسماها رحمة فقال:

]رحمة منا[

لأيوب ، و قد تمثلت هذه الرحمة في شفائه من المرض و رد ما فقده عليه.

الثانية : تعود على عموم الرساليين و المتعقلين ، و تتمثل في العبر و الدروس التي خلفتها القصة.

]و ذكرى لأولي الالباب[

و أهم درس يستفاد من هذه الآيات ، هو أن لا ننهزم أمام مشاكل الحياة و ضغوطها ، فاذا ما بقي الانسان قويا في نفسه ، مقاوما للآثار النفسية و الروحية للازمات و المشاكل ، فانه لن يتأثر بها . و حتى يتمكن من ذلك يجب أن تكون علاقته بالحياة و ما فيها قائمة على أساس انها وسيلة ، لا علاقة شيئية باعتبارها هدفا بذاتها ، و انه إذا لم يصل الى أهدافه و طموحاته من طريق ما ، فسوف يحصل عليها(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٦٦.

عن طريق آخر . فاذا خسر وسيلته أو فشل فيها فليبق على أهدافه و أرادته ، لانه بجهده و تحركه و استقامته قد يحصل على ما هو أفضل مما فقده ، أو فشل المرات الماضية في الوصول اليه و تحقيقه ، هذا إذا نظر للهزائم و النكسات التي تمر عليه في الحياة نظرة موضوعية ،فهي حينئذ ستزيده قوة و مناعة ضد الهزائم ، و اصرارا على تسخير الحياة بصورة أفضل ، وعلى ضوء التجارب الماضية.

و هذا أيوب (ع) يزداد اصرارا على خطه في الحياة ، كلما تفاقم بلاؤه ، دون أن يستجيب الى وساوس الشيطان ، التي كانت تستهدف اضعاف ارادته و النيل من ايمانه و تقواه . و لنقرأ هذه الرواية التي نقلها العلامة المجلسي في كتابه بحار الانوار . قال:

و قال الحسن " : مكث أيوب مطروحا على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين و أشهرا يختلف فيه الدواب ، و قال وهب : لم يكن بأيوب أكلة إنما يخرج منه مثل ثدي النساء ثم تتفقأ ، قال الحسن : و لم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة صبرتمعه تصدق ، و تأتيه بطعام و تحمد الله تعالى معه إذا حمد ، و أيوب على ذلك لا يفتر من ذكر الله و الثناء عليه و الصبر على ما ابتلاه ، فصرخ عدو الله إبليس صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيوب ، فلما اجتمعوا إليه قالوا : ما أحزنك ؟ قال : أعياني هذا العبد الذي سألت الله أن يسلطني على ماله و ولده ، فلم أدع له مالا ولا ولدا فلم يزد بذلك إلا صبرا و ثناء على الله تعالى ، ثم سلطت على جسده و تركته قرحة ملقاة على كناسة بني إسرائيل لا يقربه إلا امرأته فقد افتضحت بربي فاستغثت بكم لتعينوني عليه ، فقالوا له : أين مكرك ؟ أين علمك الذي أهلكت به من مضى ؟ قال : بطل ذلك كله في أمر أيوب فأشيروا علي ، قالوا : نشير عليك ، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة من أين آتيته ؟ قال ": من قبل امرأته ، قالوا : فأته من قبل امرأته فإنه لايستطيع أن يعصيها و ليس احد يقربه غيرها ، قال :أصبتم ، فانطلق حتى أتى امرأته و هي تصدق ، فتمثل لها في صورة رجل فقال :أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو ذلك يحك قروحه و يتردد الدواب في جسده ، فلما سمعها طمع أن يكون كلمة جزع فوسوس إليها فذكرها ما كانت فيه من النعيم و المال ، و ذكرها جمال أيوب و شبابه و ما هو فيه من الضر و أن ذلك لا ينقطع عنهم أبدا.

قال الحسن : فصرخت فلما صرخت علم أن قد جزعت فأتاها بسخلة فقال : ليذبح هذا لي أيوب ولا يذكر عليه اسم الله عز وجل فإنه يبرء ، قال : فجاءت تصرخ : يا أيوب حتى متى بعذبك ربك ؟ ألا يرحمك ؟ أين المال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد ؟ أين الصديق أين لونك الحسنقد تغير و صار مثل الرماد ؟ أين جسمك الحسن الذي قد بلى و تردد فيه الدواب ؟ اذبح هذه السخلة و استرح ، قال أيوب : أتاك عدو الله فنفخ فيك و أجبته ، و يلك أرأيت ما كنا فيه من المال و الولد و الصحة ؟ من أعطانيه ؟ قالت : الله ، قال : فكم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة ، قال : فمذكم ابتلاني الله تعالى بهذا البلاء ؟ قالت : منذ سبع سنين و أشهر ، قال : و يلك و الله ما عدلت ولا أنصفت ربك ، الا صبرت في البلاء الذي ابتلانا الله به ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة ؟ و الله لئن شفاني الله عز وجل لأجلدنك مائةجلدة حين أمرتني أن أذبح لغير الله ؟ (١(

[44]و حينما حلف أن يضرب زوجته الوفية مئة جلدة ، أمره الله أن يجمع في يده مئة شمراخ من عدوق

النخل ، و يضربها ضربة و احدة . ليرفع عنه حرج الحلف بالله من جهة ، و حتى لا تتأذى زوجته من جهة أخرى.

]و خذ بيدك ضغثا فاضرب به[

(1)بح / ج ١٢ / ص ٣٦٨.

يقول الامام الصادق (ع: (

"فأخذ عدقا مشتملا على مئة شمراخ فضربها به و احدة فخرج من يمينه " (١)و قد استفاد الفقهاء من هذا التفسير للآية الكريمة و أحاديث اخرى حدا شرعيا قالوا فيه بأن الزاني إذا كان مريضا لا يحتمل بدنه الجلد ، فأنه يضرب مئة جلدة بهذه الطريقة و يسقط عنه الحد المتعارف . و في الخبر ان رسول الله)ص) أتى برجل أحبن قد استسقى بطنه وبدت عروق فخذيه ، و قد زنى بأمرأة مريضة ، فأمر رسول الله (ص) فأتى بعرجون فيه مئة شمراخ ، فضربه به و ضربها ضربة و خلى سبيلهما " (٢) و الحبن داء في البطن يعظم منه و يتورم.

و بعد أن أمر الله أيوب (ع) بضرب زوجته كما تقدم أداء للعهد الذي قطعه على نفسه أكد له ضرورة الوفاء بالالتزامات التي يتعهد بها المؤمن تجاه ربه فقال:

]و لا تحنث[

أي لا تميل الى الباطل بترك الوفاء بالقسم و مخالفته ، إذ ينبغي للانسان المؤمن أن يفي بالتزاماته و عهوده التي يقطعها مع ربه على نفسه ، فكثير من الناس حينما يمرضون أو يتعرضون للمشاكل ، يدعون الله أن يعينهم و يرفع عنهم ذلك ، و ينذرون تقربا له أن لو رفعها سيفعلون كذا و كذا من الصالحات ، و لكنهم بمجرد ان يصحوا أو تنتهي مشاكلهم يتناسون نذورهم و تعهداتهم . ثم على الانسان أن لا يتعهد بمالا يقدر عليه ، حتى لا يلحقه الاثم بحنثه . فهذا الامام علي (ع) يأتيه رجل نذر أن(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٦٦.

(2)المصدر / رقم . 71

يتصدق بوزن فيل خبزا في سبيل الله ، فينهره الامام ، و يتعهد الرجل أن لا يعود لها مرة ثانية.

و بعد ذلك يمتدح ربنا نبيه أيوب)ع) مركزا على أمور في شخصيته:

الاول : صبره ، حيث عرضه الله لالوان الابتلاءات فاستقام و تحمل.

]إنا وجدناه صابرا[

الثاني : اخلاصه في العبادة و توبته ، فلم يدعوه البلاء للكفر بالله ، و لا الى عبادة غيره من الشركاء المزيفين .

]نعم العبد إنه أواب[

يأوب الى الله و يتقرب اليه كلما ازداد بلاؤه.

جاء في تفسير القمي ، حدثني أبي عن ابن فضال ، عن عبد الله بن بحر ، عن ابن مشكان عن ابي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال : سألته عن بلية أيوب التي ابتلي بها في الدنيا لاي علة كانت ؟ قال:

"لنعمة أنعم الله عز وجل عليه بها في الدنيا و أدى شكرها ، و كان في ذلك الزمان لا يحجب ابليس عن دون العرش ، فلما صعد و رأى شكر نعمة أيوب (ع) حسده ابليس ، فقال : يا رب إن أيوب لم يؤد أليك شكر هذه النعمة الا لما اعطيته في الدنيا ، و لو حرمته دنياه ما أدى شكر نعمة أبدا ، فقيل له : قد سلطتك على ماله و ولده ، قال : فانحدر ابليس فلم يبق له مالا ولا ولدا الا أعطبه فأزداد أيوب لله شكرا و حمدا . قال : فسلطني على زرعه يارب ، قال : قد فعلت ، فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب لله شكرا و حمدا، فقال : يارب سلطني على

غنمه فسلطه على غنمه فأهلكها ، فأزداد أيوب لله شكرا و حمدا ، فقال : يا رب سلطني على بدنه فسلطه على بدنه ما خلا عقله و عينيه ، فنفخ فيه ابليس فصار قرحة و احدة من قرنه الى قدمه ، فبقى في ذلك دهرا طويلا يحمد الله و يشكره حتى وقع في بدنه الدود ، فكانت تخرجمن بدنه فيردها فيقول لها ارجعي الى موضعك الذي خلقك الله منه ، و نتن حتى أخرجوه أهل القرية من القرية و ألقوه في المزبلة خارج القرية ، و كانت امرأته رحمة بنت يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم صلوات الله عليهم وعليها تتصدق من الناس وتأتيه بما تجده.

قال : فلما طال عليه البلاء و رأى ابليس صبره أتى اصحابا لايوب كانوا رهبانا في الجبال "الى هنا و إبليس يلاحق أيوب (ع) ليخدعه بطريقة أو بأخرى . ولما عرف ابليس أنه لم يستطع التأثير في نفس ايوب بفقد ماله و أهله و صحته ، حاول هذه المرة التأثير عليه من خلال أصدقائه ، و يبدو من خلال هذا الحديث أن أصدقاءه السوء أكثر أثرا في الانسان من سائرعلاقاته الأخرى.

"و قال لهم : مروا بنا الى هذا العبد المبتلى فنسأله عن بليته فركبوا بغالا شهبا و جاؤوا ، فلما دنوا منه نفرت بغالهم من نتن ريحه ، فنظر بعضهم الى بعض " وقد تساءلو عن بليته و ارتابوا في أسبابها ، و هذه من طبيعة الانسان أنه إذا رأى شخصا مبتلىاعتقد بأنه يستحق ذلك لما عمل من الذنوب ، و لكن البلاء ليس بالضرورة أن يكون لهذا السبب ، بل قد يكون للزيادة في أجر العبد و تمحيصه " ثم مشوا اليه وكان فيهم شاب حدث السن فقعدوا اليه فقالوا : يا أيوب لو أخبرتنا بذنبك لعل الله كان يهلكنا إذا سألناه، و ما نرى ابتلاك بهذا البلاء الذي لم يبتل به أحد إلا من أمر كنت تستره ؟ فقال أيوب (ع " : (وعزة ربي أنه ليعلم أني ما أكلت طعاما الا و يتيم أو ضعيف يأكل معي ، و ما عرض لي أمران كلاهما طاعة لله إلا أخذت١١ + ٣٧٩

بأشدهما على بدني ، فقال الشاب : سوءة لكم عيرتم نبي الله حتى أظهر من عبادة ربه ما كان يسترها ؟"فتألم أيوب (ع) لذلك ، حيث رأى أقرب الناس إليه يشككون في عبادته . فقال أيوب (ع) : " يا رب لو جلست مجلس الحكم منك لادليت بحجتي "يعني لو كنت أنا القاضي ، لكنت أقول لهم بأنني لا أستحق هذا البلاء و لدي حجة على ذلك ، و لكن لم أقل لانني أنا العبد و أنت الرب.

"فبعث الله إليه غمامة فقال : يا أيوب ادل بحجتك فقد أقعدتك مقعد الحكم وها أنا ذا قريب و لم أزل ، فقال : يا رب انك لتعلم انه لم يعرض لي أمران قط كلاهما لك طاعة الا أخذت بأشدهما على نفسي ، ألم أحمدك ؟ ألم أشكرك ؟ الم أسبحك ؟ قال : فنودي من الغمامة بعشرة آلاف لسان : يا أيوب من صبرك تعبد الله و الناس عنه غافلون ؟ و تحمده و تسبحه و تكبره و الناس عنه غافلون ؟ أتمن على الله بما لله فيه المنة عليك ؟

قال : فأخذ التراب فوضعه في فيه ثم قال : لك العتبى يا رب أنت فعلت ذلك بي ، فأنزل الله عز وجل عليه ملكا فركض برجله فخرج الماء فغسله بذلك الماء فعاد أحسن ما كان و أطرأ ، و أنبت الله عليه روضة خضراء ورد عليه أهله و ماله و ولده و زرعه ، و قعد معه الملكيحدثه و يونسه ، فأقبلت امرأته معها الكسرة (و هي القطعة من الخبز اليابس) فلما انتهت الى الموضع إذا الموضع متغير و اذا رجلان جالسان ، فبكت و صاحت و قالت : يا أيوب ما دهاك ؟ فنادها أيوب فأقبلت فلما رأته و قد رد الله عليه بدنه و نعمه سجدت لله عز وجل شكرا ، فرأى ذؤابتها مقطوعة ، و ذلك أنها سألت قوما أن يعطوها ما تحمله الى ايوب (ع) من الطعام ، و كانت حسنة الذوائب ، فقالوا لها : تبيعينا ذؤابتك هذه حتى نعطيك ؟

فقطعتها و دفعتها اليهم ، و أخذت منهم طعاما لأيوب ، فلما رآها مقطعة الشعر غضب و حلف عليها ان يضربها مأة ، فأخبرته انه كان سببه كيت و كيت ، فاغتم أيوب من ذلك فأوحى الله عز وجل إليه " خذ بيدك ضغثا فاضرب به و لاتحنث " فأخذ عدقا مشتملا على على مئة شمراخ فضربها ضربة واحدة فخرج من يمينه " (١ [45](و بعد أن اختتم السياق قصة أيوب و صبره ، و استقامته امام كل الضغوط ، شفعها بالدعوة الى ذكر بعض الانبياء و التفكير في تأريخهم لاخذ العبر و الدروس منه ، إذ ينبغي للرساليين أن ينظروا في تاريخ قادتهم و اخوانهم الذين سبقوهم ، و يلاحظوا معاناتهم و استقامتهم لله ، فان ذلك يزيدهم ايمانا بخطهم الرسالي ، و ثقة بأنفسهم و تحركهم و استقامة على الطريق.

]و اذكر عبادنا إبراهيم و إسحاق و يعقوب أولي الأيدي و الأبصار]ما يحتاجه الانسان لبلوغ التكامل القوة و الرؤية ، فبقوته يحقق ما يراه . و يبدو أن ظاهر الآية يدل على وجود الأيدي (القوة) عند الانبياء و الأبصار) الرؤية) الآ ان باطنها القوة في الايمان ، و البصيرة في الدين ، و هكذا جاء في الحديث الماثور عن الامامالباقر عليه السلام قال:

"أولوا القوة في العبادة و البصر فيها " (٢)و الجدير بالملاحظة أن ربنا اكتفى هنا بالدعوة الى تذكر هؤلاء العظماء ، دون أن يعرض لنا مشاهد من حياتهم نعتبر بها ، و هكذا في موارد كثيرة من القرآن ، و ذلك لاسباب:

(1)المصدر / ص ٤٦٦.

(2)المصدر / ص ٤٦٧.

الاول :أن مجرد تذكر الرسالي بأنه ينتمي الى خط فيه هؤلاء العظماء الذين اسسوا تأريخ المجد للبشرية ، هو أمر مفيد جدا ، يعطيه الايمان و الثقة و الاستقامة بالرغم من كل العوامل و الظروف المضادة ، إذ لا يشعر و هو يعاني من الرفض و الحرب بشتى صورها بالضعفو الوحدة ، و هو يشعر بانتمائه الى هذا الخط ، و الى هذا التأريخ العظيم.

الثاني : أن القرآن وحدة واحدة ، و يكمل بعضه بعضا ، فيمكن لقارئه أن يجد في سورة الصافات تفصيل ما اشارت اليه سورة (ص) ، و هكذا بالنسبة لسائر السور مع بعضها ، و علينا الا نكون من الذين اتخذوا القرآن عضين ، فصارت نظرتهم اليه نظرة تجزيئية ، بل نسعى لمعرفة آيات القرآن من خلال نظر شمولي اليها جميعا.

[46]ثم أن القرآن عرض اهم ما يستفاد من حياتهم ، لكي يؤكد بأن القصص التي يوردها ليست للتسلية او مجرد زيادة المعرفة بالتأريخ انما هي للتعلم و الموعظة . يقول تعالى عن ابراهيم و اسحاق و يعقوب:

]إنا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار [

حينما يقرأ الانسان أو يسمع عن حياة العظماء ، أول ما يجب أن يتطلع الى معرفته هو سر عظمتهم ، لا لكي يعرف و حسب بل لكي يأخذ بأسباب العظمة أيضا ، و سبب عظمة هؤلاء و رفعة شأنهم ، هو الايمان الخالص بالآخرة و تذكرها ، الذي كان يزيدهم بعدا عن المعصية و قربا الى الطاعة . أو ليس ربنا يقول في سورة الممتحنة : " قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم و الذين معه " ثم تتواصل الآيات الى قوله تعالى : " لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله و اليوم الآخر و من يتول فان الله هو الغني الحميد " (١) . إن العوامل الأخرى لم تتدخل في صياغة

(1)سورة الممتحنة / ٣ - ٦.

شخصية هؤلاء ، انما بقي ذكر الآخرة وحده خالصا هو الذي يؤثر فيهم ، فحينما آمنوا بالله تعالى ، و تحملوا مسؤولياتهم الرسالية لم يتطلعوا الى مطامع دنيوية من خلالها ، و لو تداخلت عوامل أخرى في ذلك لم يرتقوا الى هذه المنزلة من الأخلاص.

[47] [و إنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار]

أي اصطفاهم الله و كانوا من أفضل العباد عنده و أخلصهم له ، لان الاخلاص نفسه على درجات.

[48] و يخلد القرآن أسماء طائفة أخرى من الانبياء ، و يدعونا لذكرهم.

[و اذكر إسماعيل و اليسع و ذا الكفل و كل من الأخيار] و قد يكون السبب في ضم هؤلاء الثلاثة الى بعضهم ، وأولئك الى بعضهم في الآيات المتقدمة ، هو اختلاف منزلة الفريقين عند الله ، و أن الفريق الاول هم الافضل و ذلك بدلالتين:

- 1إنتماء ابراهيم (ع) الى المجموعة الاولى و أفضليته ظاهرة لانه من أولي العزم.

- 2السياق القرآني الذي و صف أولئك بالمصطفين أولا والأخيار ثانيا ، بينما اقتصر في مدح هؤلاء بكلمة " الاخيار . "

[49] و يؤكد القرآن في نهاية الدرس الذي تختم به القصص الهدف منها ، و أهميتها لمن أراد التقوى.

[هذا ذكر]

ليشتمل على موعظة ، ينتفع بها المؤمنون حيث يتأسون برسل الله . الامر الذي يبلغ بهم الفوز و الفلاح .

[و إن للمتقين لحسن مئاب]

و المآب هو المكان الذي يستقر فيه الانسان فهو يعود اليه كلما خرج منه . و هنا المآب بمعنى العاقبة و النهاية . و في الآية تطمين للمؤمنين بأن الامور في صالحهم مهما كان ظاهرها معاكسا.

[50] و يبين الله هذه العاقبة فيقول:

[جنات عدن]

و هي أفضل الجنان و فيها الخلود ، و مآب المتقين الى أفضل جنان الله في الآخرة.

[مفتحة لهم الابواب]

حينما يقدمون عليها ، و الذي يفتح أبواب الجنة هو الايمان و الدعاء و العمل الصالح ، فهي مفتحة للمتقين و المؤمنين فقط لا لغيرهم ممن لم يعملوا الصالحات.

[51] [متكئين فيها]

على الارائك و هذه دلالة على مدى الاطمئنان الذي يلاقونه فيها.

[يدعون فيها بفاكهة كثيرة و شراب]

جزاء لهم على ايمانهم و أعمالهم ، و تعويضا عما فاتهم من نعيم الدنيا و لذاتها في سبيل الله.

[52]ومن أعظم ما يستلذ به المؤمنون في الجنة هم الحور العين ، و لعل تركيز القرآن على ذكر الحور في حديثه عن ثواب المؤمنين ، ينطلق من أن أصعب الفتن التي يتعرضون لها في الحياة الدنيا هي فتنة الشهوة الجنسية ، و لكي يتجاوزوا إغراءها و ضغطها يذكرهم الله بعاقبة ذلك ، حيث الظفر بالحوريات في الجنة.

]و عندهم قاصرات الطرف أتراب[

فهن لا ينظرن الى غير ازواجهن ، و ينظرن الى الأرض احتراما لأزواجهن و تواضعا . وهن اتراب اي المتماثلات سواء في السن ، أو في كونهن ابكار غير مطموثات ، ويقال فلانة ترب لفلانة إذا أريد التساوي بينهما في العمر ، و هكذا يتساوى عند المؤمن الميل الى كل واحدة دون تفضيل واحدة على الاخرى لأنهن جميعا القمة في الجمال و الروعة.

[53]ثم أن الله يدعونا للعمل و الاستقامة في سبيله و لكن بطريق غير مباشر و ذلك حينما يعدنا بالجزاء المتقدم الذكر.

]هذا ما توعدون ليوم الحساب[

ولان المسافة بين هذا الثواب و الانسان تتمثل في الايمان و عمل الصالحات ، فان الآية تشتمل طبيعيا على الدعوة الى ذلك . و قد استخدم القرآن كلمة الحساب تأكيدا لهذه الحقيقة ، و لو كان الجزاء يحصل بلا عمل فلماذا الحساب إذن ؟!

[54]و يتميز نعيم الآخرة عن نعم الدنيا ، ذاتيا بالتنوع و الجودة ، و زمنيا بالخلود ، فالنعمة تزداد و تتجدد دائما .

]إن هذا لرزقنا ماله من نفاد[

و ما دام الله باق فان رزقه للمؤمنين لا ينتهي.

إن ذلك لحق تخاصم أهل النار

هدى من الآيات

الآيات القرآنية آيات مثاني متشابهات ، و من معاني هذه الكلمة انها تجري على اساس المقابلة ، الجنة و النار ، و الصالح و المفسد و الخير و الشر و .. و .. ولا يعرف الشيء بابعاده و حدوده إلا بمقارنته مع أضداده ، فالنهار يعرف بالليل ، و الحياة تعرف بالموت، و الغنى بالفقر.

و لكي يعرفنا ربنا بنعيم الجنة يحدثنا عن عذاب جهنم التي يستقر فيها ذوي العقائد و الأعمال المناقضة لأصحاب النعيم ، و من خلال الآيات التي وردت في كل القرآن يتضح ان المسافة بين العاقبتين منعدمة تماما ، فليس ثمة منطقة أخرى بينهما ، لهذا يكفي الانسان حتىيدخل الجنة أن يخرج نفسه من النار ، و كما قال الله : " كل نفس ذائقة الموت و إنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (1)(1) " آل عمران / ١٨٥.

و هنا في هذه السورة و بعد أن يبين القرآن الحكيم أمثلة واقعية من التأريخ عن الذين اخلصوا لله في معتقداتهم و اعمالهم ، فاصروا بذلك قدوة و أئمة في الصالحات ، فمنهم من صبر و تجاوز اغراء السلطة والمال كداود و سليمان (عليهما السلام) و منهم من صبر على البلاء حتى صار مضرب المثل كأيوب (ع) فنالوا الجنة على ذلك ، بعد ذلك كله يضرب لنا مثلا من واقع أصحاب النار الذين عصوا الله ، و حاربوا المؤمنين ، و طغوا في الأرض . و كما أن الأنبياء يشفعون لأتباعهم و يدخلونهم الجنة لا يدخل هؤلاء النار بمفردهم إنما يجرونمعهم كل من انتمى إليهم ، و اتبع خطهم في الحياة ، و هناك يتخاصم التابع و

المتبوع تخاصما عنيفا ، يلقي من خلاله كل طرف المسؤولية على الطرف الآخر ، و كان ينبغي أن يحدث هذا الصراع في الدنيا ، بان يتمرد الانسان على أئمة الكفر ، و يثور على الطغاة ، أما وهولم يفعل ذلك فلن ينفعه تخاصمه في يوم الحساب شيئا و قد فوت على نفسه فرصة الإختيار السليم ، و العمل الصالح في دار الابتلاء.

ان السبب الذي يدعو أكثر الناس لاتباع الطغاة ، و الإنسجام مع الواقع المنحرف الذي يصنعونه في المجتمع ليس عدم معرفتهم بخطئه ، انما لا يعارضون ولا يثورون هربا من صعوبات الصراع و مسؤولياته ، و اذا استطاعوا ذلك في الدنيا فانهم يجدون مرارة الصراع في نار جهنم ، حيث الظروف القاسية ، و العذاب الأليم المستمر.

إن ربنا يقسم في هذه الآيات بأن الصراع في النار حق - كما أكد ذلك في الدنيا في مواقع أخرى من القرآن ، و التخاصم الذي يشب لضاه هناك لهو دليل على ترك الانسان الالتزام بمسؤوليات الصراع في هذه الحياة ، و الذي لا يختار الحق بإرادته يخضع له على الرغم منه ،و قد ترك هؤلاء مكافحة الظلم ، فها هم يكافحونه هناك في النار.

بينات من الآيات

[55]كما ركزت الآيات في اذهاننا مشهد الجنة و بالتالي جزاء المخلصين تذكرنا في المقابل بعاقبة الطغاة.

]هذا[

اسم اشارة يتضمن دعوة للذي يتلوا القرآن بالنظر في عاقبة المتقين ، و التفكير في جزائهم ، و لكن ينبغي أن لا يغفل عما أعد للظالمين من العذاب ، و ذلك من أجل أن يحفظ توازن نفسه و عقله بين الرجاء و الخوف.

]و إن للطاغين لشر مئاب[

و تقابل هذه الآية الآية (٤٩) التي وردت في الدرس الماضي ، فللمتقين العاقبة الحسنة عند الله ، و للطغاة عاقبة السوء و الشر ، و ليس المقصود من الطاغية هنا السلطان الجائر و حده ، و ان كان هو التجسيد الأوضح و الأشمل للطغيان ، انما جنوده و أجهزته أيضا ،اذ لولاهم لما قدر على الظلم و الفساد ، بل لعلنا نعمم الحكم على سائر معاني الطغيان ، فكما يطغى الإنسان في الحياة السياسية فانه يطغى كذلك في الحياة الإجتماعية ، فيظلم جاره و أسرته و الناس ، و يظهر من أحاديث مستفيضة في تفسير الآية ان المعني بالطاغين هم سلاطين الجور ، بينما المعني بما يلي هم أتباعهم ومن سار على دربهم.

[56]و تفصل الآيات في ذكر عاقبة الطغاة ، زيادة في التخويف لعل الإنسان يثوب عن الباطل ، و يهتدي للحق رغبة في الثواب ، و رهبة من العذاب.

]جهنم يصلونها[

قال بعض الفلاسفة القدماء - يتبعهم بعض الجهلة اليوم - : إن أهل النار يتعودون على عذابها فلا يعودون يتأثرون به ، و جسدوا هذه الفكرة المنحرفة في هيكل حيوان زعموا بانه يلتهم النار ، أما القرآن وهو الحق فانه يخالف هذه الخرافة مؤكدا بان المجرمين يتذوقونالعذاب ، و كلمة " يصلونها " تعني انهم تمسهم جهنم مسا.

]فبئس المهاد[

و هو المكان الذي يمهد و يهيأ لهم و كأنهم مهدوا لأنفسهم فراشا من النار في جهنم ، بلى . تمهيد الارضية لسلطانهم تجسد في ذلك اليوم في تمهيد جهنم لهم .

] [57]هذا فليذوقوه حميم و غساق [

و الحميم هو الحرارة الشديدة ، اما الغساق فهو كما جاء في بعض كتب اللغة : القيح النتن ، و في الرواية عن الامام أبي جعفر (ع) قال:

"الغساق واد في جهنم فيه ثلاثمائة و ثلاثون قصرا ، في كل قصر ثلاثمائة بيت ، في كل بيت اربعون زاوية ، في كل زاوية شجاع (الحية العظيمة المخيفة) في كل شجاع ثلاثمائة و ثلاثون عقربا ، في كل حمة عقرب (إبرة العقرب) ثلاثمائة وثلاثون قلة من سم ، لو أن عقربا منها نضحت سمها على أهل جهنم لوسعهم سمها " (١)[٥٨] [و ءاخر من شكله أزواج[

ولا يقتصر العذاب على هذين النوعين انما هو انواع و اساليب مختلفة كثيرة ،(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٦٧.

و نستوحي من هذه الآية ان أنواع العذاب كثيرة جدا ، إلا ان بعضها يتلازم مع بعض ، كما يتلازم الحميم مع الغساق و يكملة.

[59]و بعد أن يدخل الطغاة النار و ينتهي كل واحد إلى موقعه ، الذي يضيق به ، يجدونه آخرين من اشباههم و اتباعهم الذين انخدعوا بهم يدخلون معهم إلى جهنم و يقال لهم.

]هذا فوج مقتحم معكم[

و احتمل ان يكون المراد من الآخر : الفوج الآخر ، وهم ازواج و مشابهون للفوج الأول ، و يكون ذلك تمهيدا للحديث التالي عنهم ، و هذا يتشابه و ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى : " احشروا الذين ظلموا و أزواجهم وما كانوا يعبدون " (١)و الاقتحام هو الدخول في الشيء بشدة كالمسمار الذي لا مكان له في الحائط فتدخله المطرقة قسرا ، و لان الطغاة يتعذبون من ضيق المكان ، و أن النار تضيق عليهم كضيق الزج بالريح (٢) كما جاء في حديث الرسول (ص) فانهم ينادون بهم ، لهذا و على خلاف ما يقوله صاحبالبيت لضيفه فانهم يقولون:

]لا مرحبا بهم[

أي لا مكان يسعهم ، ولا نفس تقبل بحلولهم ، و الرحب هو المكان الوسيع ، فكأنهم أرادوا القول : بأن المكان ضيق و يضيق أكثر بهم ، وعللوا لعنهم و سبهم لهم بأنهم اهل جهنم ، و هل يرحب بمن سيصلى نارا ؟!

(1)الصافات / ٢٢.

(2)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٦٧ / و الزج -كما يبدو هو القربة.

]إنهم صالوا النار[

و هذا ما يؤكده ربنا بقوله تعالى " : كلما دخلت امة لعنت اختها. "

[60]و يبدأ حينئذ الصراع العنيف بين الطرفين ، و الذي ينتهي الى التخاصم و التقاتل ، و في البين يلقي البعض المسؤولية على البعض الآخر.

]قالوا[

الاتباع وهم يردون على كلام الطغاة ، حيث تتحول التحية و أعراف الاستقبال إلى سباب بينهم.

]بل أنتم لا مرحبا بكم[

لانكم السبب و منكم الاذى و العذاب ، و يواصل التابعون شجارهم مع الطغاة و هم يحاولون تبرير موقفهم ، و التهرب من المسؤولية.

]أنتم قدمتموه لنا[

اذ أغريتمـونا باتباعكم ، و ظللتمونا بمختلف الوسائل حتى صرنا إلى هذا العذاب.

]فبئس القرار[

أي ساء المكان الذي نستقر و نثبت فيه ، ويقال : فلان قرر أن يفعل كذا إذا ثبت فكره على رأي معين فهو غير متردد ، بل حاسم و قاطع في أمره.

و هذه الكلمة تدل على الخلود في النار ، و حين يكون المنزل الأخير سيئا فساءمصيرا.

[61]و يطلب التابعون من الله أن يزيد العذاب على الطغاة ، جزاء لهم على جرائمهم التي مارسوها بانفسهم ، وعلى المعاصي التي مارسها التابعون بضغوطهم و تضليلهم.

]قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار][٦٢] ثم يلتفتون إلى بعضهم و يتساءلون لماذا لا نجد فلانا و فلانا - يقصدون بعض المؤمنين - في النار ؟!

]و قالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار]و هناك تنكشف لهم اخطاؤهم ، ففي البدء اكتشفوا ان القيادة التي اتبعوها كانت منحرفة ، و الآن تبين لهم أيضا ان مقاييسهم في الحياة و تقييمهم للآخرين هي الأخرى كانت خاطئة ، و كان ينفعهم ذلك لو عرفوه في الدنيا و عملوا على اصلاح أنفسهم ، و لكنهم رفضوا الرسالة واتبعوا الاهواء.

[63]و يرد أهل النار عدم رؤيتهم لمن كانوا يتصورونهم أشرارا في النار إلى أحد سببين ، فاما انهم صاروا الى الجنة وهذا يعني ان مقاييسهم و بالتالي موقفهم تجاه اولئك كان خاطئا ، أو انهم موجودون معهم و لكنهم لا يرونهم.

]اتخذناهم سخريا[

في الدنيا و تبين الآن سلامة خطهم .

]أم زاغت عنهم الابصار[

فلا نراهم.

و لهذا المقطع تفسير آخر هو : انهم يعنون الله ، بانه ربما ادخلهم الجنة غفلة و اشتباها مع انهم من أهل النار ، و تعالى ربنا أن يضل او ينسى ، بل هم المخطئون في تقييمهم للمؤمنين.

و يبقى السؤال : من هم أولئك الذين تعنيهم الآيات في واقعنا الراهن ؟

انهم الطغاة بلا ريب ، وهم حكام الجور المتسلطون قسرا على رقاب العباد ، و الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، و يتجاوزون حدود الله ، و يذلون عباد الله ، أما جنودهم و أزواجهم فهم الذين يتبعون نهجهم ، أو

يشاركونهم في ظلمهم.

أما الذين يعدونهم من الاشرار فهم الثائرون ضدهم من عباد الله المخلصين ، الذيــن رفضــوا عبادة غير الله ، واتخاذ الآلهة المزيفة أربابا من دون الله رب العالمين.

ان الطغاة و جنودهم هم من قوى القمع ، و أبواق الضلالة ، يكيلون التهم ضد الثائرين عليهم ، و يعتبرونهم شرا من اليهود و النصارى و المجوس ، أرأيتهم كيف يقبلون أيدي الآعداء و يطبعون العلاقات معهم ، ويفتحون الأبواب أمامهم ، و في المقابل يزجون بالمؤمنين فيالسجون الرهيبة.

ولكن هؤلاء الذين اعتبروهم اشرارا في الدنيا يفتقدونهم في النار ، و يعلمون أنهم هنالك في الجنة يحبرون.

و كان اتباع أهل بيت الرسالة من هؤلاء ، إذ رفضوا سلطات الجور و القمع و الضلال ، و طاردتهم قوى الإرهاب ، و ألصقت بهم أبشع التهم ، و لكن أئمة الهدى من آل الرسول (عليهم السلام) كانوا يسلونهم بانهم سوف يحبرون في الجنة بينمايطلبون في النار.

يقول (ميسر) وهو أحد الثائرين ضد سلطات الجور:

دخلت على أبي عبد الله (الامام الصادق (ع)) فقال : " كيف أصحابك ؟ "فقلت : جعلت فداك لنحن عندهم أشر من اليهود و النصارى و المجوس و الذين أشركوا.

قال و كان متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال : " كيف ؟ "قلت والله لنحن عندهم أشر من اليهود و النصارى و الذين أشركوا ، فقال : " أما والله لا يدخل النار منكم اثنان ، لا والله ولا واحد انكم الذين قال الله عز وجل : " و قالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار ان ذلك لحق تخاصم أهل النار " قال لهم طلبوكم - و الله - في النار -و الله - فما وجدوا منكم أحدا " (١)هكذا اليوم يتعرض المؤمنون الصادقون للضغوط و لكنهم سوف يحبرون في الجنة حين يتخاصم الطغاة و جنودهم و أتباعهم في النار.

[64]بلى . هذا الصراع في النار من واقع..

]إن ذلك لحق تخاصم أهل النار[

[65]و انما جاءت رسالات الله لتنقذ الانسان من هذا المصير الأسوأ(١) المصدر / ص ٤٦٨.

و التخاصم من خلال دعوتها له لنبذ الآلهه المزيفة ، و اتباع التوحيد الخالص في الحياة ، فنهته عن عبادة الطغاة بطاعتهم ، و عن عبادة الأجيال السابقة باتباع سيرتها الخاطئة.

]قل إنما أنا منذر[

و حتى هذا المنذر يجب أن لا يعبد من دون الله ولو بلغ من العظمة ما بلغ.

]وما من إله الا الله الواحد القهار[

الذي يقهر الأعداء و يغلبهم ، و من أبرز شواهد القهر و وسائله هو الموت الذي يخضع له الجميع ، فلا يقوى أحد على دفعه عن نفسه ، و نقرأ في دعاء الصباح لأمير المؤمنين (ع) قوله : " فيا من توحد بالعز و البقاء ، و قهر عباده بالموت والفناء " (١(

و لا ينحصر قهر الله في الموت و حسب بل يدخل في تطبيق كل حق و سنة في الحياة ، و من لا يستجيب لله و للحق الذي تتضمنه رسالاته ، و بما ينذر به الانبياء و من يتبعهم باختياره و إرادته فسوف

يقهره الله عليه بالرغم منه ، في الدنيا إن شاء ذلك أو في الآخرة.

[66]و حتى لا يستبد بنا الخوف منه تعالى ، يذكرنا برحمته و غفرانه.

]رب السماوات و الارض و ما بينهما العزيز الغفار]و رب الشيء هو الأرأف به ، و الأحرص عليه.

[68 - 67]و من العوامل النفسية لارتكاب الخطأ ، و الوقوع في الضلالة التهاون(١) مفاتيح الجنان / ص ٦٣.

بهما ، و الاسترسال فيهما ، وعدم الجدية في مواجهتهما ، فان الله يقول:

]قل هو نبؤ عظيم * أنتم عنه معرضون[

أي ان اعرضاكم عن عبادة الله ، و توجهكم إلى الشرك أمر عظيم جدا ، و هل أعظم من ترك الانسان رب السماوات و الأرض إلى الشركاء المزيفين ، و نبذه قيم الحق الفطرية الى الباطل و الضلال ؟

إذا لا يجوز أن يستهين الانسان بالشرك و يسترسل معه ، و الى أين ينحدر به مهوى الشرك ؟

الى الجحيم ، و هل يمكن أن نستهين بعذابه الخالد ؟

و حين يكون الانسان جديا في مواجهة الشرك يعرف معانيه ، و يتبصر مهالكه ، أو ليس الخروج عن ولاية أئمة الهدى الى ولاية أئمة الكفرة و الضلالة شركا ، أو ليس أتباع الظلمة أو حتى السكوت عنهم شركا عظيما ، هكذا روينا عن الامام الصادق (ع) انه قال في تفسير الآية : " الذين أوتوا العلم الأئمة ، النبأ : الامامة " (١)[ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون[

[69]و يؤكد ربنا على أهمية التوحيد ، و أنه محور الحوار الذي دار في الملأ الأعلى حين خلق الله الانسان الأول ، و اسجد له ملائكته ، و رفض أبليس السجود تكبرا ، و بالتالي انه هدف خلق البشر ، و حكمة سجود الملائكة له ، فكيف يجوز التهاون(١) تفسير نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٦٩.

فيه ؟!

] [70]إن يوحى إلى إلا انما أنا نذير مبين[

ان دور الرسول (ص) هو الانذار بوضوح ، و مسؤوليته ابلاغ الرسالة الى الناس كما هي بالضبط ، و في هذا تمهيد للحديث الذي سيتطرق له الدرس القادم حول قضية آدم و إبليس ، التي تمثل جانبا من الغيب ، حيث يحتاج التسليم لما يقوله الرسول فيها لهذه المعرفة بدور الرسول ، ذلك أن الجدل الذي دار عند خلق الانسان في الملأ الاعلى بين الملائكة و ربهم - سبحانه و تعالى - كان حول حكمة خلق الانسان الذي يفسد في الارض ، و يسفك الدماء ، و لكن ربنا قال لهم يومئذ : " اني أعلم مالا تعلمون " و كان من علم الله انبعاثالرسل ، و ايمان فريق من الناس بهم ، و خلوصهم في عبادة ربهم ، برغم عواصف الشهوة ، و نوازع الكبر و الغفلة ، و ضغوط الطغاة ، مما جعل هذا الفريق هم صفوة الخلق الذين باهى بهم الله ملائكته المقربين.

و هكذا نقرأ في النصوص الاسلامية : ان ما اختصم به في الملأ الأعلى الاعمال الصالحة التي بادر اليها المخلصون من البشر ، فعن ابن عباس عن النبي (ص) قال : " قال لي ربي أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا ، قال : اختصموا في الكفارات و الدرجات ،فأما الكفارات فاسباغ الوضوء في السبرات ، و نقل الأقدام الى الجماعات ، و انتظار الصلاة بعد الصلاة ، و أما الدرجات فإفشاء السلام ، و إطعام الطعام و الصلاة بالليل والناس نيام " (١)(١ (المصدر / ص ٤٧٠.

و تضيف رواية ثانية عن النبي (ص) : " و ولايتي و ولاية أهل بيتي حتى الممات " (١)و اذا تدبرنا في سياق الآيات لعرفنا أن أعظم أهداف خلق البشر هو توحيد الله ، و لا يتحقق توحيد العبد ربه إلا بالتسليم لولاية الله و ولاية من عقد الله له الولاية ، و رفض الأنداد و الآلهة التي تعبد من دون الله ، أما مجرد الصلاة دون التسليم للقيادة الشرعية فإنها فارغة عن جوهر العبادة . أرأيت الطغاة يمنعون عن الصلاة ؟ كلا .. بل ترى بعضهم يبادر إلى بناء المساجد ، و إقامة الصلوات الحاشدة فيها ، و لكنهم يتكبرون في الأرض بغير الحق ، فهل تشفع لهم صلاتهم هذه ؟ كلا .. لأنهم ينازعون الله رداءه ، و يغتصبونالولاية الالهية و يدعون الناس الى عبادتهم من دون الله.

(1)المصدر

ان هذا لهو البلاء المبين

هدى من الآيات

في هذه المجموعة من الآيات يذكرنا الله عز وجل بالمعنى الحقيقي للاخلاص ، و هو ان يكون الانسان بعيدا عن العوامل و الضغوط المضادة للحق ، و يضرب لنا على هذه الفكرة أمثلة في حياة الانبياء ، كابراهيم و ولده اسماعيل ، و كاسحاق ، و موسى ، و هارون (عليهم السلام) و هكذا من حياة الانبياء الآخرين ، من بني اسرائيل الذين انتخبهم الله بعد ان عرضهم لاصعب الامتحانات و الفتن ، فوجدهم صالحين صادقين مخلصين.

و بالرغم من ان كل نبي تعرض لفتنة خاصة ، الا أنهم يشتركون في بلاء عام واجهوه جميعا بصلابة الايمان و المعرفة بالله ، و تحدي الاوضاع الاجتماعية و السياسية المنحرفة في مجتمعاتهم ، فضغط الاجتماع على الانسان و شعوره الداخلي الذي يسوقه نحو التكيف مع الآخرين ، من أهم و أخطر الضغوط التي يواجهها في الحياة ، و هذا ما جعل بعض العلماء يدعون لعبادة المجتمع ، او ما يسمى بالحتميةالاجتماعية ، و حتى الذين يقولون بالحتمية الطبقية ، أو الاقتصادية ، أو ما اشبه فانهم ليسوا بعيدين عن القول بهذه الحتمية ، و الفارق ان هؤلاء يركزون في نظرياتهم على جانب منها ، بينما يؤكد علماء الاجتماع امثال (دوريكام) على كافة أبعادها ، و نحن لا نسميها حتمية ، بمقدار ما نسميها عصرا و ضغطا من قبل المجتمع على الانسان.

فالمجتمع في بعض الاحيان يعصرك ، و يضغط عليك باتجاه يتناقض مع طاعة الله ، و الاهداف التي نتطلع اليها ، و واجبك تحديه بالايمان و التوكل ، و ان تعرف بان عنوان نبوة الانبياء و المرسلين ، و أبرز اعمالهم هو تحديهم للواقع الاجتماعي الفاسد ، و أن نجاحهم فيهذا التحدي هو سبب ارتقائهم ، و لهذا أيضا نجد القرآن الحكيم يؤكد على هذه الحقيقة في كثير من سوره و آياته.

بينات من الآيات

[106]النبي ابراهيم (ع) جاء لكي ينسف عادة جاهلية كانت شائعة ذلك اليوم وهي ذبح الابناء امام الاصنام تقربا لها ، و ما كانت هذه العادة مقتصرة على فلسطين وحدها ، ففي مصر ايضا كانوا ينتخبون ملكة الجمال من بين بناتهم ليلقوا بها مع بداية الربيع في النهرالذي كانوا يقدسونه لتذهب ضحية عقيدة جاهلية . تقول : بان إله البحار يريد ان يتزوج ، فلابد ان نختار له أجمل بناتنا لكي تهدأ المياه ولا يحدث فيضانا يخرب بيوتنا و يهلك مزارعنا.

و هذه العادات ليست بعيدة عن واقعنا المعاصر ، لانها مهما اختلفت في ظاهرها تلتقي في نقطة مركزية واحدة هي التضحية بالابناء من اجل الاهداف التافهة.

ان الله أمر ابراهيم (ع) بذبح ابنه ثم عوضه بالذبح العظيم ليقضي على هذهالعادة الجاهلية ، و يبدلها بسنة الهية حسنة ، جرت لدى البشرية الى هذا اليوم ، و هي ذبح الانعام في منى عند الحج وفي غيرها ، و حينما بدا لله ان يفدي نبيه بالكبش جعل الحادث يمر بوقائع اعجازية عجيبة ، فقد كانت السكين تلتوي كلما ادناها ابراهيم من رقبة ولده (عليهما السلام) و كانت تفت الصخرة لو ضربها ، و لكنها تعجز عن التأثير في جلد رقبة اسماعيل الرقيق بحدها . و لهذه القصة عبرتان أساسيتان:

الاولى : ان على الانسان التضحية بابنه و بافضل علاقاته من اجل الدين وفي سبيل الله . و الثانية : وان يرفض من جهة اخرى التضحية باولاده من اجل الالهة المزيفة ، حجرا كانت او بشرا كطواغيت اليوم ، الذين يريدون بلوغ مآربهم و شهواتهم الرخيصة على جسر من دماء شباب الامة و افلاذ اكبادها.

ان مقاومة ابراهيم (ع (للانحراف الاجتماعي كان أمرا صعبا ، و صار اعظم صعوبة حينما جعل الله الطريقة لمقاومته هو ذبح اعز الناس عليه و هو ابنه (ع) ، و قد وصف الله هذا الامتحان بقوله:

]إن هذا لهو البلاؤا المبين[

و انما سمي مبينا لأنه يكشف مستوى الايمان ، و يبين حقيقة الانسان.

[107]و بالفعل كشف لنا هذا الامتحان مدى اخلاص النبي ابراهيم و تسليمه لله .هو و ولده الذي فداهما الرب بذبح من عنده تنزل به جبريل الامين.

]و فديناه بذبح عظيم[

و بهذا الذبح سن عليه السلام سنة سار عليها المؤمنون الى اليوم ، فهم يذبحونالهدي بمنى وفي كافة انحاء العالم اقتداء به ، و لعله لذلك سمي عظيما ، و قالوا ان الذبح العظيم هو السبط الشهيد الامام الحسين بن علي)ع) الذي ذبح على النهر عطشانا بكربلاء فداء لدين الله ، و مقاومة للعادات الجاهلية الاموية.

[109 - 108]و كرامة لابراهيم الخليل في الدنيا قبل الآخرة ، جعل الله له ذكرا حسنا عند البشرية باختلاف مذاهبها و عقائدها ، و لخص ربنا هذه الكرامة في كلمة واحدة هي : السلام على ابراهيم.

]و تركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم[

و مما تجدر الاشارة اليه ان الاستحباب الشرعي في السلام على الانبياء و الصالحين يقتضي تقديم الصلاة على محمد و آله (صلوات الله عليهم) ثم يذكر الطرف المراد ذكره . فيقول الذي يريد الصلاة على عيسى : على نبينا و آله و عليه افضل الصلاة و السلام ، إلا نبيالله ابراهيم فان المستحب ذكره اولا ثم الثناء على نبينا وآله ، فتكون جملة القول : (على ابراهيم و على نبينا و آله الصلاة و السلام. (

[110]و لكن هذا الجزاء الذي يحصل عليه الانبياء ليس بسنة خاصة بهم ، انما ضمن العدالة الالهية التي تشمل البشرية كلها ، فلان ابراهيم كان محسنا استحق هذه الكرامة.

]كذلك نجزى المحسنين[

و نستوحي من هذه الآية فكرتين:

الاولى :ان الجزاء الحسن ليس قصرا على الانبياء وحدهم ، انما يلقاه كل محسن في كل زمان و مكان ، و ان الكرامة الحقيقية لا ينالها الانسان إلا بالكفاءة و السعي (و الاحسان) وان جهود المؤمن لن تضيع ، فربنا يحفظ لكل عمله و يجازيه عليه انفي حياته أو بعد الوفاة ، و ما هذا الجزاء الدنيوي الا دليل على الجزاء الاعظم في الآخرة.

الثانية : إن الاحسان الى الناس يجازيه الرب بالولاية عليهم ، فأحق الناس بالناس احبهم لهم و اكثرهم احسانا إليهم .

[111]و ربنا عز وجل يجازي من كان محسنا على احسانه و يقدره ، حتى ولو لم يكن مؤمنا ، لان الاحسان بذاته محمود عنده ، و قد قال سبحانه : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) فكيف اذا كان المحسن مؤمنا ؟ بالطبع سوف يجازى اكثر في الدنيا و الآخرة ، لان احسانه للناس ليس من أجل سمعة

طيبة أو جزاء مادي عاجل ، بل يزيد في رصيده الاخروي ، فهذا ابراهيم (ع) و قد سن الأضحية لله فتنامى ثوابه بقدر ما افتدى به الآخرون ، اذن فالمؤمن يحصل على الجزاء بمقتضى سنتين ، سنة الاحسان ، و سنة الايمان ، لهذا يؤكد الله على احسان نبيه ابراهيم (ع) ثم يعود للتأكيد على ايمانه فيقول:

]إنه من عبادنا المؤمنين[

فجزاؤه مضاعف اذن.

[112]يزعم البعض ان الذي يخالف المجتمع الجاهلي ، سوف يعزل و يتجاوزه التيار ثم يكون ابتر ولا يبقى له اثر ، و لكن العكس تماما نجده في تأريخ الانبياء . فبالرغم من مخالفتهم جموع الكافرين فان الله سبحانه أهلك اعداءهم ، و بارك في ذريتهم ، و نشر ثناءهمعلى كل لسان و في كل زمن.

فهذا ابراهيم (ع) يحنف عن قومه لوحده حتى يكون لوحده امة قانتا لله ، و لكن انظر الى العاقبة فاين اولئك الذين خالفوه؟ اما هو فهذا امتداده المبارك في ذريتهو تابعيه.

]و بشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين[

فصلاح الوالدين ينعكس على الاجيال التي تنسل منهما ، عبر طائفة من السنن الالهية كالوراثة ، و التربية ، وتأييدات ربانية.

[113]ثم بارك الله لابراهيم ولاسحاق.

]و باركنا عليه و على إسحاق[

فالعرب من ابراهيم و هم اولاد اسماعيل ، و بنو اسرائيل من ولده اسحاق ، فهو ليس أب الانبياء و حسب انما هو أب لشعبين عظيمين ايضا ، ثم يؤكد ربنا الى جانب ذكره البركة التي اسبغها على ابراهيم و ولده اسحاق ، أن ذلك ليس مبررا لمن اراد من ولدهما ان يضفي علىنفسه صبغة القداسة ، فيدعي الافضلية لا لشيء الا أنه ينسل منهما ، لان قيمة الانسان الحقيقية تنبعث من عمله هو لا من حسبه و نسبه.

]و من ذريتهما محسن[

لانه احسن . و ليس لانه ينتمي للمحسنين ، كما يوجد من بينهم المنحرفون الظالمون.

]و ظالم لنفسه مبين[

[115 - 114]و يضرب لنا القرآن مثلا من واقع المحسنين من هذه الذرية المباركة ، فيقول:

]و لقد منا على موسى و هارون[

بالنبوة و هما من ذرية اسحاق.

]و نجيناهما وقومهما من الكرب العظيم[

و اذا كان الغرق صورة من الكرب لانه من غضب الله ، فان ظلم فرعون وجنوده صورة اخرى لا تقل فظاعة عنها.

]و نصرناهم[

[116]اضافة الى النجاة من الكرب على فرعون و جنوده.

]فكانوا هم الغالبين[

بلى .قد يتسلط الطغاة على البلاد ، و يفشل المؤمنون في كثير من المحاولات للاطاحة بهم ، و يقدمون التضحيات ، و لكن العاقبة تكون لهم ، و اذا كانت للباطل جولة فان للحق دولة . و مهما تكن الظروف معاكسة ، و الظاهر يوحي بغلبة الباطل إلا ان الحق واهله هم المنصورون.

[117]ولكي يحافظ موسى و هارون على مكتسبات النصر ، ويديرون شؤون بني اسرائيل انزل الله عليهما التوراة منهجا للحياة.

]و ءاتيناهما الكتاب المستبين[

و من صفات الرسالات الالهية أنها واضحة ، كالقرآن الذي يصفه الله بقوله " : و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " (١) و هذه الفكرة تنسف اساس المعقدينالذين اتخذوا منهج التكلف لآيات الله ، بتفسيرها تفسيرات معقدة ، أو من خلال الأشعار الجاهلية و أحاديث و اسباب النزول الضعيفة في سندها غالبا ، بل إن البعض منهم حاول تفسير القرآن من خلال الافكار الدخيلة ، حتى قال قائل منهم لابد لمن اراد تفسير القرآن ان يقرأ الفكر الماركسي اولا.

[118]هنا نعمتان متدرجتان تتواليان على المؤمنين احداهما توفير فرصة الهداية بانزال الوحي ، الثانية هداية الله لهم بعد تقبلهم للوحي و التزامهم بشرائعه.

و اذا كانت النعمة العامة تعم الناس جميعا اذ ان ربنا يبعث الى كل قرية نذيرا فان النعمة الثانية تخص المؤمنين فقط ، و لذلك خص ربنا موسى و هارون بالهداية قائلا:

]و هديناهما الصراط المستقيم[

[120 - 119]و يوصل الله سياق الحديث عن موسى و هارون بالسياق العام للسورة ، الذي يحدثنا عن جزاء عباد الله المخلصين و المحسنين ، و ذلك من خلال الاشارة الى جزائهما عليهما السلام.

]و تركنا عليهما في الاخرين *سلام على موسى و هارون]ولا يمكن لاحد أن ينكر دور الارادة الالهية في تخليد ذكر هؤلاء الانبياء الذين مر على وفاتهم آلاف السنين ، فلولا ذكرهم الذي تضمنته رسالات الله ، هل كان احد في هذا العصر يعرف هذه التفاصيل عن حياتهم ؟ و اكبر دليل أننا لا نعرف عن حياة الانبياء الآخرين الذين لم تتعرض لذكرهم الرسالات شيئا مع ان عددهم (١٢٤٠٠٠) نبيا و رسولا و يؤكد القرآن في سورة هود ذلك بعد ان يذكر قصة نبي الله نوح و يقول:

"تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين " (١) ان احداث التاريخ كانت تتلاشى من ذاكرة البشر و كل جيل يأتي ينسى جزء منها حتى تنتهي تماما ، بالذات و ان البشرية و لفترة ليست بالبعيدة لم تكن قد وصلت الى التقدم العلمي الذي يمكنها من المحافظة على كل ذلك ، بالاضافة الى أن كثيرا من الاقوام كانوا يتعرضون للانقراض و الهلاك الجماعي فيموت معهم تاريخهم ، و علم الآثار القائم اليوم يطلع علينا كل حين بمعلومات عن اقوام لم تكن البشرية تعرف عنهم شيئا ، و لكن الله يخلد ذكرى الانبياء العظام بفضله و يترك السلام عليهم يتوالى ليل نهار . و نعود للآية لنتسائل ماذا ترك ربنا على موسى و هارون ؟

اولا :ان الله حافظ على رسالتهما في الحياة ، اذ ابقى مشعل الهداية الذي تحملا الجهاد به و الدعوة اليه ، يتلقفه الصالحون من ورثتهما على طول التأريخ دون ان يسقط يوما.

ثانيا : جعل ذكرهما الحسن يطبق الخافقين ولا يزال الى الأبد.

[122 - 121]ولان الله ذكر هذه القصص توضيحا و تأكيدا للحقيقة المحورية في هذه السورة عاد ليؤكدها ، و تلك الحقيقة هي ان العاقبة للمحسنين.

]إنا كذلك نجزى المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين]ولابد ان نلاحظ بان هذه الآية تأتي بعد ذكر مجموعة حقائق من حياة كل نبي فمن حياة نوح (ع) ذكر النجاة ، و من حياة إبراهيم ذكر الذرية الصالحة ، و من حياة موسى ذكر النصر و الهداية ، و اشركهم في الذكر الحسن الذي لخصه في السلام(١) هود ٤٩ .

عليهم ، و معنى ذلك ان جزاء المحسنين لا ينحصر في الذكر الحسن ، بل يشمل كل هذه الامور و ما سيأتي ذكره في القصص الاخرى . و قد يكون تلخيص القرآن لحياة هؤلاء ليس من باب الحصر إنما أراد ان يشير لنا في هذه السورة اشارات مختصرة ، اما التفاصيل فيمكننا التعرف عليها من خلال مراجعتنا للسور الاخرى.

] [123]و إن إلياس لمن المرسلين [

و يبدو انه من انبياء بني اسرائيل ، قيل إنه عاش في منطقة بعلبك بلبنان ، و انما سميت بذلك لان اهلها في ذلك الزمان كانوا يعبدون إلها لهم يسمى بعلا .يقول صاحب المنجد : (بعل : اسم أطلق على عدة آلهة سامية اشهرها معبود فينيقي ، هو إله الخصب و التناسل) و بعلبك محافظة البقاع يدل اسمها الحالي على اسمها الفينيقي : بعل البقاع (١)[١٢٤] و يلخص القرآن رسالة الياس في ثلاثة امور هي:

الاول : الدعوة الى تقوى الله عز وجل.

]إذ قال لقومه ألا تتقون[

و هذه دعوة جميع الانبياء لاقوامهم ، لان مشكلة الانسان الحقيقية هي ابتعاده عن ربه و ضعف ايمانه به ، ولا سبيل للبشرية الى معالجة انحرافاتها و مشاكلها إلا بالايمان و التقوى.

[125]الثاني : و لكي يتصل الانسان بربه و يكون متقيا ، يجب ان يتغلب على مشكلة الشرك لهذا نجد الياس في الوقت الذي يدعو قومه لتقوى الله يأمرهم بنبذ(١) المنجد كتاب الاعلام / ص ١٣٦ / الطبعة ٢٦.

الآلهة المزيفة.

]اتدعون بعلا و تذرون أحسن الخالقين[

و الخلق هنا ليس بمعنى الانشاء من لا شيء ، انما يعني الصناعة و التغيير التي يستطيع الانسان على شيء منها ، و لكن الله افضل الخالقين ، فهو الاولى بالعبادة و يبدو ان ذكر صفة أحسن الخالقين هنا لان القوم كانوا ينسبون النسل للإلههم بعل ، فامرهم النبي الياس بتقوى الله من ذلك و رفض هذه الخرافات التي تقف دون تقدمهم و تكاملهم.

[126]ثالثا : محاربة الاتباع الخاطىء للآباء .. و يبدو ان التقاليد كانت عميقة الجذور في مجتمع الياس (ع) و السبب أن الله اذ لخص دعوته اشار الى الاباء مما يدل على نوع المعاناة التي كان يعيشها.

]الله ربكم و رب ءابائكم الأولين [

اراد من ذلك بيان دور الاباء في الضغط على الابناء ليشركوا بالله او يكفروا به ، و هل يغير الواقع و الحقيقة

كفر الناس ؟ كلا .. فالله هو رب الاباء و ان كفروا أو اشركوا به و يجب على الابناء ان يتجاوزوا خطأهم ، و يتركوا هذه الانداد و يتوجهوا الى ربهم الحق.

[127]ثم يعرض لنا السياق النتيجة التي صار اليها قوم الياس (ع) ، فقد كذبوا رسولهم وأصروا على انحرافهم.

]فكذبوه فإنهم لمحضرون[

امام العدالة الالهية لينالوا جزاءهم المتمثل في عذاب الله.

[128]و تستثني الآيات من العذاب القوم المخلصين ، و هم الذين تمحضوا في الطاعة.

]إلا عباد الله المخلصين[

أما الذين يلحق بايمانهم بعض الشك ، و بأعمالهم بعض السلوكيات المنحرفة فانهم يحضرون للحساب والجزاء كلا بنسبة شكه و انحرافه.

[132 -131 - 130 - 129]كان ذلك جزاء المكذبين ، اما الرسول الذي صدق برسالته ، و بلغها لهم ، و تحمل من اجلها العناء و التضحيات ، فان جزاءه على الله الكرامة.

]و تركنا عليه في الآخرين * سلام على إل ياسين *إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين]و قد تجسد احسان الياس في رسالته التي حملها لقومه ، و اذا كانوا قد قابلوه بالرد و التكذيب ، فان الله لا يضيع لديه عمل محسن أبدا ، و تأكيد القرآن على صفة الايمان في النماذج التي يضربها من حياة الانبياء دون صفة النبوة والرسالة ، حتى لا يتصور متصور انهاذا صار محسنا فقد لا يجني ثمرة لاحسانه باعتباره ليس بنبي ، فالعبودية و الايمان صفتان ممكنتان لكل شخص اذا اراد و سعى.

[133]و يسوق لنا القرآن مثلا آخر على نجاة المخلصين من حياة النبي لوط (ع) و هومن اهل بابل بعثه الله في غير قومه.

]و إن لوطا لمن المرسلين[

وقد جاء ليعالج الوضع الفاسد الذي يعيشه قومه ، و الذي من ابرز مظاهره٢٧٨

الفساد الخلقي ، و ذلك برسالة ربه ، لكنهم رفضوه و رفضوا رسالته فكان مصيرهم كسائر الاقوام الذين يكذبون الانبياء ان دمرهم الله.

[136 - 135 - 134]و مع ان حياة لوط (ع) تشتمل على الكثير من الدروس و العبر ، إلا ان القرآن في هذه السورة يدعونا للتفكير في لحظة نجاته و من آمن معه من أهله ، و دمار الآخرين الذين كذبوا به . لان هذا الجانب يلتقي مع السياق العام لهذه الآيات.

]إذ نجيناه و أهله أجمعين * إلا عجوزا في الغابرين]و قد قيل انها زوجته ، و قصة هلاكها هي : ان الله امر لوطا و من معه حينما يخرجون من القرى المؤتفكة ان لا يلتفتوا وراءهم ، لان ذلك يعبر عن الشفقة على المهلكين ، و التشبث بالمال و حب الوطن من دون الله ، فالتفتت زوجته و أهلكت معهم.

]ثم دمرنا الأخرين[

بان قلب جبرئيل (ع) عليهم الارض عاليها سافلها و اهلكهم جميعا.

[138 - 137]و اذا كان هؤلاء الاقوام قد انقرضوا بأجسامهم و حضاراتهم فقد بقيت منهم العبرة و السعيد

من اتعظ بتجارب غيره.

]و إنكم لتمرون عليهم مصبحين * و باليل أفلا تعقلون]اكان هذا المرور على بقايا الآثار ، أو من خلال آيات القرآن الحكيم ، فقد قالابو الربيع الشامي :سألت ابا عبد الله (الى قوله) فقلت : فقوله عز وجل " و انكم لتمرون عليهم مصبحين " قال:

"تمرون عليهم في القرآن اذا قرأتم القرآن ، فقرأ ما قص الله عليكم من خبرهم " (١)و مشكلة الناس الذين يكررون تجارب الآخرين الخاطئة فيصيبهم ما اصابهم ، ليس قلة التجارب و العبر ، انما قلة الاعتبار ، فالآثار و القصص التاريخية كفيلة باستثارة عقل الانسان و اعطائه البصيرة في الحياة ، و لكنه يعطل عقله عن التفكير فيها ، و في بعض النصوصالتأريخية ان العرب كانوا يمرون بقوافلهم اثناء تجارتهم الى الشام على قرى لوط إلا انهم لم يستفيدوا من هذه الموعظة التي لا تحتاج إلا الى القليل من التفكير ليقرأها الانسان.

و هذه التذكرة من القرآن الحكيم بضرورة الاعتبار من التأريخ ، تؤكدها الايات عند ذكرها لقصص الماضين ، و ذلك لكي يعلم من يقرأ القرآن ، بان هذه القصص ليست للتسلية و جمع المعلومات انما هي للهداية و الموعظة و الاعتبار.

(1)نور الثقلين / ٤ / ص ٤٣٢

سبحان الله عما يصفون

هدى من الآيات

بعث الله نبيه يونس بن متى الى مدينة نينوى بالموصل ، فبلغ الرسالة و ارشدهم للحق بعد ان بين لهم انحرافهم ، و لكنهم لم يستمعوا الى دعوته ، فما صابرهم كثيرا و دعى عليهم فغضب الله عز وجل عليه ، لكن حساب الخطأ على الانبياء يكون بمستوى المسؤولية التي يتحملها النبي . فالرب يعتبر تركهم الأولى معصية كما اسمى تناول آدم من الشجرة عصيانا ، بل في قصة احد الانبياء الذي حاربه قومه فاختفى في جذع شجرة ، و لما دلهم الشيطان عليه قطعوا جذعها بالمنشار ، فاصابه من حدها فقال " آه " ـ فأوحى الله اليه إن عدتلها مرة اخرى محوت اسمك من ديوان الانبياء ، ولا ريب ان لحظة الوقوع في الخطأ لرفع الله عنهم العصمة ليتصرفوا بطبيعتهم البشرية المجردة ، و لعله لحكمة معينة هي اظهر بشريتهم (ع. (

و هكذا غضب الله على نبيه يونس بسبب تركه للاولى ، و سرعة الدعاء على قومه ، الامر الذي جعله مستحقا عند الله الاعتقال ، فسجنه في بطن الحوت فيظلمات ثلاث ، في قصة خلاصتها أنه وصل الى البحر هاربا من قومه ، و ركب سفينة مليئة بالمسافرين ، و في عرض البحر حيث طغى ماؤه و هاج موجه ، و تخوف الجميع من غرقها ، فقال ربان السفينة : ان عبدا آبقا موجودا في سفينتنا ، و كانت عادتهم الاقتراع في مثل هذه الظروف ومن يظهر اسمه في القرعة هو الذي يلقى في البحر ليخف وزن السفينة ، و كانت القرعة و لثلاث مرات تتجه الى يونس بن متى فرموه في عرض البحر ، فتلقفه الحوت الذي ابتلعه و بقي في بطنه.

و لم ينقذ يونس)ع) من هذا المأزق الا بتضرعه لله و اعترافه بخطئه " سبحانك اني كنت من الظالمين " (١) ، اذ أمر الله الحوت ان يقذفه على الساحل و خرج من بطنه و قد اهترأ جلده ، فأنبت الله له شجرة اليقطين ذات الاوراق الكبيرة ، فشوفي و خرج ليمارسمسؤولية التبليغ من جديد.

و تهدينا هذه القصة كما القصص الماضية ، الى الحقيقة التي سبق وان ذكر بها السياق القرآني ، و هي ان العباد المخلصين بشر و ليسوا اولادا لله سبحانه ، ولا آلهة ، و ذلك خلافا لما يصفهم به المشركون ، كما انهم لم يوصفوا بتلك الصفات المثلى الا بما سعوا واحسنوا ، و قد اعترضتهم - كما يحصل ذلك لاي انسان آخر - الصعاب و المشاكل ، ولو كانوا كما يصفهم المشركون لتجاوزوها ، و الحال انهم لولا رحمة الله لكانوا من الهالكين.

بلى ان ربنا سبحانه ترك عليهم سلاما دائما على كل لسان لما امتلكوا من صفات جعلتهم أئمة وقادة.

و لعل هذا التأكيد على السلام عليهم لكي يتخذوا قادة ، و لكي يعرف الناس حدود اكرامهم للانبياء فلا يغلوا فيهم حتى مقام الربوبية ، ولا ينزلونهم الى مستوى(١) الانبياء / ٨٧.

العلماء و المفكرين ، و اخيرا لكي يفسر القرآن سبب اكرام الناس للانبياء فلا يحرفه الضالون عن سبيل التوحيد.

بينات من الآيات

] [140 - 139]و إن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون[

والآبق هو الهارب ، و المشحون الممتلىء.

[141]و لما أبحرت السفينة و خاف اهلها من الغرق اقترحوا ان يقترعوا ، ليلقوا واحدا من ركابها في البحر تخفيفا لوزنها.

]فساهم[

النبي يونس بعد ان وافقهم.

]فكان من المدحضين[

و المدحض هو الذي لاحظ له ، و قد خسر القرعة ثلاث مرات.

[142]فلما كان الامر كذلك ألقي في البحر.

]فالتقمه الحوت وهو مليم[

و المليم الذي يأتي من التصرفات ما يستحق عليه اللوم.

[144 - 143]ولكن يونس ادرك خطأه و اعترف به ، و اهتدى الى طريق التوبة و رضى الله وهو الاستغفار و التسبيح - و هكذا يجب علينا نحن حينما نقع فيالمعصية - و بهذا تجاوز النبي (ع) محنته ليخلف للبشرية درسا في معالجة الخطأ . ولو لا أنه اصلح خطأه لأحاط به.

]فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون]و ذلك بان يكون قبره في بطنه .

[145]و لكن الله اخرجه من بطن الحوت بعد توبته.

]فنبذناه بالعراء وهو سقيم[

اي مريض و السقم شدة المرض ، اما العراء فهي الصحراء.

] [146]و انبتنا عليه شجرة من يقطين[

لانه ربما كان يحتاج الى الظل كعلاج الى سقمه ، قال الامام علي (ع: (

"و أمر الله الحوت ان يلفظه فلفظه على ساحل البحر ، وقد ذهب جلده و لحمه ، و انبت الله عليه شجرة من يقطين وهي الدبا ، فاظلته من الشمس ، ثم أمر الشجرة فتنحت عنه و وقعت الشمس عليه فجزع ؟ فأوحى الله اليه : يا يونس لم لم ترحم مائة الف او يزيدون وانتتجزع من تألم ساعة ؟ فقال : يا رب عفوك ، عفوك ، فرد الله عليه بدنه ، و رجع الى قومه و آمنوا به " (١)و يبدو ان الشجرة لم تكن تظله و

حسب ، و انما كان يتداوى بها عن مرضه ، لان ثمر هذه الشجرة - وهو القرع - بارد طبعه كما يقولون ينفع الجسم الملتهب.

(1)نور الثقلين / ج / 4ص ٤٣٦.

[147]و هكذا نهض يونس من مرضه ليمارس عمله الجهادي من جديد بوحي من الله عز وجل ، الذي بعثه ليعيد التجربة مع قومه.

]و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون[

و لم يحدد القرآن عدد هؤلاء بالضبط ، لان المجموعة البشرية المتواجدة في منطقة ما ، تزيد و تنقص لعوامل مختلفة من بينها الولادة و الموت ، و من بينها الهجرة من المجتمع و اليه.

[148]و حينما عاد يونس الى قومه هذه المرة نجح في تغييرهم.

]فامنوا[

و صاروا مثلا للامة التي استفادت من تجربتها السلبية في ارتقائها و تقدمها ، فقد حدد قوم يونس و هم يرون العذاب على الابواب المسؤول عن هذا الواقع ، فلم يبرروا لانفسهم ولم يعاندوا ، انما تحملوا المسؤولية وتواضعوا للحق فرفعهم الله و ارسل عليهم الخير و البركة . و ليس بالضرورة ان يكون العذاب غماما ولا خسفا من غضب الله ، فقد يكون هو التمزق و الفقر و التخلف و المشاكل النفسية و الاجتماعية ، و كلها موجودة الآن في واقع الامة الاسلامية ، و واجبها ان تغير واقعها ليغير الله ما هي عليه من التخلف الى التحضر والازدهار . ولا يكون ذلك الا بالايمان ، فهذه امة يونس يحكي الله عنها اذ آمنت قائلا:

]فمتعناهم الى حين[

فلم تبق هذه المتعة و البركة طويلا ، لانهم لم يحافظوا على عاملها الأساسي وهو الايمان فهم ظلوا في متعتهم الى حين وجود الايمان بينهم.

[149]و بعد ان يختم ربنا قصص الانبياء التي أكد فيها على عبوديتهم له نفيا لادعاء المشركين بانهم آلهة ، و ذلك من خلال الآية الكريمة : " انه من عبادنا المؤمنين " ، التي تمثل عاملا مشتركا بين القصص كلها ، ينفي من الجانب الآخر مجموعة من التصورات التي اختلقها المشركون حول الملائكة و الجن ، و أهمها زعمهم بانها نسب لله عز وجل كوسيلة لتأليهها . و نجد في السياق امرا من الله الى رسوله بأستفتاء المشركين في ذلك.

]فاستفتهم ألربك البنات و لهم البنون[

و الاستفتاء هو اخذ الفتيا و الرأي .

[150]و لو سألهم الرسول لقالوا بلى ، و لكن على اي دليل يستند قولهم ، هل شاهدوا خلق الملائكة ؟

]أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون[

الذي يرى شيئا بعينه يمكنه ان يدعى صدق ما رآه ، و يكون ادعاؤه منطقيا ، بينما لم يشهد هؤلاء خلق الملائكة حتى يعرفوا ماهيتها ، و هذه الآية تنسف فكرة الجاهلية من الأساس حول الملائكة ، حيث

تهدينا الى انها مجرد ظن لا دليل عليه.

[152 - 151]و مع ان ظاهر الآيتين الماضيتين حول الملائكة ، انهما تعالجان فكرة انوثة الملائكة ، الا ان هدف القرآن من الحديث هو نسف الاعتقاد بألوهيتها ، ذلك ان بعضا من المشركين تصوروها تولدت من الله فهي آلهة ايضا ، و انما دخل السياق لهذا الموضوع من زاوية الحديث عن طبيعة الملائكة وماهيتها ، ليبين لنا بان تصورات الجاهليين خاطئة ليس في تحديد دور الملائكة و حسب و انما يجهلون حتى ماهيتها ، و كل ما هنالك من افكار لديهم حولها فانها مجرد ظنون لا دليل منطقيعليها.

]ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله و إنهم لكاذبون]ان الاعتقاد بولادةالله الذي نشأ اصلا من اجل الهروب من ثقل المسؤولية ، ولكي يشبع الانسان غروره و كبره و تطلعه الى مقام الربوبية - ان هذا الاعتقاد - بروه ادعياء الحكمة و الفلسفة فوضعوا له نظريات الحلول و الاتحاد ، و وحدة الوجود ، و مهما حاولوا تبريرها فهي افك داخلي في نفوسهم ، و كذب فظيع على ألسنتهم.

ان المشركين يعلمون بكذب دعواهم فاجتمع في هذا الادعاء القبح الفاعلي الى جانب القبح الفعلي.

[153]و يتساءل القرآن من جديد:

]أصطفى البنات على البنين[

[154]ان استصدار هذا الحكم على الله سبحانه ، لا ينطبق مع أبسط قواعد الحكم المنطقية.

]مالكم كيف تحكمون[

[157 - 156 - 155]و الانسان حينما يريد الحكم على قضية ما إما ان يرجع الى ضميره ، أو الى حجة اخرى كالعقل و العلم ، وهؤلاء لا يراجعون ضميرهم بالتذكر ولا يرجعون الى حجة قاطعة اخرى.

]افلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين [

إذا بلغ الانسان حدا - و بالاعتماد على البراهين و الشواهد القاطعة - ان اعتقدحتى ولو بهذه الفكرة الباطلة في واقعها . فانه معذور عند الله ، و لكنه تعالى أبى ان يجعل الحق باطلا لا ريب فيه ، ولا الباطل حقا لا ريب فيه ، و ذلك بما زرع في الانسان من ضمير ، و بما وهبه من عقل ، و انزل عليه من كتب ، و بعث له من رسل ، و جعلها جميعا فرقانا له في الحياة في كل امورها و قضاياها.

]فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين[

اذا كانت مزاعمكم هذه تعتمد على دليل فإين هو الدليل ؟؟

[158]وفي نهاية الدرس يعرج القرآن على فكرة باطلة اخرى لينسفها نسفا و هي تأليه الجن.

]و جعلوا بينه و بين الجنة نسبا[

فعبدوا الجن ، و عبدوا السحرة و الكهنة التي تدعي الاتصال بها ، أو تتصل بها فعلا.

]و لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون[

ولو كانت الجن آلهة كما يتصور المشركون ، لما أحضروا للعذاب كسائر العصاة من الخلائق و ذلك يدل بوضوح على انهم مخلوقون و ليسوا بآلهة . و ذكر الله لحضور الجنة للعذاب يضرب افكار المشركين في الصميم ، ذلك ان للشرك بصورة عامة جذر مشترك ، هو محاولة التخلص منالمسؤولية ، عبر الاعتقاد باشياء و قوى أنها تخلــص الانسان من عذاب الله ، و اذا كانت الجنة لا تخلص نفسها فكيف تنقذ البشر.

[159]و تعالى الله و تنزه عن هذه الافكار المنحرفة.

]سبحان الله عما يصفون[

[160]وفي الوقت الذي ينسف القرآن فكرة تأليه الجن ، ينسف من جانب الاعتقاد السائد لدى البعض من ان الجن يذهبون الى النار جميعا ، و ذلك حينما يستثنى من الحضور في العذاب المؤمنين المخلصين منهم.

]إلا عباد الله المخلصين[

كما تتضمن الآية تأكيد في كلمتها الاولى على عبودية الجن لا ألوهيتهم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون
هدى من الآيات
فسجد الملائكة كلهم أجمعون
هدى من الآيات

في الدرس الأخير من السورة و كعادة القرآن يؤكد السياق على الموضوع الاساسي فيها ن و ذلك ضمن بيان ما جرى بين رب العالمين و الملائكة ثم بينه و بين إبليس ، و مغزاه الكشف عن طبيعة الانسان ، و الاسباب الحقيقية التي ترديه ، فاذا به وقد كرمه الله على كثير من الخلق ينتهي إلى أسوأ مصير.

في بداية السورة أكد ربنا على دور العزة و الشقاق في ضلال الكفار ، حيث يغترون بما لديهم من قوة ظاهرية ، فيستكبرون على الحق و يشقون عصا الطاعة لله - عز وجل - بينما نجد في مقابلهم أنبياء الله (عليهم السلام) فهم بالرغم من الدرجة المعنوية التي اعطيت لهم (النبوة) وما اوتي بعضهم من القوة و الملك ، إلا انهم في أعلى درجات التوبة و الانابة الى ربهم.

و في نهاية هذه السورة المباركة يبين الله لنا صورة أخرى لهذه المقابلة جرت فيالملأ الأعلى ، فالعزة بالباطل عند إبليس عليه اللعنة ، الذي اعتز بعنصره ، و رفض الخضوع لله في قضية آدم من بين كل الملائكة ، و برر ذلك بأنه وهو المخلوق من نار السموم أفضل من آدم الطيني فكيف يسجد له ؟ و لكن من قال : ان الافضلية للطين ؟ ثم لو افترضنا ذلك فهل هذا مبرر لمعصية رب العالمين و اختيار العاقبة السوىء ؟ بالطبع كلا .. و لكن ابليس اختار العزة بالباطل متمثلة في العنصرية ، ثم راح يغوي الانسان و يضله ليكون معه في غضب الله و ناره.

و في المشهد الآخر من الصورة نجد ملائكة الله على جلالة قدرهم يخرون ساجدين لآدم تعبدا لله و طاعة و تسليما ، و يوصل القرآن بينهم و بين عباد الله المخلصين الذين لم يسمحوا لابليس أن يغويهم.

ولان سورة " ص " تتشابه و سورة " الصافات " في نفي الوهية الملائكة و الانبياء ، فانها تنتهي ببيان سجود الملائكة لآدم (ع) الذي خلق من طين و الذي يتعرض لإغواء ابليس ، و كيف يكون إلها من يسجد لغيره أو يتعرض لإغواء الشيطان ؟!

بينات من الآيات
سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق (ع) انه قال:

"من قرأ سورة الزمر ، استخفاها من لسانه ، أعطاه الله من شرف الدنيا و الآخرة ، و أعزه الله بلا مال ولا عشيرة ، حتى يهابه من يراه ، و حرم جسده على النار ، و بنى له في الجنة ألف مدينة ، في كل مدينة ألف قصر ، في كل قصر مائة حوراء ، و له مع هذا عينان تجريان نضاختان ، و عينـان مدهامتان ، و حور مقصورات في الخيام ، و ذواتا أفنان ، و من كل فاكهة زوجان "(نور الثقلين / ج ١ / ص ٤٧٤(

و روي عن النبي (ص) انه قال:

"من قرأ هذه السورة لم يبق نبي ولا صديق إلا صلوا و استغفروا له ، و من كتبها و علقها عليه أو تركها في فراشه ، كل من دخل عليه و خرج أثنى عليه بخير ، و شكره ، ولا يزالون على شكره ، مقيمين ابدا تعطفا من الله عز وجل)"تفسير البرهان / ج ٤ / ص ٦٧(

الاطار العام

من الناس من ينبهر بتفوق الأنبياء و الأولياء على غيرهم بالعزم و التقوى و العلم و الإجتهـاد ، فيزعم أنهم أبناء الله فتهون في عينه الذنوب اعتمادا على شفاعتهم.

و تتصدى سورة الزمر لهذه العقيدة الفاسدة لتكتمل صورة التوحيد النقي لدينا ، بعد أن تصدت سورة الصافات للعقيدة الفاسدة التي زعمت الملائكة أبناء الله ، و سورة (ص) لآلهة السلطة و الثروة المزيفين .

و لأن محور سائر العقائد الفاسدة محاولة الهروب من المسؤوليات فإن هذه السورة تعالج ذلك بحجج تترى ، تتخللها صعقات شديدة تهز أعماق الضمير.

ألا لله الدين الخالص

هدى من الآيات

بعد أن يوجه القرآن أنظارنا الى نفسه ، و أنه تنزيل الرب العزيز الحكيم ، ينعطف السياق الى الموضوع الرئيسي لهذه السورة.

)و الدرس الأول يشير عادة الى أهم موضوعات السورة) ألا وهو نفي شراكة الأولياء لرب العزة، و ضرورة إخلاص العبودية لله الذي له الدين الخالص.

و يحتج عليهم أولا : باختلافهم الذي يحكم فيه الرب يوم القيامة ، و ثانيا : بأن الله لا يهديهم لأنهم قد كذبوا على الله و كفروا بأنعمه ، و ثالثا : بإن الله و ليسوا هم الذي يختار ولدا لو أراد أن يتخذ لنفسه ولدا .

و يختم الحديث بتقديس الله عما ينسب اليه المشركون ، لأنه الواحد و دليل وحدته قاهريته لكل شيء و شخص.

بينات من الآيات

] [1]تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم[

توحي كلمة التنزيل بنزول القرآن على مراحل ، بينما توحي كلمة الإنزال في الآية التالية بنزوله جملة واحدة ، ولا تناقض في ذلك لأن القرآن نزل مرتين : مرة واحدة في ليلة القدر ، و مرة بصورة منسجمة انسجاما مع الحوادث و الظروف المتغيرة ليثبت به فؤاد الرسول ويصوغ شخصية الامة و هو من العزيز الحكيم ، الذي بعزته فرض القرآن ، قال تعالى : " إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد " (١) و بحكمته جعله قويما ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

] [2][إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق[

الحق هو وسيلة الكتاب و هدفه ، و القرآن ينزل بالحق أي إنه يكشف لنا تلك السنن و القيم و الأنظمة الجارية في الخليقة كما انه يشرع التكاليف الحق ، و فيما يأتي من آيات نعرف أن التذكرة بالحق في هذه السورة تهدف فيما تهدف بيان أن المسؤولية حق ، و أنه لا يجازى البشر إلا بما عمله خيرا أو شرا.

]فاعبد الله مخلصا له الدين[

أي اجعل عبادتك عبادة واقعية و ليست عبادة نظرية.

ماهو الدين ؟

الدين هو السيادة القانونية على المجتمع ، التي يتقبلها الناس طائعين غير مكرهين ، و اخلاص الدين لله هو جعله المصدر الوحيد للسيادة و التشريع.

(1)القصص / ٨٥.

[3]و لكن لماذا يجب أن نجعل كتاب الله هو المصدر الوحيد للتشريع ؟

بالاضافة الى انه لا يجوز أن نشرع من أهوائنا ، أو حسب الضغوط النفسية والاجتماعية ، فإن الدين الخالص هو لله وحده.

]ألا لله الدين الخالص[

فلله السيادة و الحاكمية المطلقة على الخلق ، فيجب أن تكون العبادة له وحده.

إن الله هو الذي يهيمن على الكون ، ويجري بقوته الأنظمة و القوانين بصورة خارقة ، ولا أحد يشاركه في ذلك لأنه لا يمارس شيئا " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. "

لماذا إذا يشرك البعض بالله ، هل يعتقدون بأن لله شريكا في الأمر ؟ كلا .. هؤلاء يشركون بالله لأنهم يعتقدون بأن الشركاء سبل إلى الله.

]و الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى]النفي و الاستثناء دليل الحصر ، و إذا كان هدف هؤلاء الوصول إليه فلماذا يختارون طريقا لم يأمر به ؟!

و نستوحي من جملة " اتخذوا من دونه " انهم هم الذين صنعوا الآلهة و اضفوا عليها طابع التقديس دون أن تكون لها قدرة مطلقة عليهم أو أن يامر الله سبحانه بعبادتها.

و نستوحي من كلمة " اولياء "انهم أحبوهم واتبعوهم و تقربوا إليهم.

و الضمير في كلمة " نعبدهم " يوحي بأن الأولياء عقلاء ، بينما نجد البعض منهم يعبد الأصنام التي لا عقل لها . لماذا ؟ ربما لأن تلك الأصنام كانت أيضا تجسيدا لقوى عاقلة - في زعمهم - كالملائكة و الأنبياء أو الأولياء الصالحين ، و هذا يظهر من الحديث التالي:

"أقبل رسول الله (ص) على مشركي العرب فقال : و أنتم فلم عبدتم الأصنام من دون الله ؟ فقالوا : نتقرب بذلك الى الله تعالى.

فقال لهم : أو هي سامعة مطيعة لربها عابدة له حتى تتقربوا بتعظيمها الى الله ؟ قالوا : لا.

قال : فأنتم الذين نحتموها بأيديكم ؟ قالوا : نعم.

قال :فلأن تعبدكم هي لو كان يجوز منها العبادة أحرى من أن تعبدوها ، إذا لم يكن أمركم بتعظيمها من هو العارف بمصالحكم و عواقبكم و الحكيم فيما يكلفكم .

قال : فلما قال رسول الله (ص) هذا القول اختلفوا فقال بعضهم : إن الله قد حل في هياكل رجال كانوا على هذه الصورة فصورنا هذه الصور نعظمها لتعظيمنا تلك الصور التي حل فيها ربنا.

و قال آخرون منهم : إن هذه صور أقوام سلفوا كانوا مطيعين لله قبلنا فمثلنا صورهم و عبدناها تعظيما لله .

و قال آخرون منهم : إن الله لما خلق آدم و أمر الملائكة بالسجود له كنا نحن أحق بالسجود لآدم من الملائكة ، ففاتنا ذلك فصورنا صورته فسجدنا لها تقربا الالله كما تقربت الملائكة بالسجود لآدم الى الله تعالى " (١. (

]إن الله يحكم بينهم في ماهم فيه يختلفون[

قالوا :إن ذلك تهديد مبطن لأولئك القوم حيث أنهم سوف يسألون عن أفعالهم و أقوالهم و يحاسبون عليها حسابا عسيرا ، و لا يجوز لهم - إذا - الإسترسال في نسبة الأولياء الى الله و اعتبارهم شفعاء من دون إذنه سبحانه.

و لعل الآية تشير الى ما اشتهر بين الأمم من تقديس العظماء و نسبتهم الى رب العزة ، كالإعتقاد بأن هذا الملك أو ذاك السلطان هو ظل الله في الأرض من دون الرجوع الى القيم الإلهية ، و المقاييس الرسالية ، بينما ليس كل من أوتي فضلا يصير ولي الله بل الذي يعبدالله حقا و يتبع رسله صدقا.

و نتساءل : ماهي الحكمة في بيان هذه الحقيقة هنا ؟

إن الناس يزعمون انهم لو نسبوا الى الله أمرا كذبا و جب على الله ردعهم بصورة غيبية ، كأن ينزل عليهم صاعقة أو لا أقل ملكا ينذرهم ، و إذ لم يفعل مثل ذلك فهم على حق ، و لعله لذلك يؤكد ربنا أنه لا يهدي الكذبة و الدجالين و الذين يكفرون بنعمه و من أبرزها نعمة الرسالات التي أنزلها بمنه ، فليظلوا في ضلالتهم حتى يذوقوا الجحيم جزاء كذبهم و كفرهم بأنعم ربهم.

و هكذا بين ربنا أولا : أن أهواءهم بعيدة عن الحق الذي عند الله حيث يحكم بينهم يوم القيامة ، و بين ثانيا : أنه لا يهديهم فهم المسؤولون عن ضلالتهم بكذبهم و كفرهم.

(1)الاحتجاج للطبرسي / ص ٢٦.

و لقد اخترعت أهواء الناس أفكارا باطلة لتوجيه هذه العقائد ، فقالوا بنظرية الفيض و نظرية الحلول و الغنوص ، لتبرير تقديسهم لبعض العناصر و تأليههم لبعض الناس ، قالوا بأن الله - سبحانه و تعالى عما يشركون - كالشمس تفيض منها الأشعة ، و كالبحر تتصاعد منه السحب ، أو الينبوع تجري منه الروافد ، أو أنه سبحانه يتنزل الى مستوى خلقه فيحل في أوليائه حلولا حتى يقول أحدهم في إحدى شطحاته الكفرية : ليس في جبتي سوى الله.

]إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار [

[4]و يسفه الله أحلامهم و يؤكد بانه لا و لن يتخذ ولدا ، و حتى لو اتخذ فإنه هو الذي يصطفيه اصطفاء.

]لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء]و نستوحي من الآية الحقائق التالية :

أولا :إن اتخاذ الولد لو تم (و هو لا يتم) فليس عبر أولئك الكذبة ، بل الله وحده صاحب هذا الحق ، إنه لو تم يكون ولده و ليس ولدهم ، فهو يختاره دونهم ، ولا يحق لأي كافر أن يقول : فلان إبن الله و أقرب الناس اليه ، من دون سلطان له على ذلك.

ثانيا : إنه لا يتم - لو تم إنجاز الولد - بسبب علاقة نسبية بين الله سبحانه و بين بعض خلقه ، إذ كل شيء مخلوق لله ، ولا تفاضل في أصًل الخلق بين شيء و شيء ، فليس بعض الخلق مارس الله حين أنشأه لغوبا ، بينما خلق بعض الأشياء بيسر و سهولة ، كلا .. ولا هناكمراتب في الخلق كما زعمت الفلاسفة بلا حجة ، انما يكون عبر الإصطفاء.

ثالثا :إن الاصطفاء الإلهي يكون عبر القيم الإلهية لا تفاضل الجوهر إذ أن الأشياء كلها مخلوقات فلا حاجة له الى واحد منها لأنه كان قبل أن يكون أي شيء فكيف يحتاج الى شيء لم يكن من الأزل ، بل كيف يحتاج الى شيء هو في وجوده يحتاج الى خالقه سبحانه ؟!

و إنما استوحينا هذه البصائر بالترتيب من الكلمات الثلاث في الآية " يتخذ " و " اصطفى " و "مما يخلق " .

]سبحانه[

عن نسبة الشريك إليه أو عن اتخاذ الولد حتى من بين خلقه اصطفاء.

]هو الله الواحد[

فلا يتجزأ بالآفاضة ولا بالتنزل ولا بالحلول ، ولا يتجلى في الشمس والقمر و النجوم والسهل و الجبل و الشجر والبحر و الأحياء .. كما ادعاه الضالون من أنصار و حدة الوجود.

"قام أعرابي الى الإمام أمير المؤمنين في بحر معركة الجمل الطاحنة و قال له : يا أمير المؤمنين : أتقول : أن الله واحد ؟

فحمل الناس عليه و قالوا : يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب ؟

فقال أمير المؤمنين : دعوه فان الذي يريد الإعرابي هو الذي نريده من القوم ، (أي إننا نخوض الحرب من أجل بيان هذه البصائر. (

ثم قال : يا أعرابي إن القول في الله واحد على أربعة أقسام : فوجهان منها يجوزان على الله و وجهان يثبتان فيه ، فأما اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل واحد ، يقصد به باب الأعداد فهذا مالا يجوز ، لأن مالا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد الا ترى انه كفر من قال ثالث ثلاثة ؟ ، و قول القائل هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا مالا يجوز ، لأنه تشبيه وجل ربنا عن ذلك.

و أما الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل هو واحد ليس له في الأشياء شبيه ، كذلك ربنا ، و قول القائل : إنه عز وجل أحدي المعنى ، يعني به أنه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم ، كذلك ربنا عز وجل " (١)[القهار[

و لأنه قهار فهو واحد ، إذ لا شيء يتحدى إرادته و يقاوم مشيئته سبحانه.

و كما لا يخضع سبحانه لشيء لا يحتم عليه شخص أمرا ، فما المسيح بن مريم و العزير إلا عبدان مطيعان له يخضعان لأوامره ، ولا يحتمان عليه ، و انه سبحانه قد فرض عليهما عبادته إن لم يكن طوعا فكرها.

و من هنا تتبلور فكرة الشفاعة الحق و هي إن عباد الله المكرمين يدعون الله ليغفر لبعض المذنبين فإن شاء غفر ، و إن شاء عذب ، و قد قال الله في حق بعض المنافقين : " سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدي القوم الفاسقين " (٢) و قال تعالى : " استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بانهم كفروا بالله و رسوله و الله لا يهدي القوم(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٧٥ - ٤٧٦.

(2)المنافقون / ٦.

الفاسقين " (١(

و لكن الرسول واولي الأمر من بعده يملكهم الله الشفاعة في الدنيا و الآخرة ، فيغفر لمن يشاء كيف يشاء ، ويعذب من يشاء كيف يشاء ، و مغفرة الله بواسطة الرسول ممكنة و لكن حسب مقاييس محدودة ، فلا يملك الرسول للمذنبين المصرين ، أو الكفار شيئا ، و يوجز اللهفي آية من الآيات فكرة الشفاعة فيقول " : وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله و لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله و استغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما " (٢)و خطأ تلك الأدعية التي يقولها بعض الطوائف في طوافهم حول الكعبة إذ يقولون) : إغفر إغفر إن لم تغفر جزما تغفر) فلا أحد يحتم على الله سبحانه شيئا.

[5]و قد سبق في الآية الثالثة ان فسرنا قوله : " الا لله الدين الخالص " فقلنا بانها تشير الى السنن التي تحكم في الخليقة بتدبير الله و هيمنته و إرادته ، و يوضح الله ذلك بقوله:

]خلق السموات و الارض بالحق[

و يبدو أنه سبحانه بعد نفي العقائد التي يتشبث بها المشركون ، و نفي كون الولد له ، و أنه لا أحد من الشركاء يقربهم اليه أخذ يذكرنا بنفسه ذلك أن معرفة الله حقا كفيلة بنفي العقائد الباطلة و إزالة الأوهام البشرية التي هي وليدة الجهل بالخالق.

و لعل الإشارة إلى " الحق "هنا لبيان أن تمنيات القوم بالشفاعة الباطلة(١) التوبة / ٨٠.

(2)النساء / ٦٤.

سراب ، لأن أساس الخلق هو الحق ، و انه لا أحد يبلغ الثواب و الكمال بالتمني و التظني أو الشفاعة الباطلة بل بالحق و الحق وحده.

و دليل أحدية الرب و قاهريته و انه خلق السموات و الأرض بالحق ما نراه من اختلاف الليل و النهار.

]يكور الليل على النهار و يكور النهار على الليل]و تكوير هذا يتم بزيادته على حساب ذاك و بالعكس ، فالله قد قهر السموات و الأرض بحركتهما الدقيقة التي لا يستطيعان مقاومتها قيد شعرة ، ثم أنهما يجريان بنظام دقيق مما يهدينا الى أنه جعل كل شيء بالحق.

]و سخر الشمس و القمر[

مما يهدينا الى انه القاهر.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق (ع: (

"أنظر الى شروقها على العالم كيف دبر أن يكون ، فإنها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها و منفعتها الى كثير من الجهات ، لأن الجبال و الجدران كانت تحجبها عنها ، فجعلت تطلع في أول النهار من المشرق فتشرق ما قابلها من وجه المغرب ، ثم لا تزال تدور و تغشي جهة بعد جهة حتى تنتهي الى المغرب ، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار ، فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة و الإرب التي قدرت له](1) " كل يجري لأجل مسمى[

(1)بحار الانوار / ج ٣ / ص ١١٣.

و كما أن الله خلق الشمس و القمر ، و سخرهما بقدرته ، كذلك فإن انتهاءهما بيده ، و ربما توصل العلماء البالعمر التقريبي للشمس و القمر بمقدار ما يعطيان من طاقة من النور و الحركة.

]ألا هو العزيز الغفار[

فبعزته أقام النظم في كل شيء ، و ألزم الشمس و القمر و النجوم أفلاكها ، و سخرها لما خلق لها ، و بمغفرته فتح أما عاصيه باب التوبة حتى لا يقنط من رحمته إلا القوم الكافرون.

و صفة العزة تبعث الرهبة بينما صفة المغفرة تبعث الرغبة ، و هما معا ضروريتان لاستقامة النفس البشرية.

و أخطأ من قال - من المتكلمين - أن القول بالمغفرة مخالف للقرآن لأن ذلك يوجب الاغراء بالقبيح ، و هذا مذهب البغداديين المعتزلة ، و مذهب البصريين الذي يقول : إن عذاب الله جائز عقلا ، و ايضا فيلزم عليه ان لا يحصل الغفران بالتوبة ، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر (1)

] [6]خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها[

أي جعل من نفس الإنسان زوجه ، و هذا يدل على تكاملية الذكر و الأنثى.

]و أنزل لكم من الأنعام ثمانية ازواج[

هي الأخرى تتزاوج ، و ثمانية أزواج هي التي ذكرت في سورة الأنعام : " من الضأن اثنين و من المعز اثنين " " ومن الإبل اثنين و من البقر اثنين. "

(1)التفسير الكبير / ج ٢٦ / ص ٢٤٠.

و قد اختلف المفسرون في كلمة "وأنزل " فكيف يمكن أن تنزل الأنعام ، و هذا مجمل ما قالوا:

- 1إن الإنزال بمعنى الإحداث والإنشاء كقوله : " قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم. "

و في الحديث عن أمير المؤمنين (ع (قال:

"فإنزاله ذلك خلقه إياها (1) "

- 2إنه أنزلها بعد أن خلقها في الجنة ، و في الخبر الشاة من دواب الجنة ، و الابل من دواب الجنة.

- 3إنه جعلها نزلا و رزقا ، و الرزق يأتي من السماء.

- 4إن قضاء الله و تقديره و حكمه موصوف بالنزول من السماء ، و إذا عرفنا أن بركات الأرض جميعا - أولا أقل أكثرها - من السماء سواء من أشعة الشمس أو من الماء الذي ينزله الله من السماء ، عرفنا أن هذه التأويلات غير ضرورية ، و الله العالم.

]يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق[

لا أنت ولا زوجك تعلمان ما في الرحم ، و كيف يتكون الجنين ، و ما هي أطوار خلقه ، حتى يصير طفلا ، و لكن الله يخلقك و يصورك هناك.

]في ظلمات ثلاث[

(1)تفسير نور الثقلين / ج ٣ / ص ٤٧٦.

ظلمة البطن ، و ظلمة الرحم ، و ظلمة المشيمة.

]ذلكم الله ربكم له الملك[

إن الله الذي يصورك في الأرحام في ظلمات ثلاث هو المالك الحق و المليك المقتدر احق ان تعبده ، و لأن له الملك وحده فإنه:

]لا إله إلا هو فأنى تصرفون[

إلى أين تتجهون ، و من الذي تعبدون من دونه ؟!

ولا يرضى لعباده الكفر

هدى من الآيات

يتابع السياق القرآني في هذا الدرس الحديث عن الشرك بالله ، و أن الإنسان إذا مسه الضر دعا ربه منيبا إليه دون الأنداد ، و يحتج الرب عليهم بحجة وجدانية بالغة هي أن الأنداد لا يضرون شيئا ولا ينفعون فلماذا الشرك بهم ، وهم ينسون نسيانا عند الضرورات ، ممايدل على أنهم ليسوا شفعاء الى الله كما يزعمون ، و تكاد آيات القرآن جميعا تحدثنا عن التوحيد و نفي الشرك ، و ذلك لأن الشرك ليس لونا واحدا ، بل ألوانا شتى ، إذ الشرك هو الإستسلام لجاذبية المادة بشتى صورها ، فقد تكون المادة أرضا أو شخصا أو خوفا أو طمعا ، لذلك فإن التخلص من الشرك و أغلاله ينبغي أن يكون بالتخلص عن كل جاذبية تجذب الإنسان نحو الأرض ، كي يحلق بعيدا في سماء التوحيد.

من هنا نجد القرآن العظيم يحدثنا في قضية التوحيد عن ضرورة التخلص من الشرك ، وفي كل مرة يحدثنا عن بعض ألوان الشرك ، ثم إن الناس في خضوعهمللمادة مختلفون ، فمنهم من يخضع بكل صراحة ، و منهم من يستخدم سلاح التبرير ، و هكذا كان نسف قواعد التبرير من أبرز أهداف القرآن الحكيم ، و بما أن التبريرات تختلف من قوم لآخر ، بل حتى بين الأفراد أنفسهم الذين ينتمون الى مذهب شركي واحد ، لذا يعالج القرآن الحكيم كل تبرير بصفة مستقلة و مختلفة.

و في هذا الدرس يعرض الله نموذجين من الناس : الكافرين المشركين الذين يجأرون لله بالدعاء حال الشدة و الضر ، و المؤمنين الذين يقنتون لله آناء الليل ساجدين قائمين ، فرقين من الآخرة ، و يبعدون الله مخلصين ، مسلمين له ، لكي ينسف التمنيات التي يعتمد عليهاالبعض في ارتكاب المعاصي ، فيزعمون - مثلا - أن الأنداد يشفعون لهم فلماذا التقوى من الذنب .

بينات من الآيات

[7]يبرر بعض المشركين شركهم بالجبر حين يقولون : بأن الله لو لم يكن راضيا عن شركهم إذا منعهم منه ، و لأنه لم يمنعهم فهو راض عنه ، و لكن الله يقول :كلا .. فأنا لا أرضى لعبادي الكفر.

و إذا لم يرض الله الشرك لعباده فلم هم مشركون دون أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ؟!

و يجيب القرآن : لأن الدنيا دار ابتلاء فقد خول الله العباد ، و أعطاهم مهلة لكي يجرب إرادتهم.

]إن تكفروا فإن الله غني عنكم[

فكفر الناس لا يسبب له خسارة ، و عبادتهم لا تزيد في ملكه مثقال ذرة[ولا يرضى لعباده الكفر[

أي أن الله يسمح لكم بأن تعبدوا ما شئتم من دون أن يرضه لكم.

و يقسم الحكماء إرادة الله إلى قسمين:

- 1إرادة تكوين.

- 2إرادة تشريع.

فمن الناحية التكوينية و فر الله للانسان الحرية ليفعل بها ما يشاء ، فأشرك به سبحانه ، و لكن من الناحية التشريعية لم يرض له الشرك ، وبتعبير آخر لم يجبر الله الناس على التوحيد ، و لو فعل ذلك بطل الثواب و العقاب ، و لكنه أمرهم و نهاهم و رغبهم و أنذرهمو وفر لهم المشيئة ، ولولا المشيئة الإلهية لم يقدر أحد على عصيانه ، فهو الذي جعلهم مختارين ، و اعطاهم القدرة.

جاء في الحديث عن فضيل بن يسار ، قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : " شاء وأراد ، و لم يحب ولم يرض ، شاء أن لا يكون شيء إلا بعلمه ، و اراد مثل ذلك ، و لم يحب أن يقال له : ثالث ثلاثة ، و لم يرض لعباده الكفر " (١)و نستطيع أن نشبه هذه الحالة بمن يعطي ابنه دينارا و يأمره بأن يشتري ما ينفعه فيشتري ما يضره ، فهو قد اشترى بمال ابيه مالم يرض به.

و رضى الله أو عدم رضاه ليس كما نحن البشر - كما أسلفنا في كثير من السور أن الله تنطبق عليه الغايات لا المبادىء - فرضى الله قد يكون بتوفيقه للإنسان ،(١) التوحيد / ٣٣٩

و استجابة الطبيعة من حوله ، لأن كل مافي الحياة يستجيب للتوحيد و ينسجم معه ، و يتناقض مع الشرك و ينفر منه .

]و إن تشكروا يرضه لكم[

فالله يرضى الشكر لعباده ، و عندما يشكر الإنسان ربه ففي شكره إرادتان : إرادة تكوين ، و إرادة تشريع ، و هناك من يبرر شركه بإلقاء المسؤولية على غيره ، و لكن الله ينفي ذلك ، و يؤكد أن كل إنسان يتحمل مسؤولية عمله ، ولا يتحمل الآباء أو العلماء أو السلطاتمن وزره شيئا.

]ولا تزر وازرة وزر أخرى[

الوازرة : النفس التي تحمل ثقلا ، فكل إنسان يحمل حملا ، و من عنده حمل لن يرضى أن يحمل حمل الآخرين ، إذ له من الحمل ما يكفيه.

و سواءا بررنا أم لم نبرر فأن جزاء أعمالنا يوفى إلينا يوم القيامة ، حين ينبأ الرب عباده بكل صغيرة و كبيرة عملوها ، و لعلهم نسوا أو تناسوا بعضها و لكن كتاب ربنا لا يضل ولا ينسى.

]ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون[

و علــم الله لا يقتصر على ظواهر العمل بل ينفذ الى القلب حيث الدوافع و النيات.

]إنه عليم بذات الصدور[

و لعل الآية تشير الى فعل القلب و مسؤولية الإنسان عنه ، و الوساوس و التبريراتو العقائد الفاسدة و الرضا و البغض كلها من فعل القلب ، فمثلا كثيرا ما يزعم الفرد أنه مجبور على عمل و هو غير مجبور و الله يعلم مافي صدره.

[8]و بعد أن نسف السياق قواعد التبرير ، و مهد القلب لتلقي الحجة ، أبلغنا بانفذ الحجج وهو دليل الفطرة و الوجدان ، حيث ينقطع في أوقات المحنة أمل الإنسان في أي شيء سواه سبحانه ، و هنالك يتصل قلبه بالله ، إن الله هو ذلك الأمل الذي ينجيك حين لا منجى ،و يتعلق قلبك به حين لا تجد خشبة خلاص تتعلق بها ، و هذه احد الأدلة و الشواهد التي تهدينا إليه سبحانه ، ففي أيام الرخاء تعترينا الغفلة ، وننسى الله ، إلا أن المصائب تأتي هزات عنيفة ليس لكيان الإنسان و إنما لضميره و وجدانه حيث يرى الله ، و المؤمنون غيرهؤلاء ، إنهم يرون الله كما أمير المؤمنين (ع (إذ يقول:

"ما رأيت شيئا إلا و رأيت الله قبله و معه و بعده "[و إذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا إليه[

أي يعــود الى الله و يترك الشركاء من دونه ، و الدعاء و الإنابة حالة الضراعة ، فهو من جهة يدعو الله كي يخلصه من الضراء ومن جهة أخرى يتوب إليه عما اقترفت يداه.

و في ذلك شهادة فطرية على أن الأنداد الذين اتخذهم شفعاء لا يقدرون لا على كشف الضر عنه ولا على التوسط بينه و بين الله ، و إنما الله أقرب إليه من كل تلك الآلهة المزيفة ، و إن أمره بالرجوع الى الرسول أو خليفته الشرعي هو المقياس.

]ثم إذا خوله نعمة منه[

خوله : ملكه و جعله متعهدا للنعمة ، و فلان مخول : أي له حق التصرف ، إذا أعطاه الله النعمة ، و بدل الضراء نعماء.

]نسي ما كان يدعوا إليه من قبل[

يبدو أن المصاب بضر ولا أمل له بالنجاة فينجيه الله من ضره يكون أسرع في العودة الى الذئب من الذي يبلغ النجاة عبر الوسائل المادية.

و في التعبير إِشارة الى أنه ينسى كل شيء عن حالته السابقة ، و نستوحي ذلك من كلمة " ما " في الآية.

]و جعل لله أندادا[

فقال لولا صديقي ، لولا الدكتور ، لولا الصدفة الحسنة ، لولا حظي ، لولا ذكائي ، لكنت قد هلكت ، و ينسى أن من أنقذه إنما كان الذي " يدعو إليه من قبل " و هو رب العزة.

و لعل معنى الجعل هنا اعتبار ذلك للانداد من خلال اضفاء صبغة القوة الذاتية عليهم ، و بتعبير آخر جعل الشرعية لهم مما لا يقتصر أثره فقط على نفسه ، بل يتجاوزه الى الآخرين فيسبب ضلالتهم أيضا.

و يشهد على ذلك التعقيب التالي:

]ليضل عن سبيله[

إذ أنه لم يبين للناس أن الله أنقذه حتى يهتدوا إليه بل أخبرهم كذبا أن غيره هو الذي أنجاه فأضلهم عن سبيل الله و هو إخلاص الدين له.

هذا من جهة و من جهة أخرى قلب الإنسان يرفض الفراغ ، فلابد أن يتعلق بشيء ، فإذا نسي ربه اخترع لنفسه إلها مزيفا من الشركاء ، يستعيض به عن ربه.

و الدافع النفسي وراء الكفر بنعمة الخلاص من الهلكة هو التخلص من مسؤولية شكر الله ، فالذي يقع في الهلكة يحس بتقصيره في جنب الله و يعقد العزم على تلافيه ، و يعاهد الله على ذلك إن نجاه من الهلاك ، و لكنه الآن و قد ذهبت عنه عاصفة البلاء وزعم أنه استغنىعن ربه عادت إليه عواصف الشهوات تحثه نحو الموبقـات و تـرك الفرائض و الخوض في الإباحية ، لذلك نسي ربه و كفر بنعمته عليه ، و نسب النعمة الى الآلهة المزيفة ، فيقول له الرب:

]قل تمتع بكفرك قليلا[

فإنك لن تحصل إلا على متاع قليل وفي فترة قليلة تنتهي إما بالمشاكل التي تتجدد عليك أو بالموت.

]إنك من أصحاب النار[

و هل هي متعة تلك التي تنتهي بصاحبها الى النار ؟

و التعبير بـ " اصحاب النار "باعتبار أن الإنسان يحب صاحبه و لا يتركه ، فهو و النار قرينان لا يفترقان .

[9]و في مقابل هؤلاء الذين يجعلون لله اندادا هنالك طائفة أخرى هم المخلصون ، يقول الله عنهم:

]أمن هو قانت ءاناء الليل ساجدا و قائما يحذر الآخرة و يرجوا رحمة ربه [قانت لربه في ديجور الليل ، صافا قدميه ، ساجدا قائما ، خائفا راجيا.

و يبدو أن الخوف و الرجاء قد تساويا في قلبه ، فهو يخشى النار و أهوالها ، و يرجو رحمة ربه في الجنة.

إن هؤلاء دأبهم الإرتياح الى الله و الحنين في الحالات العادية ، فكيف إذا مسهم الضر.

و هكذا صور السياق نمطين من البشر : من يكفر بعد إنقاذه من الهلكة و وعوده بالتوبة ، و من هو قانت آناء الليل و أطراف النهار ، ليكون الفرق واضحا بينهما ، و آنه لا يجوز أن نجعل هذا كذاك في الجزاء ، و هذا هو الموضوع الأساسي في هذه السورة التي أوضحت اختلاف مسيرة الزمر الصالحة و الزمر التي تساق الى النار.

]قل هل يستوي الذين يعلمون[

أن الله حق ، و أن الجزاء حق ، و أن الرسول صادق.

]و الذين لا يعلمون[

كلا .. لا يستويان مثلا . فلا يجوز الإتكال على شفاعة الأنداد . ولا الإتكاء على التمنيات و الظنون.

]إنما يتذكر أولوا الألباب[

فبالرغم من وضوح الفرق بين العالم و الجاهل ، فإن أكثر الناس لا يهتدون الى ذلك لأنهم أصحاب القشور و الظواهر و أتباع الضجيج ، و ليسوا أصحاب العقول المتعمقين في جوهر الأمور و ألبابها.

جاء في الحديث ، عن عمار الساباطي ، قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل : " وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه " قال : نزلت في أبي الفصيل ، أنه كان رسول الله عنده ساحرا ، فكان إذا مسه الضر يعني السقم ، دعا ربه منيبا إليه ، يعني تائبا إليه من قوله في رسول الله (ص) ما يقول " ثم إذا خوله نعمة منه "يعني العافية " نسي ما كان يدعو إليه " يعني نسي التوبة إلى الله عز وجل مما كان يقول في رسول الله (ص) أنه ساحر ، و لذلك قال الله عز وجل : " قل تمتع بكفرك إنك من أصحاب النار " يعني إمرتك على الناس بغير حق على الله عز وجل ، من رسوله (ص) ، قال : ثم قال أبو عبد الله (ع) : ثم عطف القول من الله في علي (ع) يخبر بحاله و فضله عند الله تبارك و تعالى : " أمن هو قانت آناء الليل ساجدا و قائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون " أن محمدا رسول الله " و الذين لا يعلمون " أن محمدا رسول الله ، و أنه ساحر كذاب " إنما يتذكر أولو ا الألباب " (١)و في الرواية عن أنس قال : " نزلت في علي (ع) " أمن هو قانت آناء الليل ساجدا و قائما .. الآية " قال : فأتيت عليا - عليه السلام - و قت المغرب فوجدته يصلي و يقرأ الى أن طلع الفجر ، ثم جدد و ضوءه و خرج الى المسجد و صلى بالناس صلاة الفجر ،ثم قعد في التعقيب الى أن طلعت الشمس ، ثم قصده الناس فجعل يقضي بينهم الى أن قام [الى] صلاة الظهر ، فجدد الوضوء ثم صلى بأصحابه الظهر ، ثم قعد في التعقيب الى أن صلى بهم العصر ، ثم كان يحكم بين الناس و يفتيهم الى أن غابت الشمس. "

[10]و بعد أن ينجز السياق إقرار الإنسان بأنه لا يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون ، يشرح صفات و جزاء الذين يعلمون و يصوغون شخصيتهم بما يعلمون(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٧٨.

و ذلك بالإيمان و التقوى و الاحسان و الهجرة (عند الضرورة) و الصبر.

]قل يا عباد الذين ءامنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة و أرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب]و التقوى تجنب المهلكات ، و عاقبتها الفلاح ، و الفوز بالجنة ، و أما الإحسان فعاقبته السعادة في الدنيا أيضا ، و معناه أن تكون صبغة حياة الفرد العطاء للآخرين ، و قد بلغ الأنبياء - عليهم السلام - ما بلغوه من شرف الرسالة بالإحسان . أما الهجرة عند الضرورة فهدفها المحافظة على الإستقلال و الحرية ، و الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فهو لباب التوحيد و جوهر الإخلاص ، و درع الإستقلال ، و أجره عند الله لا يبلغه العادون فهو بلا حساب.

هكـذا روى الإمـام الصـادق - عليه السلام - عن النبي (صلى الله عليه و آله: (

"إذا نشرت الدواوين ، و نصبت الموازين ، لم ينصب لأهل البلاء ميزان ، و لم ينشر لهم ديوان ، ثم تلا هذه الآية " (١)[١١] بالرغم من أن الهجرة قائمة الى يومنا هذا إذا تعرضنا لضغوط ، و افتتنا في ديننا ، إلا أنه يلزم في بعض الاحيان التحدي.

و هكذا يأمر الله نبيه بأن يعلن للناس جميعا إخلاصه لربه ، و رفضه للأنداد ، مما يعني التمرد على سلطات الجبارين و أمرة المترفين و قيادة الجهلاء.

(1)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٨١.

]قل إني أمرت أن أعبد الله[

و هذا أمر الله ، فلا قداسة ولا شرعية ولا حرمة لهذه السلطات الفاسدة لأن الله لم يأمر بها ، بل أمر برفضها حيث قال لرسوله:

]مخلصا له الدين[

مسلما له وحده ، خاضعا لمناهجه و شرائعه فقط ، و مادام ذلك أمر الله فإن المؤمن بالله يتحمل كل أذى في سبيل تطبيق هذا الامر الإلهي ، و الله يعينه عليه ، و لا يقدر على تجاوزه دون التعرض لغضب الله و عذابه.

[12]و مادام الأمر من الله فلا يستمد شرعيته من الناس فسواءا آمن الآخرون أم كفروا ، و افقوني على تمردي ضد الأنداد أم خالفوني فإني أواصل دربي.

]و أمرت لأن أكون أول المسلمين[

أسبقهم الى التسليم لله ، دون النظر الى الآخرين ، كما قال السحرة بعد أن آمنوا " : لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين " . (١)بالرغم من أنهم لم يكونوا فعلا أول المؤمنين ، فقد آمن لموسى ذرية من قومه على خوف من فرعون و ملته ، و لكنهم فتحوا الطريق لغيرهم كي يؤمنوا.

] [13]قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم[

و هذا بالغ ذروة الإنذار حيث يخشى رسول الله عذابا عظيما فكيف بنا.

(1)الشعراء / ٥٠ - ٥١.

] [15 - 14]قل الله أعبد مخلصا له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه]أما أنا فأعبد الله مخلصا له ديني ، فاعبدوا ما شئتم.

هكذا يتحدى الرسول بأمر الله أولئك الجاهليين الذين اتخذوا أهواءهم آلهة فعبدوا ماشاؤوا ، و هذا هو خلاصة الإخلاص و صفوة التوحيد ، و حين يبلغ المرء هذا المستوى الأرفع من الإخلاص لا يخشى أحدا ولا يخضع لشيء فإنه:

اولا :يضمن حريته التامة ، و استقلاله الشامل ، لأن الأعداد لن يجدوا فيه ثغرة يستعبدوه من خلالها ، فلا المال و الجاه و الثناء يغريه و لا السجن و التهجير والإعدام يخيفه.

ثانيا : إنه يضمن استقامته على الطريق دون تعب ، لأن النفس يؤلمها مخالفة الناس ، و ملامتهم و جراحات ألسنتهم ، أما هو فقد تعالى بإذن الله عن لومة اللائمين ، و لدغات الجاهلين.

ثالثا :لا يكون شنآنه و براءته من الناس بعصبية أو ظغينة ، بل لفرط حبه لله و حبه للناس فهو يستقبل من يؤوب الى الحق بترحاب ، و هكذا لا يستمرىء الإعتزال ، و لا يجعل بينه وبين الناس حجابا من الكبرياء و العصبية.

]قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين]نعم . يخسر الإنسان في ذلك اليوم كل شيء ، نفسه حيث لا يتمتع شيئا ، و يخسر أهليه فلن يراهم في ذلك اليوم إذا كانوا مؤمنين ، و يحرم من شفاعتهم ، لأنه لاتنفع الشفاعة إلا لمن ارتضى ، و إن كانوا معه في جهنم ، فلكل امرء منهم شأن يغنيه ، و يا لها من خسارة كبرى.

[16]و بعد ذلك يبين الله لنا عذاب أولئك الذين خسروا أنفسهم و أهليهم ، أنهم يعيشون في ظلل النار في أسفل طبقاتها ، و لعل في هذه إشارة الى مافي الدنيا فما في الآخرة تجسيد للدنيا ، فقد كانوا واقعين تحت الحجب ، من حجب الشهوات ، الى حجب الثقافة الجاهلية، و الخضوع للطاغوت.

]لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل[

أنه محاط من فوقه ومن أسفل منه بالنار ، و ربما كان قوله : " ومن تحتهم ظلل " دلالة على أن هناك من هم أسفل منهم في النار مثل أصحاب التابوت و غيرهم.

]ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون[

اتقوا عذابي و غضبي ، و تجيب الآيات التاليات كيف نجتنب غضبه.

فبشر عباد

هدى من الآيات

يستمر السياق في بيان نموذجين من الناس و يقارن بينهما لنعرف أنهما ليسوا سواءا في الجزاء ، و لكي نزداد وعيا بهما فعبر مقارنة النور بالظلام نتبصر بحقائقهما ، و قد نزل القرآن مثاني يفرق أبدا بين الحق و الباطل ، الصلاح و الفساد.

و حين شرح الله صفات القانتين - و هم أئمة الهدى - و ميزهم عن أصحاب النار من أئمة الكفر ، عاد إلى بيان أشياعهما ، فهناك من يجتنب الطاغوت ، و يستمع القول فيتبع أحسنه ، و هناك من حقت عليه كلمة العذاب.

و يذكرنا الدرس بالعقل الذي هو لب الإنسان ، و الذي يهدي به الله قوما فيجعلهم من أصحاب الجنة لهم غرف من فوقها غرف ، و يوقظ العقل بآيات الله في الخليقة حيث يذكرنا بالدورة النباتية التي تبدأ بنزول الغيث ، و اختزان الماء في الينابيع ، و إخراج الزروع المختلفة ، و تنتهي بالحطام.

بينات من الآيات

[17]من هو الطاغوت ؟

كل من فرض نفسه زورا على الآخرين يعتبر طاغوتا ، إذ قد يطغى المرء في حدود نفسه فلا يعبد الله و يتجبر و يتكبر ، و يسمى طاغيا ، و يقول عنه الرب " : إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى. "

و قد يتجاوز حدود ذاته الى الآخرين ، فيحاول منع الناس عن عبادة الله ، و يدعوهم الى عبادته ، فيكون قد بالغ في الطغيان ، فيسمى بـ (الطاغوت) لأن هذه الصيغة تعني المبالغة ، كما نقول ملكوت مبالغة في الملك ، و جبروت مبالغة في السيطرة ، و الرحموت مبالغةفي الرحمة.

و ما هي عبادة الطاغوت ؟

قليل من الشعوب الخاضعة لحكم الجبابرة كانت تزعم أنهم آلهة فيسجدون لهم تعظيما ، إنما كان يستسلم أكثرهم للطاغوت رهبا و رغبا ، أو استرسالا ، و هكذا اعتبر طاعتهم لها عبادة و خضوعهم سجودا.

قال الإمام الصادق - عليه السلام) - حسب رواية أبي بصير) و هو يخاطب المؤمنين:

"أنتم هم ، و من أطاع جبارا فقد عبده " (١)و كيف يجتنب الطاغوت ؟

(1)المصدر / ص ٤٨١.

الطاغوت حقيقة قائمة في كل مكان تقريبا ، فأنى توليت وجدت سلطة شيطانية مفروضة ، و شبكة فاسدة من أنصاره و تابعيه ، و المؤمن هو الذي يجتنب هذا الوضع ، و يطهر نفسه من تأثيراته الفاسدة ،

فهو إذا يثور على الطاغوت و يتحداه حتى لا تشمله سيئاته ، و هذا بعض معاني الاجتناب ، و لكن آثار الطاغوت السلبية تنتشر في كل مكان ، و تصيب المؤمنين برذاذها شاؤوا أم أبوا ، فهذه أنظمته الإجتماعية و الإقتصادية ، و تلك أفكاره الجاهلية تملأ المحيط الذي يعيشه المؤمنون ولابد أنهم يخضعون لها حينا من الاحيان.

فماذا يصنعون ؟

إن عليهم الإنابة الى الله في كل حين ، فكلما هزمتك ضغوط السلطة الفاسدة نفسيا ، و ملت إليها أو خضعت لقوانينها ، او مالأتها خشية بطشها أو رغبة عطائها فلابد أن تعود الى طهرك ، و تتوب الى الله متابا ، لتكون لك البشرى على لسان نبيك المرسل.

]و الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها و أنابوا إلى الله لهم البشرى]و يدخلك الله في حصن عبوديته.

]فبشر عباد[

[18]لا يفرض الطاغوت على الناس هيمنته حتى ينشر بينهم فلسفته ، فهو كمدخنة كبيرة تنفث دائما تيارا من الدخان الأسود فتلوث الأجواء.

إن أجهزة إعلامه السلطوية تبث بين الناس الأفكار الشركية التي تبعدهم عنربهم ، و تشيع فيهم أفكارا باطلة تسلبهم ثقتهم بأنفسهم ، و تفرق كلمتهم و تضعهم في هالة من الأمنيات ، و تشيع فيهم أنه مرهوب الجانب ، و قراراته صائبة ، و هو رجل إلهي مقدس.

كما انها تبث فيهم العصبيات العرقية و القبلية و القومية ، و تحمد إليهم أصنام التراث و أنصاب المصالح المادية .

و حول الطاغوت يتحلق طائفة من تجار الدين و العلم ، يوحون إليه بالمكر ، و يزينون له باطله ، و يلمعون للناس وجهه.

و هكذا يصبح التخلص من دائرة نفوذ الطاغوت عملا عسيرا يحتاج إلى همة و اجتهاد ، و لعل هذا ما تشير إليه كلمة " و اجتنبوا " في الآية السابقة ، و التي تتخصص في هذه الآية باجتناب الثقافة الطاغوتية إذ يقول ربنا:

]الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه[

و هكذا يصف الذين تجانبوا الطاغوت و تاثيراته الشركية بأنهم لا يتبعون أي قول بل أحسنه.

و لكن كيف يتم ذلك ؟

أولا :إن عباد الله يتعاملون مع القول الذي يعبر عن الفكرة باهتمام منهم ، لا يسمعونه بل يستمعون إليه ، و فرق بينهما كبير ، فالسماع لا إهتمام فيه بعكس الإستماع ، و هكذا جاء في الحديث:

"كونوا نقاد الكلام"

ثانيا :إنهم يمارسون التعقل و التفكر ليعرفوا أحسن الحديث ، و بذلك يميزون بين الردىء و الجيد و بين الحسن و الأحسن ، فلا يكتفون بمعرفة الجيد بل يسعون لمعرفة الأحسن و فق قيم العقل و الوحي ، ذلك أن أحسن القول هو الأصلح لدنياهم حسب هدى العقل و الأنفع لأخراهم حسب هدى الوحي.

ثالثا : فإذا عرفوا الأحسن اتبعوه ، و لم يبحثوا عن العلم للعلم بل للعمل ، و لم يتعلموا العلم لينقلوه الى غيرهم بل ليعملوا به أولا.

]أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولوا الألباب]إنهما حجتان في حجة ، حجة الوحي و حجة العقل ، و هما تجليان لنور الله ، الذي أودعه بقدر في ضمير كل بشر ، و أنزله بهيا عبر رسالاته ، و قد تجلى هذا النور في ضمير هؤلاء لأنهم اتبعوا أحسن القول ، و هكذا هدى الله يتنزل على قلب من يسعى إليه و يتبعه ، أولميقل ربنا سبحانه : " و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " و باطل أمنية أولئك الذين ينتظرون الهدى من دون سعي و جهاد.

و أستوحي من الآية فكرة اعتبرها مفتاحا لغيب الكتاب الحكيم ، و هي : إن كل كتاب ربنا حسن ، إلا أن الناس يختلفون في مدى الإنتفاع به ، فبعضه بالنسبة الى البعض أحسن من غيره لحاجته الملحة إليه ، و مثل القرآن مثل أنواع الطعام متشابه في فائدته و روعته و لذته إلا أن الناس يختلفون في انتفاعهم به .

فمثلا : آيات الجهاد تتجلى في عصر التحديات أكثر من آيات الصبر ، بينما تتجلى آيات الإنفاق للإغنياء بقدر تجلي آيات العفاف للفقراء .

و معرفة الظروف الإجتماعية و الشخصية تكون بالعقل ، فهو ليس دليلا مستقلا بين الأدلة الشرعية بالإضافة الى الكتاب و السنة و الإجماع ، بل هو النور الذي يعرفبه الكتاب ، و به نميز السنة ، و به نثق بالإجماع ، فلولا العقل كيف نهتدي الى معاني الكتاب ، و كيف نصدق أو نكذب بالرواة الذين نقلوا إلينا السنة ، و كيف يعكس الإجماع لنا السنة ؟

[19]و بعكس المؤمنين ، فإن غيرهم حين استسلم لضلالة الطاغوت حقت عليه كلمة العذاب حين أضله الله ، و سلبه هدى عقله بعد أن أساء التصرف معه.

]أفمن حق عليه كلمة العذاب[

و أضله الله و ألزمه التيه لأنه لم ينتفع بعقله و لم يتبع هدى ربه.

]أفأنت تنقذ من في النار[

إنه لا يتخلص من النار أبدا ، لأن وسيلته الوحيدة للإنقاذ رحمة الله و هو محروم منها.

[20]ذلك كان جزاء الذين اتبعوا الطاغوت . أما الذين اتقوا في الدنيا فهم يحبرون في الجنة.

]لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف[

و هي البيوت المرتفعة.

]من فوقها غرف[

مما يشبه العمارات المبنية بإتقان ذات طوابق عديدة.

]مبنية تجري من تحتها الآنهار[

و الذي يضمن هذا الجزاء الحسن لهم هو وعد الله ، أترى يخلف الله وعده ؟

]و عد الله لا يخلف الله الميعاد [

و يشوقنا الرسول - صلى الله عليه و آله - الى تلك الجنة في تفسيره للآية فيقول في جواب علي - عليه السلام - حين سأله عن تفسير الآية:

"بماذا بنيت هذه الغرف يا رسول الله ؟ فقال : يا علي تلك غرف بناها الله لأوليائه بالدر و الياقوت و الزبرجد ، سقوفها الذهب ، محبوكة (١) بالفضة ، لكل غرفة منها ألف باب من ذهب ، على كل باب منها ملك موكل به ، و فيها فرش مرفوعة ، بعضها فوق بعض منالحرير و الديباج بألوان مختلفة ، حشوها المسك و العنبر و الكافور ، و ذلك قول الله : " و فرش مرفوعة " فإذا دخل المؤمن الى منازله في الجنة وضع على رأسه تاج الملك و الكرامة ، و ألبس حلل الذهب و الفضة و الياقوت و الدر منظوما في الإكليل تحت التاج، و ألبس سبعين حلة حرير بألوان مختلفة ، منسوجة بالذهب و الفضة و اللؤلؤ و الياقوت الأحمر ، و ذلك قوله : " يحلون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤا و لباسهم فيها حرير " فإذا جلس المؤمن على سريره اهتز سريره فرحا ، فإذا استقرت بولي الله منازله في الجنة استأذن عليه الملك الموكل بجنانه ليهنئه بكرامة الله إياه ، فيقول له خدام المؤمن و وصفاؤه (٢) : مكانك فإن ولي الله قد اتكى على أريكته و زوجته الحوراء العيناء قد ذهبت اليه فاصبر لولي الله حتى يفرغ من شغله " (٣)[٢١] حين نتأمل في نعم الله المبثوثة حولنا نزداد إيمانا بصدق وعد ربنا بنعم الجنة التي هي أنقى و أبقى.

(1)حبكه : شده و أحكمه.

(2)و صفاء جمع الوصيفة : الجارية.

(3)المصدر / ص ٤٨٣.

تعالوا إلى الروابي لننظر الى الغيث حين ينزل على الأرض فينشر الله عليها بركاته .تأملوا في طبقات الأرض ، و أمعنوا النظر في القنوات التي جعلها الله فيها و في الأحواض الكبيرة التي تنتهي إليها فتختزن مياه المطر بعد تنقيتها في جوف الأرض ثم تتفجر ينابيعمستمرة على مدار السنة .. أولا تشهدون يد القدرة الإلهية التي نظمت الخليقة أحسن تنظيم ؟!

]ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء[

كيف سخر الرياح لحمل السحب الثقيلة من أعالي البحار ، و كيف مررها بتيارات باردة ، و كيف لقحها بعواصف الرياح الهوج في جو السماء ؟! ثم كيف هداها الى حيث أمرها بإلقاء حملها ؟! تبارك الله رب القدرة و الرحمة.

و الماء هو الماء ، و لكنه ينقسم الى ما يصرف آنيا ، و ما يختزن في باطن الأرض.

]فسلكه ينابيع في الأرض[

من الربيع الى الخريف ، و من الشتاء الى قيض الصيف.

]ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه[

فإذا بالماء الواحد يجعله الله نباتات مختلفة.

]ثم يهيج فتراه مصفرا[

فحين تينع الثمار ، و تيبس الحبوب ، لا تستقر في مواقعها ، بل تميل الى الصفرة بعد الخضرة إستعدادا لحصادها.

]ثم يجعله حطاما[

يابسا تذره الرياح ، و الحطام ما يتفتت من النبت ، أولا ترون آثار القدرة و التدبير في كل هذه الدورة الحياتية السريعة ؟!

]إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب[

يعرفون الله من خلال آياته ، و يعرفون صنع الله فيما يأتي من خلال صنعه فيما مضى ، و يعرفون سنة الله الواحدة في الخلق فكما تمر النباتات بالدورة الحياتية يمر الإنسان بذات الدورة ، و عليه أن يستعد للرحيل ، و يتزود للمسير بالتقوى ، و يأخذ من دار الغرور لدار الجزاء.

و كلمة أخيرة : إن هذه الدورة النباتية تعكس النبات في حالتين : عندما يزهو في اخضراره ، و حينما يكون حطاما . إنه ذات النبات يمر بحالتين ، كذلك الانسان قد يكون في ذروة إيمانه و قد يكون في حضيض الكفر . هل يستويان مثلا ؟!

الله نزل أحسن الحديث

هدى من الآيات

من تجليات الإعجاز البلاغي في كتاب ربنا أنه مثاني تقشعر منه جلود الذين آمنوا ، و من معاني المثاني أنه يتابع سلسلتين من الأفكار متداخلتين يتحدث عنهما معا في سياق آياته بنظم دقيق و منهج متين ، ذلك أنه من الله الذي لا يشغله شيء عن شيء.

و هنا نجد السياق في ذات الوقت الذي يتابع الحديث عن فوارق النمطين من الناس : فهناك من شرح الله صدره للإسلام ، و هناك من قسى قلبه من ذكر الله ، و يتقي بوجهه سوء العذاب ، و يكذب بالله ليلقى جزاءه خزيا في الدنيا ، في ذات الوقت يبين خصائص القرآن و كيف تتلقاه النفوس الطيبة ، و كيف يضرب الله فيه من كل مثل للناس لعلهم يتذكرون.

بينات من الآيات

[22]ما هي المعرفة ، و كيف يتخلص البشر من رواسب الجهل ، و لماذا نجد البعض يرتفعون الى أعلى درجات الإيمان بينما يهبط الآخرون الى الحضيض في الكفر ؟

للقرآن بصيرة واضحة في المعرفة تتلخص في أن محل العلم القلب ، فإذا كان منشرحا ازداد معرفة و إيمانا ، بينما القلب القاسي لا يتسع للمعرفة.

]أفمن شرح الله صدره للإسلام[

ما هو الصدر المنشرح بالاسلام ؟

الإسلام هو التسليم لله لسنن الله لشرائع الله و للحق أنى كان ، فإذا شرح الله الصدر خشع له ولان لكلمات الله و وسعها كما تخشع الأرض الطيبة لماء السماء ، كما تلين التربة الصالحة لنبتة مباركة ، كما تستقبل الزهور النسيم العليل ، بينما القلب القاسي كالصخرة الصماء لا يتسع لمعارف الحق ، و لا يهتز لوابل السماء ، و لا ينبت زهرة ، ولا يستقبل نسمة.

هكذا أوصى نبينا الأكرم ابن مسعود فقال له : " يابن مسعود ! فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فإن النور إذا وقع في القلب انشرح و انفتح.

فقيل يا رسول الله : فهل لذلك علامة ؟ فقال : نعم ، التجافي عن دار الغرور ، و الإنابة الى دار الخلود ، و الإستعداد للموت قبل نزول الفوت ، فمن زهد في الدنيا قصر أمله فيها ، و تركها لأهلها " (١)(١) بحار الانوار / ج ٧٧ / ص . 93

]فهو على نور من ربه[

فبالنــور الرباني يتصل صدر الإنسان بعالم الحقائق ، فيتسع لها ، و ينشرح بها ، و نور الله هو العقل المستضيء بالوحي ، و لعل التعبير بـ " على " للإيحاء بأن المؤمن ماض على صراط مستنير ، كقوله سبحانه : " أولئك على هدى من ربهم. "

و يمكن أن نستوحي من الآية : أن للقلب حالتين : فهو ينغلق على ذاته فلا يرى إلا نفسه فيعيش فقط ضمن مصالحها و تمنياتها و أوهامها ، و يريد العالم المحيط لذاته ، فيكون قاسيا و مع الهوى متقلبا ، و بالرين و الطبع متلبسا ، لا يعترف بقانون ، و لا يؤمن بسنة ،و يكون مثله من يعيش في بيت و يزعم بألا أحد يمكث فيه معه ، فيفعل فيه ما يشاء ، و يتحلل من كل التزام ، و أما الحالة الثانية فهي الخروج من زنزانة الذات الى رحاب الحقيقة ، حيث يعيش في عالم واقعي يعترف بوجوده ، و يسعى للتعرف عليه و الكيف معه ، ان مثل صاحبهاكمن يدخل بلدا و يعلم أن فيه أناسا لابد ان يعايشهم ، و أن لهم قوانين لابد من الإلتزام بها ، و هكذا لا يضيق ذرعا إذا تعرف عليــهم و عرف حقوقهــم ، بل إنه يستقبلهم بترحاب ، و يخضع لنظامهم بلا تردد.

و إذا كانت الحالة الأولى تعكس الجمود و التخلف و الجهل و الفوضى ، فإن الحالة الثانية هي ذروة النشاط و الرقي و العلم و الإلتزام.

]فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله[

الله الذي و سعت كل شيء آيات رحمته و قدرته و عظمته ، مع ذلك ترى قلوبهم قاسية من ذكره ، فكيف سائر حقائق الخلق ؟ أرأيت من عمي عن ضوء الشمس هل يرى شمعة ؟! كذلك حين قسى القلب عن ذكر الله فلا يرجى أن ينشرح لمعرفةشيء.

]أولئك في ضلال مبين[

يحيط بهم الضلال المبين كما يحيط بأولئك نور الله.

[23]من أبرز معالم شرح الصدر استقبال نور الله في القرآن ، فلقد أنزل الله أحسن الحديث ، اختصر الجمال و الروعة والبلاغة و العلم و الهدى و النور ، و تجلى فيه الرب حتى رأت فيه قلوب المؤمنين جمال ربهم كما رأت أعينهم جمال صنعه.

]الله نزل أحسن الحديث[

إنه مرآة تعكس روعة الخلق و جمال الخالق و أحسن الخلق و أنبل الأعمال..

]كتابا[

منتظــما في وحــدة متماسكة ، مجموعا الى بعضه بتماسك لا ثغرة فيه ولا فطور ، ولا تناقض ولا اختلاف .

]متشابها[

بعضه يشهد على بعضه و يفسره و يبينه ، و في ذات الوقت لا يرقى الى كنه فهمه عقل ، و لا ينفذ في غور علمه أحد ، وكلما تلوت آياته استفدت علما جديدا و هدى طارفا ، و ما أوتيت من علم فهو بالنسبة إليك محكم ، و لكن يبقى مالم تؤت من علم كالمحيط الواسع لا تتناهى عجائبه ولا تنقضي غرائبه.

]مثاني[

فنجد فيه:

أولا :مفارقات بين الخالق و المخلوق ، بين الحق و الباطل ، بين المحسن و المسيء ، كما يذكرنا بالمفارقات الظاهرة بين النور و الظلام ، بين الظل و الحرور ، و بين الحرية و العبودية ، و . و.

و لعل سورة الزمر قد بلغت الذروة في هذا التميز ، بالذات بين الناس حيث تجلت فيها صفة) الفرقان) في معرفة الصالحين و تزيلهم عمن سواهم.

ثانيا : مقارنات بين أزواج الطبيعة ، بين الذكر و الأنثى ، بين السماء و الأرض ، البر و البحر ، الإنسان و الحيوان ، الزيتون و الأعناب ، الفاكهة و الأب وهكذا.

ثالثا :شواهد و أمثلة ، فما من حقيقة يذكر بها كتاب ربنا الا و تتثنى بتفسيرها و دليلها و مثالها ، فما تتلو فيه من آية حتى تجد في السياق عادة أو في موقع آخر تبيانا لها ، فإذا ذكرت عاقبة المتقين ضربت لها أمثلة من جزائهم عند الله و انتصارهم في الدنيا ،و إذا ذكرت من صفات المتقين و احدة ثنيت بشواهدها من حياة النبـيين - عليهم السلام - ، و إذا ذكرت حقيقة من حقائق التوحيد توالت شواهدها .

فمثلا حين ذكر السياق شرح الصدر بالإسلام بين مثله في خشوع قلب المؤمنين لآيات الذكر.

و هكذا أشارت الآيات التالية إلى أن القرآن ضرب للناس من كل شيء مثلا ، فيكون المثل تثنية كل حقيقة مذكورة في القرآن.

هذا بعض معاني المثاني.

و لأنه مثاني تشفع الحجة بالحقيقة فإن قلوب المؤمنين تصعق له ، و تسري فيأعصابهم رعشة الخشية ، فتهتز تبعا - لذلك - جلودهم.

]تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم [

عندما تواجه النفس حقيقة أكبر من سعتها تندهش بها و تحصل لصاحبها قشعريرة ، أما لإهتزاز الأعصاب أو لتجمع الدم حول القلب كما يحصل في حالات الخوف الشديد.

و لأن هذا الفريق يخشون ربهم ، و يعرفون شيئا من عظمته و كبريائه ، و يعلمون أن الكتاب رسالة الله إليهم ، فلا تكاد قلوبهم تستقر لتجلياته الظاهرة في كتابه ، ولولا أن الله يؤيدهم في تلك اللحظة بروحه لتصدعت قلوبهم كما اندك الجبل عندما تجلى الرب له أمام موسى فخر موسى (ع) صعقا ، أرأيت تجلي الله للجبل كان أعظم من تجلياته في كتابه للرسول و المؤمنين.

إنما المؤمنون توجل قلوبهم بمجرد ذكر الله ، فكيف لا تصعق عندما تتلى عليهم رسالة الله إليهم ، إنه الله يتحدث اليهم فكيف يصمدون ، بلى . أنا و أمثالي الذين أحاطت الشهوات بقلوبنا لا نعرف ذلك ، إلا إذا رفع الله الحجب و اتصل القلب بنور الرب.

]ثم تلين جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله[

إذا ذهبت آثار الصدمة ، و تغلب العقل بتأييد الله على هول المواجهة ، لانت الجلود تعبيرا عن خشوع القلب ، و استعدادا لاستقبال ضياء الهدى.

و قال المفسرون : إن قشعريرة الجلد تعبير عن خشيتهم من عذاب الله ، أما حين يلين فإنه دليل على طمعهم في رحمة الله ، و هكذا يعيش قلب المؤمن بين الخوفو الرجاء

و قال الفخر الرازي : إن المقامين المذكورين في الآية " تقشعر و تلين " لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب و الرحمة ، بل ذاك أول المراتب ، و بعده مراتب لاحد لها ولا حصر في حصول تلك الحالتين.

ثم تناول هذا المفسر الكبير الفرق بين حالة المؤمنين عند تلاوة الكتاب ، و حالة الوجد الصوفية عند سماع أشعار الهجران و الوصل ، و قال : إن الشيخ أبا حامد الغزالي أورد مسألة في كتاب " إحياء علوم الدين " و هي أنا نرى كثيرا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل و الهجر ، و عند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال ، ثم إنه سلم هذا المعنى و ذكر العذر فيه من وجوه كثيرة ، و أنا أقول : إني خلقت محروما عن هذا المعنى ، فإني كلما تأملت في أسرار القرآناقشعر جلدي ، و وقف علي شعري ، و حصلت في قلبي دهشة و روعة ، و كلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل علي ، وما وجدت البــتة في نفسي منها أثرا ، و أظن أن المنهج القويم و الصراط المستقيم هو هذا ، ثم ذكر وجوها في بيان ذلك تتلخص فيما يلي:

اولا : إن تلك الأشعار لا تليق بمقام الخالق ، و إن اثباتها في حقه كفر.

ثانيا :إن قائل القرآن هو الله عبر جبرائيل إلى الرسول إلينا ، بينما قائل تلك الأشعار شاعر كذاب مملوء من الشهوة و داعية الفجور.

ثالثا : إن مدار القرآن الدعوة الى الحق ، و مدار الأشعار الباطل . (١)و أقول : إن تلك الأشعار تثير شهوات البعض ، و تدغدغ عواطف الهوى المكبوتة(١) راجع التفسير الكبير / ج ٢٦ / ص ٢٧٣.

لديهم ، بينما تستثير آيات الذكر دفائن العقول ، و تجلي القلوب من رين الشهوات ، و كل إناء بالذي فيه ينضح.

]ذلك هدى الله يهدي به من يشاء[

و أن أولئك الذين يبحثون عن سبل الزلفى الى الله عبر الأشعار الجاهلية و الطرق غير الشرعية لا يهديهم الله اليه ، بل يضلهم لأنهم لم يتبعوا الوسيلة التي بينها لعباده.

]و من يضلل الله فما له من هاد[

فمن شاء أن يهتدي إلى ربه سبيلا فعليه أن يتوسل به إليه ، و بأوليائه الذين جعلهم وسائل رحمته ، و ألا يخترع لنفسه مذهبا فيضله الله ، و أن يعلم أن الله يدل على ذاته بذاته ، و لا شيء أظهر دلالة منه ولا شفيع إلا من بعد إذنه ، و هكذا يخلص النية لربه ، و حاشا لله أن يخيب ظن عبده به.

[24]و يعود القرآن الى مفارقته بين من يتقي به في الدنيا فينجيه الله من عذاب النار ، و بين من لا يتقي ولا يجد هناك شيئا يحتجز به عن النار ، فتراه يضطر الى اتقاء النار بوجهه.

]أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة[

أي عذاب هائل ذلك العذاب ، حين تتميز جهنم غيضا ، و تتفجر فيها النيران تفجرا ، و يأتي المجرمون لا يملكون من الثواب ما يقيهم النار ، فتتعرض وجوههم لها ، تلك الوجوه التي اعتزوا بها و بإثمها في الدنيا ، و صانوها بأيديهم و بما يملكون.

]و قيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون[

إن الفواحش التي يرتكبها الظالمون في الدنيا تتجسد في صورة نيران ملتهبة و عقارب و حيات . أرأيت الذي يصنع القنبلة النووية بيده ثم يفجر نفسه و البلاد كيف أنه حين يصنعها لا يتصور بسهولة هول عذابها ، كذلك المجرمون حين يزنون أو يغتابون أو ياكلون أموالهم بينهم بالباطل أو يؤيدون الطاغوت لا يتصورون أي عذاب شديد يكتسبونه و يعدونه لأنفسهم في يوم القيامة.

[25]و كما هو في الآخرة كذلك في الدنيا ، فمن بنى السد و طغى به عذب به ، كما أنهار سد مأرب ، و من عبد الحجارة ، أو اتخذ من الجبال أكنانا عذب بها كما عاد و ثمود ، و من عبد الماء أغرق فيه كقوم فرعون.

]كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون]فمن كذب بآيات الله وصدف عنها أتاه العذاب من حيث لا يشعر ، و علينا أن نراجع قصص القرآن كيف عذب الله الأقوام ، فهل كان يتصور فرعون أن موسى (ع) الذي رباه في بيته يكون فناء ملكه على يديه ؟! كلا .. و هل كان يعلم فرعون و ملأه الذين عبدوا الماء ، فكانوا يرمون في النيل بأجمل فتياتهم لإرضائه ، و كان فرعون يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته ، و كانت حضارتهم قائمة عليه ، هل كانوا يعلمون بأنهم سوف يغرقون في معبودهم و أساس تحضرهم . إن الذي يكذب بآيات الله يكون هلاكه بالقوة التي يعتمد عليها (يعبدها. (

] [26]فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا[

لأنهم كانوا يستكبرون ، و لا يعترفون بشيء غرورا ، و الآن يجب أن يلاحقهم الخزي و العار ، هذا في الدنيا.

]و لعذاب الأخرة أكبر لو كانوا يعلمون[

اكبر خزيا و ألما ، و الإنسان يهرب من عذاب الدنيا فكيف لا يهرب مما هو أكبر منه ؟!

[27]و بعد ذلك يذكرنا الرب بأنه ضرب لنا الأمثال ، من قصص الأنبياء و أممهم.

و هي وقائع خارجية جسدت القيم التي يبشر بها القرآن و هذا المعنى المثل أي التطبيق الخارجي للحقيقة.

]و لقد ضربنا للناس في هذا القرءان من كل مثل لعلهم يتذكرون]و التعبير " بكل مثل " يدل على أن في القرآن إشارة الى كل الحقائق ، و ذلك عبر أمثلة واقعية لها ، فأنى تفكرت فيه مما يتصل بالخلق و الخالق و الصلة بينهما و صلة الخلق ببعضهم و غيرها مذكور في القرآن و مفصل بالأمثلة التي لا تقتصر على حياة الشعوبالسابقين بل و تشمل إشارات الى الطبيعة و أحوالها.

[28]و بعد ذلك يأخذنا الرب الى صفات ذلك القرآن الذي يضرب فيه من كل مثل ، و يذكر له صفات ثلاث :

- 1قرآنا : مقروءا ، يوصلنا بالماضي ، و يفصل لنا الحاضر ، و يرسم خريطة المستقبل.

- 2عربيا : بلغة مفهومة ، فأعرب الكلام أفصح عنه ، و يقال أعرب فلان عن أستيائه أي بينه ، و العربي هو الذي يكون فصيحا بليغا.

- 3غير ذي عوج : ليس به انحراف يمنة أو شمالا ، شرقا أو غربا ، ذلك أنمن أسباب الإنحراف الجهل و الهوى و الإستسلام للضغوط ، و تعالى الله عن كل ذلك ، و هكذا يفصح القرآن عن الحقائق بصورة مباشرة.

]قرءانا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون[

و هذا هدف القرآن ، إنه يريد منا أن نتقي الله و نخافه ، و نعمل بمضمون التقوى من إصلاح دنيانا و أخرانا .

[29]و من أمثلة القرآن التي تقرب الى أذهاننا قبح الشركاء اشتراك مجموعة في امتلاك شخص.

]ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون[

هل يستوي عبد يملكه أكثر من مالك و عبد يملكه رجل واحد ؟! كلا .. لأن في الثاني كل مالك يريد أن يجيره لحسابه على حساب الآخرين ، و قد بين الباري ذلك في قوله : " و إن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض " (١) و قال تعالى : " لو كان فيهماآلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون " (٢) و قال تعالى عن استحالة الأشباه و الأعضاد : " ما اتخذ الله ولد و ما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون " (٣. (

و هناك مثال من واقعنا : حيث تعيش بعض الدول المستضعفة في إطار ولاءات مختلفة فتتصارع عليها قوى الشرق و الغرب ، و قد يجري الصراع على أراضيها و بأيديها ، و يكون بالتالي الغرم لها و المكاسب للأسياد ، و آخر مثال على ذلك ما(١) ص / ٢٤.

(2)الأنبياء / ٢٢.

(3)المؤمنون / ٩١.

يجري حتى اليوم في كمبوديا حيث تتصارع قوى عالمية عديدة على أراضيها و بأبنائها و لكن لمصالح الأجانب ، و قد هدمت البلاد و قتل من الشعب الكمبودي زهاء ثلاثة ملايين بشر.

و ليست الآلهة التي تعبد من دون الله سوى رموز للقوى السياسية و الإجتماعية التي تتصارع على استعباد البشر فتجر إليه الويلات ، و ما يخلصنا سوى التحرر من عبادتها و التمرد على سلطانها للنجاة من مشاكساتها و حروبها التي تطحننا اليوم طحنا.

]و رجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا[

كلا ..إن الرجل الذي يقوده شخص واحد باسم الله ولا تتداخل فيه شهوات الآخرين ولا ضغوطهم ولا مصالحهم يعيش دائما في حرية مستقيما في طريق واحد ، و تعصف به الإختلافات ، و لا تتحكم فيه الفوضى ، ولا يواجه مشكلة تعدد الولاءات ، إنه لا يخاف الصراعات ولا تنافس القوى عليه ، إنه يعيش بعيدا عن أهواء الشياطين و أطماع الحكام.

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين)ع) أنه قال:

"و أنا السلم لرسول الله (ص (يقول الله عز وجل : " و رجلا سلما لرجل " (١)و عن أبي جعفر (ع) في الآية قال:

"سلما هو علي (ع) لرجل هو النبي (ص) و شركاء متشاكسون : أي مختلفون و أصحاب علي مجتمعون على ولايته " (٢)(١) تفسير البرهان / ج ٤ / ص ٧٥.

(2)المصدر.

]الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون[

فلا يفرقون بين الذي يوحد الله و يخضع فقط لأوليائه و من تستعبده قوى السلطة و الثروة.

و هكذا ضرب الله لنا مثلا للتوحيد من واقع الحياة الإجتماعية و السياسية ، و ميز بين نمطين من الحياة ، حياة الإستقلال و حياة العبودية ، و ذلك تكميلا لبيان المفارقات في سورة الزمر.

أليس الله بكاف عبده

هدى من الآيات

تهبط آيات القرآن كالصاعقة على القلب الغافل فتفجر فيه طاقات الفهم ، و تثير فيه دفائن العقل ، من ذلك ما نجده في هذا الدرس حيث يهدينا الى حقيقة يحاول ابن آدم إنكارها تكبرا و علوا حتى أضحت تشبه في إنكار الناس لها الباطل ، و تلك هي الموت الذي ينتظر كل حي ، و لكن الموت هو أهون المراحل التي تنتظرنا ، فما بعده أعظم ، كالإختصام يوم القيامة ، ذلك لأن الإنسان لا يستطيع في ذلك اليوم حين يقف وحيدا أمام محكمة الحق أن يتهرب من الحقائق ، فلابد إذا أن نهتم بالمعايير الأخروية اليوم و قبل ذلك اليوم . و في بدايةسورة آل عمران قلنا : إن الإيمان بالبعث يمثل حجر الزاوية في فكر الإنسان المسلم ، حيث يحافظ على توازنه ، و يدعوه إلى الإيمان بحقائق خارج محيط ذاته و آنها هي المحور ، و إذا آمن الانسان بوجود محور في الحياة بحث عنه ، و إذا بحث عنه وجده.

و هذا الدرس إمتداد للدرس الماضي ، حيث ذكرنا هنالك أن القلب الخاشع للهيهديه الله للإسلام ، فيعترف بوجود الحق ، بعكس القلب القاسي المنغلق على ذاته ، الذي لا يعترف إلا بما يعيش داخله ، فهو يتمحور حول ذاته.

وفي هذا الدرس يعرض القرآن مفارقة بين من جاء بالصدق و صدق به ، و من يكذب على الله و يكذب بالحق و يدعي الأنداد لله ، و بعد ذ لك يعلن الله كفايته لرسوله رغم تخويف المشركين له بالذين من دونه ، و أنهم لن يستطيعوا إضلال من هداه الله ، و لا يستطيع الذين من دونه كشف الضر عنا أو منع الخير.

بينات من الآيات

[30]من أبرز و أخطر مصيبات البشر إنغلاق قلبه عن حقائق الخليقة ، و إيمانه بمقاييس ذاتية ، يقيم بها الأحداث و الأشخاص من حوله ، فكيف يتخلص الإنسان من هذه المصيبة التي تعم سائر أبناء آدم ، و تعبير آخر كيف يتقي الإنسان شح ذاته ، و يخرج من زنزانة نفسهالضيقة الى رحاب الحق ؟

لا ريب أن وعي الموت و النشور ثم الوقوف أمام محكمة الحق أقرب السبل للخلاص من هذه البلية ، ذلك أن اعتقاد الانسان بوجود مقاييس موضوعية ثابتة عند الله ، و أنه سوف يعرض عليها بأفكاره و أقواله و أعماله ، و سوف يحاكم وفق تلك المقاييس شاء أم ابى ، كل ذلك يعيده الى رشده ، و ينمي عقله على حساب هواه ، و يجعله يبحث عن تلك المقاييس اليوم و قبل فوات الأوان.

هكذا يدعونا الإيمان بالبعث الى الإيمان بكل الحقائق ، و هوكما أسلفنا حجر الزاوية في بناء صرح المعرفة عند الانسان ، و قبل الإيمان بالبعث لابد من وعي الموت.

]إنك ميت و إنهم ميتون[

فإذا مات الرسول)ص) رغم عظمته وجلال مقامه فهل يبقى أحد منا ؟! قال تعالى : " وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون " (١)و يبدو لي أن الخطاب ليس خاصا برسول الله (صً) فكل من يقرأ القرآن معني بهذا الخطاب ، لأن القرآن نزل على لغة (إياك أعني و اسمعي يا جاره. (

هكذا تبعث هذه الآية في أنفسنا يقظة ، و في أعصابنا رعشة ، و في عقولنا إثارة ، و في أفئدتنا سكينة ، فأي هيبة عظيمة للموت ، هذا الباب الذي لا يعود منه من دخله ، و لا ينجو منه من هرب منه ، و اين يذهب أعزتنا الذين نحملهم كل يوم الى المقابر مرغومين ، و نقف عند أجداثهم مرهوبين ، و يهمس في آذاننا داعية الحق آنئذ قائلا:

و إذا حملت الى القبور جنازة فاعلم بآنك بعدها محمول..

و يقول الإمام علي (عليه السلام: (

"لو رأى العبد أجله و سرعته إليه لأبغض الأمل و ترك طلب الدنيا " (٢)[٣١] و هل تنتهي المشكلة عند الموت ؟ كلا..

]ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون[

فخلافاتكم في الدنيا تنتقل الى الآخرة ، و ربنا سبحانه هو الحكم يومئذ ، و الموازين و القوانين يومئذ غيرها في الدنيا ، و علينا أن نبحث عنها و أن نطبق حياتنا(١) الأنبياء / ٣٤.

نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٨٩.

وفقها إن أردنا الحياة.

[32]و محور المعايير هنالك الصدق ، و أظلم الناس لنفسه من كذب على الله و كذب بالصدق ، و لكن كيف يكذب على الله ؟

يزعم الإنسان حينما يقسو قلبه ، و ينغلق عن الحقائق ، بأن ذاته هي الحق ، و يكون مثله مثل ذلك الذي سئل : أين مركز الدنيا ؟ فقال : حيث يقف حماري ، لقد كان يزعم هو و الكثير من أمثاله بانهم مركز الحياة ، فالعالم يبدأ من حيث هم ، و ليس من حيث هي ، و يتصورون أن الحق ما يرونه ، و الباطل ما يرفضونه ، و هذا هو الكذب على الله ، و حين يعرفون دين الله تراهم تبعا لهذه الحالة النفسية يحقون الباطل و يبطلون الحق ، و هكذا يكذبون على الله افتراءا عليه.

]فمن أظلم ممن كذب على الله[

و بيان الرسول لهذه الحقيقة شاهد على صدقه ، إذ من يكذب على الله يهون على نفسه هذا الذنب ثم يرتكبه ، بينما نرى الرسول بالعكس تماما يبين مدى جريمة الكذب على الله.

و كثير من الناس يمارسون الكذب على الله و هم لا يشعرون ، و ذلك حين يقولون : هذا حلال و هذا حرام ، دون سلطان من الله أتاهم.

و جرم الكاذب على الله عظيم ، و لا يعادله إلا تكذيب الصدق الذي يجيء من عند الله ، إذ الإنسان مسؤول عن معرفة الصدق و التصديق به ، و لايجوز أن ينطوي على نفسه و يقول : من أين نعرف صدق هذا الداعية ؟

]و كذب بالصدق إذ جاءه[

و جزاء هذا و ذاك الإقامة في جهنم ، لأنهما معا كافران.

]أليس في جهنم مثوى للكافرين[

و يترك السياق الجواب عليهم لكي تقر ألسنتهم به.

[33]و في مقابل هؤلاء يقف الصادقون فحين يخرجون عن ذواتهم يرون الحق بوضوح ، لأن مشكلة الذي لا يرى الحق إنغلاق نفسه ، فهل تدخل الشمس غرفة مغلقة مسدلة الستائر ؟! كلا .. فعلى الإنسان أن يفتح صدره ، و يزيل الستائر و الحجب من ذاته ، لكي يدخل نور الله أرجاء قلبه.

]و الذي جاء بالصدق و صدق به[

"جاء بالصدق " أي دعا إليه كالرسول ، " و صدق به " أي التزم بما آمن ، فلا يكفي الإيمان بصدق شيء

من دون العمل بمضمون هذا الإيمان ، و الصديق هو الذي يؤمن في الأوقاف الحرجة ، حيث لا تسمح له السلطات ولا يؤيده الناس.

و جاء في تفسير مجمع البيان : قيل الذي جاء بالصدق محمد (ص) ، و صدق به علي بن أبي طالب ، و هو المروي عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام . (١)و الصديق يتقي بصدقه عذاب الله:

]أولئك هم المتقون[

القرآن عادة ما يربط بين الفكر و العمل برباط التقوى ، و التقوى حقيقة تدور حولها كل الحقائق ، و هذا ما تشير إليه الآية : " إنما يتقبل الله من المتقين (1)(2) . " المصدر / ص ٤٨٩.

(2)المائدة / ٢٧.

[34]و في الجنة:

]لهم ما يشاءون عند ربهم[

لأنهم تركوا ما يشاؤونه في الدنيا ، فأهواؤهم كانت تدعوهم للخضوع الى الطاغوت ، و الميل للمجتمع الفاسد ، و الإنسياق وراء شهوة البطن و الفرج .. و هكذا أعطاهم الله ما يشاؤون ، أو لأنهم أعطوا للمحتاج ما يشاء أعطاهم الله ما يشاؤون.

و كلمة " ما " تعني الإطلاق ، فهم لا يتمنون على الله شيئا إلا أعطاهم.

و قيل : إن ما عند ربهم يشاؤونه ، فقد أعد الله لهم نعيما في الجنة يشاؤونه ، ولا تعارض في المعنيين.

]ذلك جزاء المحسنين[

بعد مرحلة التقوى يأتي الإحسان ، و الإحسان هو العطاء ، و نتساءل : هل يمكن أن يعطي الإنسان شيئا دون أن يخرج من قوقعة ذاته ؟

كلا ..فالذي يعيش في حدود نفسه و شهواتها لا يستطيع أن يعطي ، و إنما يعطي من يفكر في حاجات الآخرين قبل حاجات نفسه ، فالاحسان إذن أرفع مراحل التكامل البشري ، فقد يكون الانسان متقيا و لكن لا يعطي إلا بحساب ، و المحسن موقن بالخلف فيستسهل البذل.

و الظاهر أن الإيمان و التقوى يكتمل بالإحسان ، وهو أعلى المراحل في المسيرة الإيمانية.

[35]و يبقى المتقون خائفين من سيئاتهم التي إن بقيت أكلت جانبا من حسناتهم ، ولكن الله يطمئنهم حين يعدهم بغفرانها:

]ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا [

إذا كان الخط العام للإنسان في الحياة سليما فإن هفواته تغتفر له ، كما لو كانت إستراتيجية القائد سليمة فإن أخطاءه التكتيكية لا تؤثر عليه ، بعكس ما إذا كانت استراتيجيته خاطئة فإن صواب خططه المرحلية لا ينفعه شيئا.

و هكذا إذا كان الخط العام لحياة شخص سليما ، فتولى الله و رسوله و أولي الأمر حقا ، و نهض بواجباته في التحصن ضد الإنحرافات السياسية و الإجتماعية و الإقتصادية ، فلم ينصر ظالما ، و لا خذل مظلوما ، و لا أكل أموال الناس بالباطل ، ولا أدلى بها الى الحكام، و بالتالي اجتنب فواحش الذنوب ، ثم ارتكب

اللمم و هي الصغائر ، أو حتى الكبائر بلا جحود ولا إصرار ، ثم تاب الى ربه متابا فإنه ترجى له مغفرة الله .

أما من كان خطه العام منحرفا فكان وليا لأعداء الله ، معينا للظلمة على عباد الله ، فإن كثرة صلاته و صومه لا تنفعه ، كذلك لو عاش على الحرام حتى نبت لحمه و عظمه منه.

و لعل المعيار الأساسي في ذلك ألا تكون السيئة الصادرة من منطلق سيء ، إذ قد يرتكب المرء ذنبا و لكن قلبه لا يزال مطمئنا بالإيمان فيمكن تدارك الأمر ، و لكن الذي يرتكب الموبقات وهو جاحد بربوبية الرب ، مستحل للمحرمات ، فإن توبته الى الله بعيدة.

و تشجيعا لحالة الإحسان في الأمة ألغى الإسلام الضمان عن المحسنين الذينيقعون في الخطا ، فقال سبحانه : " ما على المحسنين من سبيل " و مضت هذه الآية قاعدة فقهية استنبط العلماء منها أحكاما كثيرة حيث اسقطوا بها الضمان من الذين يريدون الإحسان و لكنهم يخطئون فيلحقون ضررا بالطرف الآخر ، كمن أراد إنقاذ غريق فتسبب جهلهبطريقة الإنقاذ الى المساهمة في غرقه.

]و يجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون[

[36]و من العقبات التي تعترض طريق المؤمنين المحسنين خشية الناس ، و الخوف من مقاطعتهم و هجرهم ، و لكن الله و عدهم بكفايتهم شر الناس ، و الله سبحانه هو الذي يحفظ السموات و الارض أن تزولا ، فكيف لا يحفظ عبده ؟!

]أليس الله بكاف عبده[

بلى . إن الله يكفي عبده شر جور السلاطين ، و كيد الحاسدين ، و بغي الظالمين.

]و يخوفونك بالذين من دونه[

بإثارة الرعب في قلبك ممن هو من دونه سبحانه ، أن يضلوك عن سبيله.

]و من يضلل الله فما له من هاد[

لا يعلمون أن المهيمن هو الله ، و ان الأنداد من دونه ، و السلطات الطاغوتية ، و المجتمع الفاسد ، و . و . لا تملك أي قوة ، و لأنهم توجهوا إلى غير الله فقد سلب منهم الله نور الهداية فأضلهم.

[37]ومرة اخرى يؤكد الله على فكرة الكفاية بقوله:

]و من يهد الله فما له من مضل[

أي لا توجد قوة قادرة على إضلال امرء إذا اراد الله هدايته.

جاء في الحديث عن أبي عبد الله (ص (لثابت ابن سعيد:

"يا ثابت ! مالكم و للناس ؟! كفوا عن الناس ، و لا تدعوا أحدا إلى أمركم ، فوالله لو أن أهل السموات و الأرضين اجتمعوا على أن يهدوا عبدا يريد الله ضلالته ما استطاعوا على أن يهدوه ، و لو أن أهل السموات و أهل الأرضين اجتمعوا على أن يضلــوا عــبدا يريد الله هداه ما استطاعوا أن يضلوه .كفوا عن الناس ، و لا يقول أحد : عمي ، اخي ، و ابن عمي ، و جاري ، فإن الله إذا أراد بعبد خيرا طيب روحه فلا يسمع معروفا إلا عرفه ، و لا منكرا إلا أنكره ، ثم يقذف في قلبه كلمة يجمع بها أمره " (١)و هذا الحديث يفسره قوله تعالى : " فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا](2) . "أليس الله بعزيز ذي انتقام[

إن الله عزيز ، و من عزته انتقامه من الكفار ، و من مظاهر إنتقامه إضلاله للمعاندين كما أن من مظاهر عزته هدايته للمحسنين.

[38]و من أمثلة عزة الله خلقه السموات و الأرض و تدبيره لهما:

]و لئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقولن الله](١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٩٠.

(2)الكهف / ٦.

إن الله هو الذي خلق السموات و الأرض ، و هما بيده ، فلا تنظر إلى محيط دولة يحكمها قزم ، و تقول : هذا ربي . كلا .. فالذي خلق السموات و الأرض ربك و ربه ، و انتما تحت سيطرته ، و ما يملك فهو له سبحانه.

]قل أفرءيتم ما تدعــون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره]فلو اجتمعت كل سلطات العالم لتمنع عن أحد ضرر فيروس بسيط كفيروس الإيدز مثلا أتراهم يقدرون ؟ كلا..

فكل أجهزة الطب المتقدمة في الولايات المتحدة لم تستطع إنقاذ حياة الرئيس الأمريكي كنيدي بعد إصابته برصاصات قاتلة ، و كذا لم تستطع الإتحاد السوفيتي أن تنقذ حياة طاغوتها ستالين.

]أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته[

فلو شاءت إرادة الله إنزال الماء من السماء على بلد معين ، و أراد طاغوت هذا البلد منعه فهل يستطيع ؟! كلا .. إن مشكلة الإنسان هو خضوعه النفسي للطاغوت ، و إذا لم يخضع له نفسيا فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا.

]قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون[

فالله يكفيني ، و عليه توكلي.

و هذه الآيات الثلاث تسلية للرسول ومن يحمل رسالة ربه ألا يهن أو يخاف من الكفار و ممن يدعون من دونه ، فقد ضمن الله ما يلي:

- 1كفايته للرسول و من يحمل رسالته من بعده من تخويف الكافرين له.

- 2إنه سبحانه يضلل الكافرين ومن يدعون من دونه ، و لن يهديهم سواء السبيل.

- 3إن الله سوف يهدي الذين آمنوا حين يتمسكون بهداه ، و لن يضلهم أعمالهم.

- 4إن الله عزيز ذو انتقام ، لا يرد بأسه عن الذين كفروا ، فسوف يأخذهم أخذ عزيز منتقم.

- 5إن الله حين يريد بالمؤمنين خيرا فلن تستطيع قوة أن تهزمهم ، و إن حمايتهم و حسبهم و كفايتهم على الله ، لأن الله اراد ذلك.

[39]و حين يطمئن الله الرسول يأمره بتحديهم.

]قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون]هذا التحدي من الرسول)ص) ينبع من روح الإطمئنان بسبب حماية الله و كفايته و حسب ، و هذه الروح يجب أن يتحلى بها الرساليون ، و يقولون

كما قال الرسول (ص) : يا قوم ! أعملوا ما شئتم ، و امكروا ما شئتم ، و أظلموا ما شئتم ، و اقتلوا ما شئتم ، إننا ماضون علىالطريق فسوف تظهر النتائج سريعا.

[40]و هناك تعلمون:

]من ياتيه عذاب يخزيه و يحل عليه عذاب مقيم[

ففي محكمة العدل الإلهية يتقرر من الصالح ومن المفسد ، فهناك الميزان الحق ،و المقاييس السليمة .. و تذكرة القرآن بذلك اليوم تحقق التعادل في النفوس السليمة . فلا تأبه بالمعايير المادية الخاطئة.

[41]إذا فمن اهتدى بالكتاب فقد آمن يوم الفزع الأكبر ، و من ضل فقد ضل على نفسه ، و هو الخاسر الوحيد ، إذ يخسرون في يوم القيامة أنفسهم و أهليهم.

]إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق[

القرآن هو ذلك المقياس يوم القيامة ، و سياتي مجسدا يوم القيامة ، فلابد من أن نجعله مقياسا لنا في الدنيا.

]فمن اهتدى فلنفسه و من ضل فإنما يضل عليها[

فالهدى له ، و الضلالة عليه.

]و ما أنت عليهم بوكيل[

كل إنسان لابد أن يواجه مصيره بنفسه ، و يختار طريقه بإرادته ، و يتحمل مسؤولية اختياره ، و لا أحد يتحمل مسؤولية أحد ، حتى الرسول ليس و كيلا عن قومه ، إنما هو نذير.

قل لله الشفاعة جميعا

هدى من الآيات

إن آيات الله في الكون و التي يشير إليها هذا الدرس ، ليست فقط دليلا للإنسان على وجود الله ، بل طريقا إلى معرفته المعرفة الأسمى أيضا . و على الإنسان أن لا يكتفي بدرجة من الإيمان بل يتابع مسيرته التكاملية حتى يصل إلى مرحلة العرفان ، و للعرفان أيضا درجات ، فكلما تفكر الواحد في آيات الله في الآفاق و في نفسه ، و التحولات و التغيرات التي تحدث عنده ، كلما ازداد يقينا و معرفة ، حتى يبلغ الحد به أن يقول:

"لو كشف ليم الغطاء ما ازددت يقينا " (١)كما قالها سيد العارفين الإمام علي)ع. (

(1)غرر الحكم / ص ٦٠٣.

بينات من الآيات

[42]تقارن الآية الأولى بين النوم و اليقظة ، و بين الموت و الحياة عند الإنسان ، فكما لم يكتشف العلم لغز الموت ، فإنه لم يكتشف لغز النوم أيضا ، و هما أخوان ، و لكن بينما ينام الإنسان بخروج جزء من روحه ، أو حسب تعبير بعض المفسرين (خروج نفسه و بقاءروحه) ، فإن كل روحه تخرج بالموت . ولو فسرنا كلمة النفس بالعقل ، فلا ريب أنه في حالة النوم يعيش البشر سباتا عقليا.

و يذكرنا الله بأن الله هو الذي يسلب نفس الإنسان و يأخذها في حالتين : حالة النوم ، و حالة الموت ، فالتي يسلبها في حالة النوم يردها على صاحبها عند اليقظة ، بينما يدع تلك الاخرى عنده إلى يوم البعث.

و في الحديث عن أبي جعفر (ع) أنه قال:

"ما من عبد ينام إلا عرجت نفسه الى السماء ، و بقيت روحه في بدنه ، و صار بينهما شعاع كشعاع الشمس ، فإذا أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس ، و إن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح " (١)و في حديث آخر قال الامام الصادق (ع: (

"إذا أوى أحدكم الى فراشه فليقل : اللهم إني أحبست نفسي عندك ، فأحتبسها في محل رضوانك و مغفرتك ، فإن رددتها إلي بدني فارددها مؤمنة عارفة بحق أوليائك حتى تتوفاها على ذلك " (٢)و ربنا في هذه الآية يقول:

(1)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٤٨٩.

(2)المصدر / ص ٤٨٨.

]الله يتوفى الأنفس حين موتها[

و في اللغة توفى بمعنى أخذ الشيء وافيا.

]و التي لم تمت في منامها[

تلك النفس التي لم تمت يتوفاها الله عند النوم.

]فيمسك التي قضى عليها الموت[

ولا يدعها تعود الى الجسد ، و لعل الآية تشير الى أن للنفس ولها بالجسد و تريد العودة إليه ، و لكن الله يمسكها إمساكا.

]و يرسل الآخرى إلى أجل مسمى[

أما النفس التي لم تمت بل نامت فانه تعالى ياخذها ثم يعيدها الى صاحبها لفترة معينة هي حلول أجله . فاذا حل سلبها منه دون عودة الا عند البعث.

فما هذه الروح ؟ هل هي كامل الروح ؟ أم شعاع منها ؟ أم شيء آخر ؟

في الواقع ان مسائل الروح لا تزال بعيدة عن افهامنا . و الآية تشير بوضوح الى الموت و طبيعته ، و نحن لم نمت و لم يعد الينا من مات ليخبرنا عن واقع الأمر ، و لكننا ننام و حيث يخبرنا الرب بأن الموت مثل النوم نستطيع ان نتعرف عليه نسبيا من خلاله.

و يقتبس لقمان من هذه الفكرة حكمة فيقول لابنه وهو يعظه بالموت:

"يا بني ان تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم و لن تستطيع ذلك ،وان كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ، و لن تستطيع ذلك ، فانك اذا فكرت في هذا عرفت ان نفسك بيد غيرك ، و انما النوم بمنزلة الموت ، و انما اليقظة بمنزلة البعث بعد الموت " (١)و يقول ابو ذر الغفاري (رضوان الله عليه) ، مستوحيا فكرته من هذه الآية الكريمة : " كما تنامون تموتون ، و كما تستيقظون تبعثون " فلماذا نحن نتعجب من البعث و النشور ، بينما لا نتعجب من اليقظة بعد النوم ؟! أوليس القادر على

ايقاظ النائم من نومه بقادر على ان يعيد الى الميت الحياة ؟!

]إن في ذلك لأيات لقوم يتفكرون[

و لعل المعنى الحقيقي لكلمة التفكر هو تحريك المعلومات و ربطها ببعضها و تحليلها ، و الذين يفعلون ذلك يصلون الى مغزى الموت و النوم ، و يعرفون من وراء التحول من يحول ، و من خلال التدبير من يدبر و هو الله سبحانه و تعالى.

و انهم يعرفون من خلال ذلك الشيء ، ان القدرة المهيمنة على نهاية حياة الانسان ، هي التي يجب ان تعبد حقا.

[43]أما الشفعاء المزعومون من دون الله و الذين لا يملكون الموت ولا الحياة ، و هما أهم قضيتين في حياة الانسان ، فلا يحق لهم ان يتحكموا في حياته ، و لا ان يخضع هو لهم ابدا.

]أم اتخذوا من دون الله شفعاء[

(1)بح / ج ١٣ / ص ٤١٧.

و للشفعاء المرفوضين عند الله تفسيران:

الاول انهم الشركاء من دون الله ، و هم رموز القوى المؤثرة في حياة البشر ، كسلطان القوة و المال و الشهرة . و ينفي القرآن أية قيمة لهذه القوى عند الله ، فلا يزعم صاحب السلطان و الغنى و الشهرة ان ميزته في الدنيا تستمر الى الآخرة . بل إنه يأتي ربه يومئذفردا فقيرا مغمورا ، ولا يزعم الواحد منهم كما زعم صاحب الجنتين اذ قال لصاحبه وهو يحاوره : " ما اظن ان تبيد هذه أبدا * و ما اظن الساعة قائمة و لئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا " (١)الثاني : انهم الذين يزعم البشر ان باستطاعته التهرب من المسؤولية بسببهم ، و ذلك بالقاء مسؤولية ضلاله و انحرافه عليهم ، كأن يلقي بمسؤولية انحرافه و ضلاله على والديه ، أو السلطات الحاكمة ، أو المجتمع.

و لكن الله ينسف فكرة الشفاعة عموما فيقول:

]قل أولو كانوا لا يملكون شيئا[

كالنفع و الضر أو الموت و الحياة ، أو أقل من ذلك . لان الملك كله لله عز وجل.

]ولا يعقلون[

لانهم لو كانوا يعقلون لم يكونوا ليأمروا بما يخالف رضى الله تعالى . فهم اذن لا قوة لهم ولا علم . ومن يكون هكذا لا يكون شفيعا.

[44]ان الشفيع الحقيقي هو الله الذي بيده ناصية كل شيء ، و اذا كان ثمة آخرون فانما يشفعون باذنه.

(1)الكهف / ٣٥ - ٣٦.

]قل لله الشفاعة جميعا[

فاذا أراد البشر ان يفر من عذاب الله ، فليهرب اليه تعالى ، فليس من ملجأ منه الا اليه كما قال ربنا : " ففروا الى الله " و كلنا يخشى من ذنوبه و لكن لن نجد غافرا للسيئات التي احتطبناها سوى الله.

ومن عادة البشر انه اذا أذنب ذنبا حاول تبريره ، أو اخترع لنفسه شفيعا يزعم أنه سوف يخلصه من ذنبه ، و الله يقول : لا ، لماذا تذهب هنا و هناك ؟! تعال الي ، حتى ولو كنت مذنبا تعال ، فانا الذي اخلصك من الذنب ، لا اولئك الشفعاء ، ولا تلك التبريرات.

]له ملك السماوات و الأرض ثم إليه ترجعون[

فالله هو الشفيع حقا، لانه هو السلطان في السماوات و الارض ، فهو الذي يدبر الامور اليوم و اليه المصير حيث السحاب الدقيق والجزاء الأوفى.

] [45]وإذا ذكر الله و حده أشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالأخرة]لانهم لا يؤمنون بالآخرة ، و يحاولون التهرب من المسؤوليات ، و يعرفون انه اذا كانت الآخرة أمرا واقعيا فانهم سوف يحملون عبأ الامانة ، لكل ذلك تراهم يشمأزون فحربهم لفكرة الآخرة انما هي بدافع نفسي ، فهم لا يحبون القيامة لانهم لا يحبون المسؤولية ، و المثال على ذلك : اذا قيل لمجرم : جاء الشرطة يشمأز قلبه ، لماذا ؟ لان الشرطة سيأخذونه الى المحكمة ، و من ثم الجزاء العادل ، و أما الرجل المظلوم ، الذي يسمع وهو بين يدي من يظلمه ، ان جاء الشرطة تراه يحمد ربه ، لماذا ؟ لانه سوف يتخلص من يد الظالم .. و هكذاالمؤمنون يشتاقون الى الآخرة ،

لانهم يعرفون ان هناك الجزاء الأوفى لحسناتهم ، بينما الكافرون تشمئز قلوبهم ، اذا ذكر الله وحده ، لانهم يفتشون عن إله يخلصهم من رب السماوات و الأرض ، و يخلصهم من ذنوبهم و سيئاتهم.

]و إذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون[

فاذا كانوا يتحدثون عن الأباء ، و القيم الفاسدة ، و الشفعاء الموهومين ، فانهم يرتاحون نفسيا.

و تجد هذه الآية تطبيقها في كل انسان ، خصوصا في العالم المتخلف ، حيث لا نحب نحن البشر الاستماع الى من يحدثنا عن مسؤولياتنا ، أما اذا تحدثوا الينا عن تبرير وضعنا الفاسد و القاء المسؤولية على الدول أو على الخطوط ، أو على القضاء و القدر ، فاننا نستمع مرتاحين ، و السبب هو أن مثل هذا الكلام لا يحملنا المسؤولية.

[46]و في مواجهة هذا الانحراف الكبير و الضلال البعيد يتوكل المؤمن على الله و يدعوه ضارعا ليثبت فؤاده حتى لا يتأثر بإشمئزازهم من ذكر الله ، و في ذات الوقت يتحداهم بالمزيد من ذكر ربه.

]قل اللهم فاطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادة]حين ينشق شيء يقال انفطر ، و الله شق العدم بالخلق فاذا بالسماوات و الأرض تخرجان من ضميره.

و من معاني الانفطار ان السموات و الارض لم تكونا فكانتا مرة واحدة ، فابدعهما من غير مثال يحتذي به ، و من معانيه انهما كانتا رتقا ففتقهما بقدرته.

]أنت تحكم بين عبادك[

ان تعميق الاحساس برقابة الله في نفس الانسان ، و انه هو الحاكم بين عباده ، يجعله لا يعصيه ، لانه لا يمكن له الكتمان عليه أو الكذب عليه يوم القيامة.

و اذا كان هو الحاكم بين عباده فما هو دور الشركاء الذين يتخذ منهم الكافر شفعاء ، و يتشبث بهم هربا من المسؤولية ؟!

علما بأن محكمة الله آنئذ تحكم بين الناس بالحق.

]في ماكانوا فيه يختلفون[

فهنالك الكلمة الفصل ، التي لا ريب فيها ، و لا تلبيس ، و لاتحيط بها ضلالات الهوى ، و تبريرات الشهوات ، و كلما تفكر الانسان في ذلك اليوم ، و في ميزان الحق الذي ينصب فيه ، كلما تباعد عن محورية ذاته ، و تحصن ضد قسوة القلب و انغلاقه دون فهم الحقائق.

[47]فمن كفر بالله و ظلم نفسه أو الناس هلك ولا تنفعه ثرواته شيئا.

]و لو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا و مثله معه لأفتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة]و في آية اخرى يقول الله : " ان الذين كفروا و ماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الارض ذهبا و لو افتدى به اولئك لهم عذاب اليم و مالهم من ناصرين " (١)بلى قد يبيع المرء نفسه بثمن بخس فيشتري جهنم بغيبة أو بكذبة ، و ما ابخس هذا الثمن اذا كانت النار عاقبته!

(1)آل عمران / ٩١.

و هكذا يهون علينا القرآن شأن الدنيا حتى لا تخدعنا زخارفها ولو كانت الارض كلها بايدينا فهي تعف عنها انفس المؤمنين بالآخرة ، لان عذابها لا يزول بافتداء كل الارض و مثلها معها ، فما شأن بيت معمور فيها أو زوجة حسناء أو منصب بسيط ؟!

]وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون[

لان كتابهم آنذاك لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها مما لم يكونوا يتوقعونه و لم يحتسبوا ان الامر بهذه الدقة و بهذه الجدية ، و في الحديث عن الامام الباقر (ع) قال:

"اتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالبا ، يقول احدكم : اذنب و استغفر الله ، ان الله عز وجل يقول : " سنكتب ما قدموا و اثارهم و كل شيء احصيناه في امام مبين " و قال عز وجل : " انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات و الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير " (!)و يبدو من خلال الآية ان الانسان قد يتصور ان مجرد ذنوبه البسيطة قد لا تسبب له دخول النار ، و لكن الحقيقة شيء آخر ، اذ تجتمع الذنوب الى بعضها حتى تكون كالجبل على قلبه.

وفي الحديث عن الامام ابي الحسن)ع: (

"لا تستكثروا كثير الخير ، و لاتستقلوا قليل الذنوب ، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا ، و خافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف] [48](2) " و بدا لهم سيئات ما كسبوا[

(1)بحار الانوار / ج ٧٣ / ص ٣٢١.

(2)بحار الانوار / ج ٧٣ / ص ٣٤٦.

فالسيئات التي مكروها في الحياة الدنيا بدت لهم على حقيقتها . اذ ان النفس الامارة و الشياطين من الجن و الانس كل اولئك يزينون للبشر سيئات أعماله ، حتى تختفي ظاهر سوءاتها و تبدو لهم انها حسنات ، و ذلك باظهار حسناتها ، بيد انها في القيامة حيث تبلو السرائر تظهر سيئات أعمالهم التي

اكتسبوها.

و قد تكون الآية تشير الى تجسد الأعمال ، حيث تصبح السيئات عقارب و حيات و نيران ملتهبة ، و الدليل على ذلك قوله تعالى:

]و حاق بهم[

أي احاط بهم.

]ما كانوا به يستهزءون[

فذات الرسالة التي استهزأوا بها اهلكتهم ، فالقرآن في يوم البعث يقود من اتبعه هنا الى الجنة هناك ، و يسوق من تولى عنه هنا الى النار هناك . و هكذا كل رسالات الله.

[49]و يمضي السياق قدما في بيان ان الثروة ليست قيمة مطلقة لانها ليس فقط لا تغني شيئا عن عذاب الله في الآخرة ، بل ولا عن بلائه في الدنيا حينما تحيط بالانسان الضراء فتراه يدعو ربه ، و لكنه لايلبث ان ينسب النعم الى ذاته ، و يزعم بانه انما حصل عليها بعلمه . كلا انها من عند الله و لكنها ليست دليلا على كرامته عنده ، بل هي مجرد فتنة يمتحن الله بها خلقه.

]فإذا مـس الإنـسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم]و هذه الآية تكمل الآية الثامنة من هذه السورة ، حيث ان الانسان هناك نسب النجاة الى الانداد بينما هنا نسبها الى نفسه ، و الفرق واضح ، ففي المرة الاولى أله غيره ، و في المرة الثانية أله نفسه ، و اعتقد ان ما خوله الله به من نعمة انما هو من داته.

ولان السياق هناك كان في مقام نفي الانداد فقد عالج حالة الشرك بهم ، بينما السياق هنا - فيما يبدو - ينفي قيمة الثروة فأنه عالج عبادة الذات و الزعم بأن ما حصل عليه من النعم كانت بعلمه.

و تذكرنا الآية بما قاله قارون " اذ قال له قومه * لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين * و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا و أحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين * قال انما أوتيته على علم عندي " . (١(

]بل هي فتنة و لكن أكثرهم لا يعلمون[

لماذا قال ربنا أولا " نعمة "و هي صيغة مؤنث حيث استخدم ضمير المذكر ثم عاد إلى صيغة المؤنث ؟

لعل الجواب ان الأصل في السياق استخدام صيغة المؤنث و انما انصرف عنه في قوله " :أوتيته " ، لبيان ان الله انما خوله شيئا من النعمة ذلك ان الانسان يتصور انه حاز على النعمة جميعا بينما لم يخوله الله الا شيئا بسيطا منها ، فاذا هو بهذا القليل يطغى فكيف بكل النعم.

و يشير السياق الى انه ينبغي الا يرى الانسان ان النعمة خير له .. بل قد تكون فتنة و ابتلاء ، بل قد تكون استدراجا من الله له ، ففي الرواية عن أمير المؤمنين -(١ (القصص / ٧٦ - ٧٨.

عليه السلام:

"يا ابن آدم ! اذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه و انت تعصيه فاحذره " (١)و قال عليه السلام:

"كم من مستدرج بالاحسان اليه ، و مغرور بالستر عليه ، و مفتون بحسن القول فيه ، و ما ابتلى الله أحدا بمثل الاملاء له " (٢)و أمرنا الاسلام بان نكون على حذر شديد من النعم لكي لا تغرنا ، قال أمير المؤمنين عليه السلام :

"أيها الناس ! ليراكم الله من النعمة و جلين كما يراكم من النقمة فرقين ، انه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا ، و من ضيق عليه في ذات يده فلم ير ذلك اختبارا فقد ضيع مأمولا(3) " بل يجب ان يكون خوف الانسان من الغنى أشد من خوفه من الفقر ، و من الصحة أِشد من خوفه من المرض ، فقد و ضع الله سبحانه الحرج عن المريض ، و لم يكلف الله نفسا الا بما أتاها بينما صاحب العافية و الثروة تلزمه مجموعة كبيرة من الحقوق لو قصر فيها استحق العذاب، و في الحديث:

"لا يؤمن احدكم حتى يكون الفقر أحب اليه من الغنى ، و المرض أحب اليه من الصحة (العافية) "(١) بحار الانوار / ج ٧٣ / ص ٣٨٣.

(2)بحار الانوار / ج ٧٣ / ص ٣٨٣.

(3)بحار الانوار / ج ٧٣ / ص ٣٨٣.

[50]و في التأريخ عبرة فلقد اهلك الله من القرون من كان يملك الثروات الطائلة ، و يزعم أنها تمنحه الحرية في التصرف حيث يشاء ، و التهرب من مسؤولية أعماله السيئة ، و قد قال مثل قول هؤلاء انه حصل على الثروة بعلمه فهو قادر على دفع الضرر عن نفسه.

]قد قالها الذين من قبلهم[

فاوغلوا في المعاصي اغترارا بالنعم .

]فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون[

[51]لقد اعتمدوا على مكاسبهم المادية ، و زعموا انها تحلل لهم السيئات ، أو لا اقل يقدرون على دفع العقاب عن أنفسهم ولكن هيهات.

]فأصابهم سيئات ما كسبوا[

ولزمهم عقاب ما اجترحوا من الذنوب و تلك سنة الله تجري فيمن ياتي كما جرت فيمن مضى.

]و الذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا]جزاء للسيئات التي اكتسبوها.

]و ما هم بمعجزين[

اي لا يعجزون الله اهلاكهم ، أو احضارهم الى جهنم.

[52]لقد زعموا ان علمهم كان سبب مكاسبهم ، فرد عليهم القرآن اولا ماذاتغني مكاسبكم عن العذاب ، و ثانيا بان الرزق من عند الله . و يبدو ان الرزق يختلف عن الكسب ، فالرزق هو ما يعطيه الله سواء بسعي أو بدون سعي ، و الكسب هو الذي يحتاج الى سعي ، فكل كسب رزق ، و ليس كل رزق كسبا ، و النعم الاولية الفطرية هي رزق من الله مثل السمع ، و البصر و الفؤاد ، و القوة ، و الشباب.

ولو لم يكن رزق الله هل كان يقدر الانسان على الكسب ؟

لو لم يعطك الله السمع و البصر و الفؤاد هل كنت قادرا على السعي وراء رزقك ؟ ولا تحصى نعم الله التي توفر للانسان فرصة لكسب و من دون واحدة منها لا يقدر عليه فهل بعد ذلك يصح الادعاء بان علم الانسان هو سبب غناه ؟! كلا..

]أولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر إن في ذلك لايات لقوم يؤمنون]أما غير المؤمنين

فتراهم ينسبون الرزق لكل شيء سوى الله . فترى الواحد منهم يربط رزق الله بنفسه ، حتى يعتقد انه هو الذي رزق نفسه ، أو يربط رزق الله بالنجوم ، فالنجوم هي التي رزقته ، و لكنه ليس مستعدا ان يقول : بأن الله هو الذي رزقني ، لانه لو قال لكانعليه ان يؤدي حقوقه و يلتزم بالمسؤوليات.

إن الله يغفر الذنوب جميعا
هدى من الآيات
يذكرنا ربنا في آيات هذا الدرس برحمته الواسعة ، و الى أي مدى يمكننا الإستفادة منها . أوليس الله أنعم علينا برزقه الواسع ، و أسبغ علينا نعمه ظاهرة و باطنة ؟!

أو ليس الله دعانا للاستفادة من رحمته ، و أن لا نقنط منها حين نسرف على أنفسنا بالذنوب ؟!

بلى .و لكن طالما تحول بيننا و بين رحمة ربنا العقبات النفسية كإسرافنا على انفسنا بالذنوب ، و قنوطنا من رحمته تعالى بسببها ، و هكذا بعض العقبات الإجتماعية التي تنتهي الى ذات المشكلة.

و قد جاء هذا الدرس ليعالج جانبا من المشاكل النفسية والإجتماعية عند الإنسان.

بينات من الآيات
و أشرقت الأرض بنور ربها
هدى من الآيات
تذكرنا آيات هذا الدرس بيوم القيامة الذي لا سبيل للخلاص من عقباته و عذابه الا بالتوحيد و التقوى ، أما الشرك فانه يحبط أعمال الانسان ولو كانت من رسول الله (ص) على عظمته.

كما نجد في الآيات تأكيدا على هيمنة الله على الكون ، و التي تدعونا لعبادته و التسليم له تسليما مطلقا ، ولا يشرك البشر بشيء الا اذا اعتقد بهيمنته و سيطرته و لو على جانب من الحياة ، و انما يخضع البعض لانظمة الطواغيت بسبب هيمنتهم الظاهرية على المجتمع.

بينات من الآيات
[61]حدثنا ربنا في نهاية الدرس السابق عن المتكبرين الذين يحشرون بوجوه مسودة ، و في جهنم يخصص لهم واديا سحيقا يلقون فيه أشد الوان العذاب ، و هذا ممايثير الخوف في النفس فاراد الله تعالى ان يدخل الاطمئنان و الرجاء على عباده المؤمنين حيث وعدهم مباشرة بالنجاة من العذاب ، و براحة البال.

]و ينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم[

و المفازة من الفوز ، و معناها النجاة ، و المؤمنون ينجون بتقواهم.

]لا يمسهم السوء[

و هو ادنى العذاب.

]و لا هم يحزنون[

من طبيعة الانسان انه اذا وجد جزاء عمله و كان طموحا فانه غالبا ما يستقله و يعتقد ان عمله كان أكبر منه ، أما المؤمنون فانهم يجدون أن جزاءهم الأوفى فترضى به نفوسهم ، ولا يحزنون على ما قدموه من عمل أو أنفقوه من مال أو نفس ، ذلك أنهم يرون جزاءهم الاوفىفي يوم القيامة ، و هو اكبر بكثير مما كانوا يتوقعونه فانهم لا يحزنون.

[62]و يعرفنا ربنا نفسه من خلال القرآن.

]الله خالق كل شيء و هو على كل شيء وكيل[

أي حافظ و مهيمن و مدبر ، و الآية تنسف فكرة التفويض التي تزعم بانه تعالى خلق الاشياء ثم تركها و شانها.

] [63]له مقاليد السماوات و الأرض[

يتصرف فيهما كيف يشاء ، و المقاليد جمع مقليد أو مقلاد ، و معناه المفتاح ،فمفاتيح السماوات و الارض بيده عز وجل ، و كون مفاتيح الشيء بيده يدل على انه متصرف في ذلك الشيء و فيما يحتويه.

و لعل كلمة مفاتيح تدلنا على وجود سنن و انظمة تحكم هذا الكون ، و مع ان ربنا فوق السنن و الانظمة ، الا انه بحكمته يهيمن على الخلق من خلالهما ، و لان المؤمنون يسلمون له تعالى ، و يتبعون آياته فانهم و حدهم الذين يفلحون و يفوزون في الحياة ، و يسخرونها افضل من غيرهم لصالحهم.

]و الذين كفروا بايات الله أولئك هم الخاسرون[

و الآية هي العلامة من الشيء ، و آيات الله هي العلامات الهادية للحق و الصلاح ، و حيث يرفضها الكفار يضلون ولا يبلغون الفوز و الفلاح.

[64]و يامر الله نبيه الاكرم (ص (بتحدي هؤلاء.

]قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون[

أنهم يجهلون بالله ، ولا يعرفون هيمنته على كل شيء و خلقه له ، و يرتكزون في الجهل بصورة اعمق حينما يظنون ان الانداد التي يزعمونها من دونه تستحق العبادة ، و يامرون الناس بالخضوع لها.

و ليس شرطا ان تكون هذه الانداد من الحجارة ، بل هي كل باطل يخضع له الانسان ، سواء تمثل في فكرة يؤمن بها أو طاغوت يخضع له ، كما أنه ليس المقصود من العبادة فقط الركوع و السجود أو طقوس عبادية خاصة يقوم بها الانسان تجاه من يشرك بهم ، بل ان اعانتهم و طاعتهم و حتى الرضى النفسي بهم يعد عبادة ، و يجب على المؤمن ان يرفض ذلك كله.

[65]ثم يبين الله الموقف الحاسم من الشرك و المشركين ، فيحذر نبيه (ص) تهديدا حقيقيا ، بانه لو افترض ان اشرك بالله فان جزاءه سيكون كسائر الناس ، و اذ يخصص ربنا الخطاب هنا باقرب الناس اليه وهو النبي محمد (ص) مع عصمته لكي يبين لنا بان الشرك أعظم الذنوب عنده تعالى.

]و لقد أوحي إليك و إلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك]لان اعمال الانسان انما تكون مقبولة حينما يكون اطارها العام أطارا توحيديا ، أما لو عملت الصالحات و انت تشرك فلن تنفعك أبدا.

]و لتكونن من الخاسرين[

و هذه نتيجة طبيعية لاحباط العمل ، ذلك ان ما يجلب للانسان الفلاح و الفوز هو عمله الصالح فاذا احبط فأنى له الفوز ؟

و لعل هذه الاية من أخوف آيات القرآن الكريم ، و تأتي في هذا الدرس تقابل أرجى الآيات وهي قوله تعالى : " قل يا عبادي الذين أٍسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم(1) " و يدخل اجتماع هاتين الآيتين في سورة واحدة في سياق التوازن القرآني الدقيق . حيث يعيش قارؤه معادلة دقيقة طرفاها الخوف و الرجاء.

و كيف لا تكون هذه الاية من أخوف الآيات ، و هي تنذر الانسان بانه قد يعمل الصالحات عشرات السنين دون نتيجة بسبب شركه ، و من الشرك خضوعه للحاكم(١ (الزمر / ٥٢.

الجائر ؟!

[66]و في مقابل دعوة الله نبيه و بالتالي كل مؤمن لرفض الشرك في الآيتين المتقدمتين ، يدعوه في هذه الآية لعبادة الله و حده و شكره على توفيقه له لعبادته . لان ذلك من اكبر نعم الله على الانسان.

]بل الله فاعبد و كن من الشاكرين [

و في تقديم كلمة الله (المفعول له) على الفعل و الفاعل (فاعبد) دلالة على ان العبادة يجب ان تكون خالصة منحصرة لله و حده . و هذا يشبه تقديم الضمير المنفصل " إياك " وهو المفعول على الفعل و الفاعل " نعبد " في سورة الحمد ، أما الشكر المامور به فهو على عبادة الله التي لا تتم إلا بتوفيق الله أو هو على عموم نعم الله.

[67]ثم - و بصورة اخرى - يؤكد لنا القرآن ضرورة عبادة الله ، التي تأتي نتيجة معرفته عز وجل . و المشركون و الكافرون انما عبدوا غير الله بسبب جهلهم به و بقدرته . الامر الذي جعل تقديرهم له دون مقامه مقام الربوبية.

]و ما قدروا الله حق قدره و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السملوات]يتصرف فيهما و فيمن عليهما من الخلق كيف يشاء ، فهذه الارض مع حجمها الكبير في نظرنا ، و السماوات السبع التي يعجز العقل عن استيعاب مداها ، و الخيال عن تصور سعتها ، يشبه هيمنته على احداهما بهيمنة الانسان على قطعة النقد الصغيرة التي تكون في قبضته ، و يشبه الاخرى بالورقة الملفوفة في يمينه ، و لا ريب ان قبضته تعالى كما يمينه ليستا بمعنى وجود جارحة لله سبحانه و انما هما رمز لقدرته و ارادته ، كما اليد رمز لقوة الانسان ، و ربنا انما يستخدم التشبيهات المجازية لتقريب المعنىالى اذهاننا ولو وصف لنا قدرته كما هي لما استوعبت ذلك عقولنا.

]سبحانه و تعالى عما يشركون[

ان من اسباب الشرك عند الانسان هو عدم معرفته بالله ، فيتصوره بعقله المحدود عاجزا محدودا مثله ، و يزعم انه يحتاج الى الشركاء ليدبر شؤون الخلق . و ربنا منزه عن ذلك ، فمن هذه قدرته لا يحتاج الى الشركاء ، و لا يجوز لنا باي حال ان نشرك به.

و بخصوص هذه الآية قال الامام الباقر (ع: (

"ان الله لا يوصف ، و كيف يوصف و قد قال الله في كتابه " و ما قدروا الله حق قدره " ؟ فلا يوصف بقدر الا كان اعظم من ذلك " (١)و عن سليمان بن مهران قال : سألت ابا عبد الله (ع) عن قوله عز وجل " ما قدروا .....الاية " فقال " :يعني ملكه لا يملكه معه أحد ، و القبض الى الله تعالى في موضع آخر المنع و البسط منه ، و الاعطاء و التوسيع " ... و الله يقبض و يبسط واليه ترجعون " يعني يعطي و يمنع و القبض منه عز وجل في وجه آخر الاخذ ، و الاخذ في وجه القبول كما قال : " و يأخذ الصدقات " أي يقبلها من أهلها و يثيب عليها فقوله عز وجل : " و السماوات مطويات بيمينه " ؟ قال : اليمين اليد ، و اليدالقدرة و القوة ، لقوله عز وجل " و السماوات مطويات بيمينه " أي بقدرته و قوته " (٢)[٧٨] و يهدينا القرآن الى أحد مظاهر قدرة الله و هيمنته ، و ذلك حينما ينفخ في(١) البرهان / ج ٤ / ص ٨٤.

(2)المصدر.

الصور فيصعق بذلك كل الخلق في اقل من لحظة ، ولا يبقى أحد الا بعض من الناس و الملائكة يحفظهم الله من ذلك النفخ و لعل من بينهم الشهداء.

]و نفخ في الصور فصعق من في السماوات و من في الارض إلا من شاء الله]و بعد هذه النفخة تكون نفخة اخرى تدب بسببها الحياة في الجميع.

]ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون[

و النظر هنا ينصرف لاحد معنيين ، فاما أن يكون بمعنى النظر المتعارف حيث تموت بالنفخة الاولى كل حواس الانسان ثم تعود لطبيعتها مرة اخرى و من بينها حاسة النظر ، وأما يكون بمعنى الانتظار لانهم في النفخة الثانية يستنهضون للجزاء فاما الى الجنة أو الى النار، و هذا ما يجعل الجميع ينتظر الحكم الصادر بشأنه كقوله تعالى : " و اني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون " . (١)و من هذه الآية يتبين ايضا ان الناس يموتون مرتين ، مرة في الدنيا و مرة بعد الحساب عند النفخة الاولى ، و هذا بدوره يفسر قوله تعالى حكاية عن المشركين : " قالوا ربنا أمتنا اثنتين و احييتنا اثنتين " (٢)كما يحتمل ان الموت في النفخة الاولى يخص الموجودين في حينها ممن لم يموتوا بعد ، بينما تشمل الحياة من النفخة الثانية الجميع.

[69]و ينقلنا السياق الى جانب آخر من يوم القيامة ، اذ تشرق الارض بنور(١) النمل / ٣٥.

غافر / ١١.

الله ، و توضع الموازين للحساب العدل و توفى الانفس أعمالها التي احصاها الله بعلمه.

]و أشرقت الأرض بنور ربها[

الذي يخلقه و يتجلى من خلاله جلاله و عظمته ، و قد يتجلى الله في خلقه الشمس و القمر ، و قد يتجلى في ابداع نور تشرق به الارض ذلك اليوم.

و في الاخبار عن المفضل بن عمر قال :سمعت ابا عبد الله (ع) يقول:

"إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربها و ذهبت الظلمة " (١)و لا شك ان نهوض امام الحق و ما يتبع ذلك من قيام حكومة العدل الالهية هو من أبرز تجليات نوره تعالى ، أو ليس الانبياء و الرسل و الاولياء هم نور الله في الارض ؟

]و وضع الكتاب[

ليحاسب الله الناس على أعمالهم ، و الكتاب هنا هو الميزان و المقياس و نستوحي من ذلك ان الاشياء تتحول في الآخرة من صيغتها المعنوية الى المادية ، فالكتاب الذي هو ميزان الحق و الباطل ، و فرقان بينهما في الدنيا ، يتحول الى ميزان محسوس يراه الناس في الآخرة.

]و جاىء بالنبيين و الشهداء[

و هم ميزان آخر لمعرفة الحق و الباطل و محاسبة الناس ، فالانبياء ميزان بعصمتهم(١) نور الثقلين / ج ٤ / ص ٥٠٤.

و سلوكهم النموذجي ، بينما الشهداء ميزان بمواقفهم و شهادتهم على مجتمعاتهم ، حيث كانوا طليعتها ، و لعل الشهداء هنا اشمل من ان نحصرها في اولئك الذين يجاهدون من أجل الحق ، و يسقطون مضرجين بدمائهم ، انما هم كل من يلتزم بالحق فيصير حجة على الناس . فأيوب (ع)حجة على الذين ينهزمون امام الابتلاء ، و يوسف (ع) حجة على الذين يغترون بجمالهم ، كما أن الذين يثورون و يتجاوزون ارهاب الطغاة حجة على القاعدين و الخانعين.

و حيث يحضر هذان الميزانان يحاسب الناس بهما و فيهما يتجلى الحق.

]و قضي بينهم بالحق و هم لا يظلمون[

و عدم الظلم نتيجة مترتبة على كون المقاييس حقانية و عقلانية ، و انما يجوز الحاكم باتباعه الباطل في قضائه ، و مادام الامر كذلك فالناس اذن هم الذين يظلمون أنفسهم بمخالفتهم الحق اذا قضي عليهم بالعذاب . و الله يقول بهذا الشأن : " ان الله لا يظلم الناس شيئا و لكن الناس أنفسهم يظلمون " (١(

[70]ثم يؤكد الله عدالته في الحساب.

]و وفيت كل نفس ما عملت[

و السؤال لماذا لم يقل الله و وفي كل شخص ، أو و وفي كل انسان ، و الجواب كما يبدو انه تعالى يريد بيان حقيقة هامة ، و هي ان الانسان لا يحاسب على أعماله الظاهرة التي يمارسها باعضائه و حواسه و حسب ، بل يلاقي جزاءه خيرا كان أو شرا حتى على أعمال النفس وتصرفاتها ، عل فكره ، و حبه و بغضه ، و الحساب الالهي ليس قائما على الجهل أو الظنون ، انما يقوم على علم الله المطلق.

(1)يونس / ٤٤.

]و هو أعلم بما يفعلون[

و علمه تعالى أدق من علم الانسان بنفسه بل حتى من حساب الملائكة الحفظة ، لان البشر معرض للزيادة و النقصان في حساباته ، و ذلك بسبب وقوعه تحت تأثير عوامل كثيرة كالغفلة و النسيان و الجهل و . و . ولان الله قد يخفي حتى عن ملائكته بعض أعمال الانسان سترا له.

وقيل الحمد لله رب العالمين

هدى من الآيات

في هذا الدرس ترد كلمة الزمر التي سميت بها السورة ، و قد تكررت مرتين ، مرة عند الحديث عن الكفار ، و اخرى عند الحديث عن المؤمنين ، ذلك أن كلا الفريقين يحشرون إلى مصيرهم زمرا و جماعات .

و ربما سميت السورة بهذا الاسم ، و أكد القرآن عليه مرتين ، من أجل أن يوحي لنا بطبيعة التفاعل بين ابناء المجتمع ، فالناس انما يساقون الى النار و الجنة و فق أعمالهم و انتماءاتهم و هذا المقياس أساسي في حياة الانسان ، فهو اذا أراد ان يعرف نفسه ، أو أرادالأخرون ان يعرفوه ، فما عليه و عليهم الا معرفة الذين ينتمي اليهم اجتماعيا و عمليا ، فان كانوا صالحين كان منهم ، و ان كانوا منحرفين فهو كذلك ايضا.

و الاحاديث المروية تؤكد بأن معرفة الرجال تتم بمعرفة الذين يحيطون بهم ،فمعرفة القائد بحاشيته ، و الشاب باصدقائه ، و النظام بالعاملين فيه ، و الدولة بالذين يؤيدونها من طبقات المجتمع.

قال سليمان (ع: (

"لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا الى من يصاحب ، فإنما يعرف الرجل بِأشكاله و أقرانه ، و ينسب الى اصحابه و أخدانه " (١)و قال الامام علي و هو يوصي و لده الحسين (عليه السلام: (

"قارن أهل الخير تكن منهم و باين أهل الشر تبن عنهم(2) " فالحياة اذن ليست احادية و لا متناثرة ، و انما تسير كتلا و أجناسا) زمرا زمرا) و اذا لم تعرف شخصا بذاته فانك تستطيع معرفته بالزمرة التي ينتمي اليها ، و هذه الحقيقة يؤكدها القرآن في مواضع كثيرة منه ، و بصيغ مختلفة كمخاطبته الناس

بصورة التجمعات : " يا أيها الذين آمنوا " في صفة المؤمنين ، و " الذين كفروا " في صفة الكافرين ، و هكذا المنافقين و المنافقات ، و الصابرين و الصابرات ... الخ.

بينات من الآيات

] [71]و سيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا[

أي جماعات على أساس تجانس أعمالهم يسوقهم ملائكة العذاب.

]حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها[

(1)بح / ج ٧٤ / ص ١٨٨.

(2)المصدر.

السبعة يدخل كل جماعة من باب ، و قد يكون معنى الابواب العذاب الذي يتضمنه كل قسم من جهنم ، و في الخصال عن الصادق عن جده عليهما السلام:

"ان للنار سبعة ابواب ، باب يدخل منه فرعون و هامان و قارون ، و باب يدخل منه المشركون والكفار ممن لم يؤمن بالله طرفة عين ، و باب يدخل منه بنو أمية هو لهم خاصة وهوباب لظى ، و هو باب سقر و هو باب الهاوية يهوى بهم سبعين خريفا فكلما هوى بهم سبعين خريفا فار بهم فورة قذف بهم في اعلاها سبعين خريفا ، ثم هوى بهم هكذا سبعين خريفا فلا يزالون هكذا أبدا خالدين مخلدين ، و باب يدخل منه مبغضونا و محاربونا و خاذلونا ، و انه لاعظم الابواب و أِشدها حرا " (١)و عندما يدخل كل فريق من بابه يتلقاه خزنة النار بالشماتة و السؤال.

]و قال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم ءايات ربكم]فمن جهة كان الرسل هم الذين جاؤوا اليكم و هذه نعمة كبيرة ان يبعث الله هاديا في المجتمع ، و من جهة اخرى لم يكونوا غرباء عنكم فلقد كانوا من وسطكم الاجتماعي و يتكلمون بلسانكم ، و من جهة ثالثة كانو يحملون اليكم رسالة ربكم و يهدونكم الى الآية تلو الآية.

]و ينذرونكم لقاء يومكم هذا[

و كان هذا كافيا لهدايتكم و خلاصكم من النار لو اتبعتموهم ؟؟

(1)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٥٠٤ ، و تجدر الاشارة في هذا الحديث الى ان المذكورين عينات لاصحاب الابواب السبعة و الا فهو يدخل معهم كل من جانسهم في العمل ، بل ان السبعة قد تكون للتخصيص و الكثرة و ليس للحصر.

و لم يكن يملك اصحاب النار ردا على كل هذه الحجج البالغة الا بأن.

]قالوا بلى[

اذن فالهداية ممكنة لو ارادوها فعلا.

]و لكن حقت كلمة العذاب على الكافرين[

ان باستطاعة الانسان ان يكفر بالله ، باختياره و لكن بعدئذ يغلق عليه باب الاختيار ، و يحاول البعض تبرير كفره بانه سوف يتوب في المستقبل كعمر بن سعد الذي اختار الكفر بقتل الامام الحسين (ع) ثم انشد :

يقولون ان الله خالق جنة و نار و تعذيب و غل يدينفإن صدقوا فيما يقولون إنني أتوب الى الرحمن من سنتينو هذا من أخطر الاشياء على البشر ، حين يختار الانحراف ثم يمني نفسه بالتوبة في المستقبل دون ان يدرك سنة الله في الحياة ، و هي ان الانسان قد يختار طريقا بحريته و يتخذ قرارا بكامل ارادته ، و لكنه بعد ذلك لا يتمكن من العودة عنه و الخروج من المأزق الذي يقع فيه بسبب ذلك الاختيار السيء . كالذي يقرر ان يلقي بنفسه من جبل شاهق ثم يجد نفسه عاجزا عن الصعود مرة أخرى ، فالسقوط يكون باختياره و لكنه لا يتمكن من العروج أنى حاول.

و القرآن يعبر عن هذه الفكرة بصيغ عديدة في آياته ، فتارة يسميه بالختم على القلوب و الاسماع " ختم الله على قلوبهم و على سمعهم " (١) و تارة يسميه بذهاب النور " ذهب الله بنورهم و تركهم في ظلمات لا يبصرون " (٢) ، و اخرى يسميه(١) البقرة / ٧.

(2)البقرة / ١٧.

باستحقاق الضلالة " و منهم من حقت عليه الضلالة " (!) أو باستحقاق كلمة الله " كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون " (٢) و يعبر القرآن ايضا عن ذلك بجعل الغشاوة على الابصار " و جعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله" (٣) أو بجعل الاكنة على القلوب " و جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه (4) "و هذه التعابير و تلك كلها تسير الى سلب الله الانسان حينما يصر على الانحراف و الضلال ارادة الهدى فيجد نفسه مجبولا على الفساد و الاستمرار في طريق الباطل.

ان الاختيار ، و الارادة ، و الحرية من اكبر نعم الله على الانسان ، و اذا سلبه ربه هذه النعمة فبماذا يختار الحق على الباطل ، و المستقبل الأخروي على الحاضر الدنيوي ؟

و ان استحقاق الكافرين لكلمة العذاب هو بكفرانهم بنعمة الحرية و تضييعهم فرصة الاختيار على أنفسهم.

[72]و لانهم حقت عليهم كلمة العذاب بانحرافهم في الدنيا ، تحقق ذلك العذاب بواقعه المحسوس في الآخرة.

]قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها[

بتمحضكم في الكفر ، و على الانسان ان لا يغتر بأعماله أبدا لأنه قد يستطيع ان يغلق عن نفسه باب الزنى من النار ، و لكنه يدخلها من باب الاستسلام للطاغوت و التقاعس عن الجهاد ، فيجيب علينا اذن لكي نزحزح عن النار ان نغلق كل ابوابها(١) النحل / ٣٦.

(2)يونس / ٣٣.

(3)الجاثية / ٢٣.

(4)الانعام / ٢٥.

عن أنفسنا ، و ذلك بعـمل الصالحات و ترك الذنوب جميعا التي هي مفاتيح ابواب جهنم ، و أهم تلك الابواب و اخطرها باب المتكبرين الذي يخصصه القرآن هنا بالذكر و الذم من بينها كلها.

]فبئس مثوى المتكبرين[

[73]و في الجانب الآخر يحدثنا ربنا عن مصير المؤمنين المتقين الذين يزفون بالترحيب و التحية الى قصورهم ، و حورهم ، و عموم جزائهم في الجنة.

]و سيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها و فتحت أبوابها [الثمانية كما في الروايات (١) ، ففي كتاب الخصال عن الامام الصادق (ع) عن جده قال:

"أن للجنة ثمانية ابواب ، باب يدخل منه النبيون و الصديقون ، و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون ، و خمسة ابواب تدخل منها شيعتنا و محبونا ، و باب يدخل منه ساير المسلمين ممن يشهد ان لا اله الا الله و لم يكن في قلبه مثقال ذرة من بغضنا أهل البيت " (٢(

و عنه (ع) قال : قال رسول الله (ص: (

"للجنة باب يقال له باب المجاهدين يمضون اليه ، فاذا هو مفتوح و هم متقلدون بسيوفهم ، و الجمع في الموقف و الملائكة تزجر ، فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذلا و فقرا في معيشته و محقا في دينه ، ان الله اعز أمتي بسنابك خيلها و مراكز(١) راجع التعليق الذي مر في الرواية المتقدمة عن النار.

(2)نور الثقلين / ج ٤ / ص ٥٠٥.

رماحها " (١(

و قال الامام الباقر (ع: (

]أحسنوا الظن بالله ، و اعلموا ان للجنة ثمانية أبواب عرض كل باب منها مسيرة أربعمائة سنة " (٢)و اذا دخل المؤمنون الجنة استقبلهم الملائكة الموكلون بها ، يلقون اليهم تحية ربهم عز وجل.

]و قال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين]ولا يطيب الانسان و بالتالي يدخل الجنة الا اذا اجتنب الذنوب و المعاصي في الدنيا ، فزكى نفسه بذلك و بعمل الصالحات ، لان الجنة دار الطيبين فقط.

[74]و حيث يعتبر المؤمنون دخول الجنة من أكبر نعم الله عليهم شكروه على ذلك.

]و قالوا الحمد لله الذي صدقنا و عده و أورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء]قالوا : المراد بالارض الجنة ، و الله العالم.

]فنعم أجر العاملين[

و هذه النهاية الحكيمة للآية تؤكد حقيقة هامة جدا ، و هي ان التقوى و ان(١) المصدر.

كانت درع الانسان و حصنه الذي يقيه العذاب ، الا انها لا تكفي و حدها من دون العمل ، الذي لا ينفك ان يكون جزاءا أساسيا منها.

ان الدرع و حدها لا تكفي المقاتل الذي يخوض المعركة ، بل لابد له من سلاح يمارس به عملية الهجوم و الدفاع ، و هكذا بالنسبة للمؤمن فهو يتحصن بالتقوى عن ارتكاب الموبقات ، و لكنه من جهة اخرى لا يستغني عن العمل لكي يقرب نفسه من الجنة و يبني مستقبله الأبدي.

و لان الجنة لا تحصل الا بالعمل الصالح بعد التقوى ، و لان عمر الانسان قصير و محدود فلابد ان يزيد من تقواه و من عمله ، و ان يستفيد قدر الامكان من فرصة العمر القصيرة ، في سبيل رضى الله و شراء الجنة ، و ذلك بان يجعل ذلك هدفا امامه يسخر كل جهوده لبلوغه.

و عن جابر بن عبد الله الانصاري قال : جاء اعرابي الى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله هل للجنة من ثمن ؟

قال : " نعم"

قال : وما ثمنها ؟

قال : " لا اله الا الله يقولها العبد الصالح مخلصا بها "قال : وما اخلاصها ؟

قال : " العمل بما بعثت به في حقه " (١(

(1)امالي ابن الشيخ الطوسي / ص ٢١.

و قال رسول الله (ص) : " من قال لا اله الا الله غرست له شجرة في الجنة " . و حينما عرج به (ص) الى السماء رأى الملائكة يبنون القصور و ربما امسكوا (عن العمل و البناء) ، فقال : مالكم ربما بنيتم و ربما امسكتم ؟!

فقالوا : لا نبني حتى تأتينا النفقة.

فقال : و ما نفقتكم ؟!

فقالوا :قول المؤمن سبحان الله ، و الحمد لله ، و لا اله الا الله ، و الله اكبر . (١)و مما يروى من سيرة الامام زين العابدين (ع) انه خرج ذات مرة و قد تطيب و لبس الجديد ، فرآه بعض اصحابه فقال له : الى اين يا ابن رسول الله ؟

فقال : اذهب لأخطب.

ثم افترقا بعدئذ . و حينما جاء الصحابي للمسجد رأى الامام واقفا للصلاة ، فسأله مستغربا : الم تقل انك ذاهب لتخطب ؟!

فقال (ع) : بلى اخطب الحور العين من ربها (٢(

اذن فالذي يقيم الصلاة ، و الذي يجاهد في سبيل الله ، و الذي يتصدى للمشاريع الاسلامية و .. و .. كلهم يبني مستقبله الأبدي بهذه الأعمال.

[75]و صورة ثالثة من يوم القيامة بالاضافة الى دخول اولئك النار و هؤلاء الجنة ، هناك منظر الملائكة الذين يحفون بعرش القدرة و العزة و يسبحون بحمد الله.

(2) (1)النصوص منقولة بمضامينها.

]و ترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم]و هذا المنظر من أعظم تجليات قدرة الله و عظمته ، ثم يشير القرآن الى انتهاء المحكمة الالهية العادلة باعتمادها مقياس الحق.

]و قضي بينهم بالحق[

و يبقى اهل الجنة يتذكرون نعم الله عليهم ومن أعظمها نعمة الهداية في الدنيا ، و النجاة من النار في الآخرة فيحمدون ربهم ، و من جانب آخر يتجلى عدل الله لاصحاب النار فيدخلونها و هم معترفون بمسؤوليتهم عن هذا المصير و بان حكم الله فيهم حق و صدق ، فيحمدونربهم.

]وقيل الحمد لله رب العالمين. [